

الناصرة صلاح الدين

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

مكتبة مصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
بالمصرية للتأليف والتزويد

أعلام العرب
الكتاب القادم

عبد الله فكري

بقلم
محمد عبد الغني حسن
صدر في ٧ يونيو ١٩٦٥

بمطبعة

مكتبة

٣ شارع كامر

المن ٥ قروش

الدار القومية للطباعة والنشر

أعلام العرب

٤١

الناظر في سلاحي الدين

يوسف بن أيوب

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر
الدار المصرية للتأليف والنشر

مقدمة

التاريخ ملئ بسير الأبطال والأعلام ، فلكل دولة أبطالها ولكل أمة أعلامها الذين تعتز بهم وتفخر بانتسابهم اليها وتحرص على ترديد سيرهم والتغنى بأخلاقهم وأعمالهم ، لأن أبناء الأمة يجدون في ذلك كله نوعا من الاعتزاز بالماضي والفخر بسير الآباء والأجداد ، فضلا عن الأمل في المستقبل لأن الأمة التي تنجب بطلا قادرة على أن تنجب أبطالا مهما تطل بها الأيام وتتقلب بها الأحداث .

على أن للبطولة درجات وأنواع ؛ فهناك في التاريخ بطولة محلية اقليمية : على مستوى القرية أو المدينة أو الاقليم ؛ وهناك بطولة وطنية على مستوى الوطن أو القطر ، وهناك بطولة عالمية على مستوى الوطن الكبير للانسان . والبطل في النوع الأخير لا يخلد اسمه في تاريخ وطنه الصغير أو في تاريخ المسرح الذي عاش عليه وعمل بين جوانبه ، بل يخلد اسمه في تاريخ البشرية ؛ فينال اعجاب الأعداء والأصدقاء جميعا ، ويردد اسنمه أناس لا تربطهم به صلة من الصلات الا صلة الانتماء الى الوطن البشرى الكبير .

وإذا كانت الأمة العربية تفخر في تاريخها المجيد بعدد الأعلام الذين خلدوا أسماءهم في تاريخ المجتمع البشرى : من مصلحين وعلماء ومجاهدين وغيرهم ؛ فإن اسم صلاح الدين يحتل مكانة مرموقة بين أعلام العرب ، بوصفه زعيما آمن برسالته ، وثبت على الجهاد لتحقيق هذه الرسالة ، وسلك في سبيل ذلك طريقا مستقيما يتصف بالخلق القويم والاستقامة الشريفة ، حتى حظى باعجاب معاصريه جميعا في مشارق الأرض ومغاربها ، وشهد له بذلك كله أعداؤه وخصومه مثلما شهد به أصدقائه وأنصاره . وحسب صلاح الدين أن أهل فرنسا وإنجلترا في العصور الوسطى عرفوا ضربة جديدة فرضها « فيليب أوغسطس » ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا — وأطلق عليها في القرن الثاني عشر اسم « ضربة صلاح الدين » ؛ بمعنى جمع الأموال من الغرب لمحاربة صلاح الدين في الشرق .

والحق أن المكانة الكبيرة التي حققها صلاح الدين لنفسه في التاريخ إنما جاءت نتيجة لموقفه الحازم من الصليبيين ، ولايمانه المطلق بالجهاد ، ولادراكه العميق لخطورة المراكز الصليبية بالشام على كيان العروبة ومستقبلها . حقيقة أنه سبق صلاح الدين من أعلام العروبة والاسلام من تزعموا حركة الجهاد في زمنهم ضد الصليبيين ، وحقيقة أنه أعقب صلاح الدين من أبطال العروبة والاسلام من واصلوا حركة الجهاد ضد الصليبيين والتتار ، ولكن أحدا من أولئك الأعلام والأبطال لم يظهر

ما أظهره صلاح الدين من عناد ومثابرة وإدراك لحقيقة الخطر الخارجى مثلما أظهر صلاح الدين .

ثم ان صلاح الدين تحدى الصليبيين وهم فى أوج مجدهم ، بعد أن بلغوا من القوة واتساع النفوذ فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر درجة هددت أهل العراق والشام ومصر بل أهل الحجاز وسكان الحرمين . فصالح الدين عندما أعلنها حربا دائبة على الصليبيين كان يعلم تماما أنه سينازل خصما قويا مكن لنفسه فى البلاد ، ومن خلفه الغرب الأوربى بأجمعه يمدده بالعدد والعُدَد .. واذا كان صلاح الدين قد بلغ درجة كبيرة من القوة — بوصفه حاكما على مصر والشام — فانه بنزوله الى المعركة تحدى أكابر ملوك الغرب فى انجلترا وفرنسا وألمانيا فضلا عن البابوية ذات النفوذ الروحى الواسع فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى . وبمعنى آخر فان الفارق واضح بين صلاح الدين من ناحية وغيره من زعماء الجهاد السابقين واللاحقين من ناحية أخرى ؛ لأن أسلاف صلاح الدين من زعماء حركة الجهاد نازلوا جموعا من الصليبيين ما زالت فى دور النضج والنمو والسعى لتفهم أوضاع البيئة الجديدة التى استقرت فيها بالشرق ؛ وخلفاء صلاح الدين من زعماء حركة الجهاد نازلوا جماعات صليبية هزتها حروب صلاح الدين وضرباتهِ القوية ، وجعلتها تتحول من دور الهجوم الى دور الدفاع عما تبقى لها من ممتلكات متناثرة تعرضت للانحلال والذبول . أما صلاح الدين نفسه فقد تحدى

امارات صليبية ومملكة قوية للصليبيين في بيت المقدس ، بلغت جميعها على أيامه عنفوان قوتها وشبابها واكتملت لها أسباب الحياة والتنظيم السياسي والحربي . فاذا أضفنا الى ذلك تمسك صلاح الدين بمبدأ الوحدة ، أدركنا في نهاية الأمر السر في عظمة هذا الرجل في التاريخ . ونحن نعتز من باب الأمانة التاريخية أن فكرة الوحدة في حد ذاتها لم تكن في عصر الحروب الصليبية من ابتكار صلاح الدين وانما ترجع أصول هذه الفكرة من الناحية النظرية الى عماد الدين زنكى ومن الناحية العملية الى نور الدين محمود . ولكن دور صلاح الدين في قضية الوحدة لا ينحصر في أنه استفاد من سياسة نور الدين محمود وجهوده — كما يظن البعض — وانما ترجع أهمية هذا الدور وعظمته الى ايمان صلاح الدين بمبدأ الوحدة ايمانا لا يتزعزع وحرصه على أن يجعل الوطن العربي من الفرات الى النيل قوة واحدة ويدا واحدة شعارها الجهاد وهدفها تطهير أرض العروبة من رجس الدخلاء . وربما تسرع بعض الكتاب المعاصرين وغير المعاصرين ورأوا في محاولات صلاح الدين لجمع شمل القوى الاسلامية الصغيرة المتناثرة في شمال الشام والعراق ، نوعا من الطمع غير المشروع واعتداء صارخا على أبناء البيت الزنكى وهم سادته وأرباب نعمته ... ولكننا اذا وقفنا أمام الحقائق لتدبرها تدبر المؤرخ المنصف وجدنا أن صلاح الدين هو آخر من يمكن اتهمه بالطمع فيما للغير . وكيف يوصف صلاح الدين بالطمع وهو الرجل الذي أكد معاصروه أنه مات ولم يوجد في

خزائنه من الفضة سوى سبعة وأربعين درهما ودينارا واحدا من الذهب ؟ لو كان صلاح الدين من ذلك النوع من الرجال الذين يشبهون في الحكم لاشباع رغبة في التسلط والسيطرة لقنع بحكم مصر بعد أن أصبح المتصرف الأوحى في شئونها عقب وفاة آخر خلفائها الفاطميين ثم بعد وفاة سيده نور الدين محمود . نعم كان من الممكن أن يفرح صلاح الدين بملك مصر وهو الرجل الذى كان بالأمس القريب تابعا لا متبوعا والذى لم يكن يحلم فى يوم من الأيام بملك بلد مثل مصر له من اتساع الرقعة وأسباب القوة ووفرة الثروة وكثرة الخيرات ما هو كفىل بأن يجعله حصنا حصينا لأى حاكم يهيمن عليه .

ولكن صلاح الدين لم يطمع فى الملك لمجرد الرغبة فى الملك ، وقد أدرك صلاح الدين بعد وفاة سيده نور الدين أنه اذا كان نور الدين قد ترك بعده من يرثه فى دولته وأراضيه ، فانه لم يترك من يرثه فى سياسته الخاصة بالوحدة والجهاد . وهكذا اعتبر صلاح الدين نفسه الوريث الوحيد لسيده نور الدين فى سياسته ، وهى السياسة التى استهدفت جهاد الصليبيين وطردهم تماما من أرض الوطن العزيز . ولكن كيف يمكن تنفيذ سياسة الجهاد وحكام الشام والعراق منقسمون على أنفسهم شيئا بدافع أغراض دنيوية شخصية لايجوز أن تقف حائلا دون تنفيذ سياسة قومية تحررية بعيدة الأهداف سامية الغايات ؟ وما ذنب صلاح الدين ، بل ما ذنب قضية الجهاد ، اذا كان نور الدين محمود لم يترك من بعده الا ذرية ضعافا غدت ألعوبة فى أيدي المغرضين من وزراء

نور الدين محمود وأمرائه الذين رأوا في السيطرة على أبناء البيت الزنكى تحقيقاً لأطماعهم وشهواتهم ؟ هل يترك صلاح الدين أمر الجهاد ويترك السرطان العربى يواصل زحفه التدريجى فى جسم الوطن العربى ، أو يغامر بنفسه فى حرب جزئية لا أمل فى نجاحها ضد الصليبيين وهو متعرض فى أية لحظة لتآمر بعض حكام القوى الاسلامية ضده ليطعنوه من الخلف ، مثلما سبق أن فعل معين الدين أنر حاكم دمشق الخائن عندما تحالف مع الصليبيين ضد نور الدين محمود ؟ لاشك فى أن منطق العقل والضمير كان يحتم على صلاح الدين ألا يسلك هذا أو ذاك من أساليب الخيانة ، وأن يبدأ جهوده بتوحيد قوى المسلمين والضرب على أيدي ذوى المصالح الشخصية من الاتصاليين ، وبعد ذلك يمكنه أن يواجه الدخلاء الغاصبين ، ومن خلفه الوطن العربى من الفرات الى النيل يقف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

وهكذا اذا نحن تكلمنا عن صلاح الدين فانما نتكلم عن بطل من أبطال الوحدة وعلم من أعلام الجهاد ، بطل جمع بين الشجاعة وكرم الخلق ، وعلم وضع لنفسه ولأُمته رسالة سامية وأهدافا خالدة ، وكرس نحياته فى سبيل تحقيق هذه الرسالة والوصول الى تلك الأهداف . انه الرجل الذى وصفه صديقه اورفيقه القاضى ابن شداد بأنه قضى حياته « صابرا على مر العيش وخشوته » مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتسابا لله تعالى .

أما نحن فلا يسعنا سوى أن نردد نفس الدعاء الذي دعاه
له ابن شداد « اللهم انك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك
وجاهد رجاء رحمتك ، فارحمه ... »

والله يوفقنا فيما ذهبنا اليه من خدمة تاريخ الآباء
والأجداد .

سعيد عبد الفتاح عاشور
كلية الآداب بجامعة القاهرة

في ذى الحجة سنة ١٣٨٤

الموافق مايو سنة ١٩٦٥



قونية

هرقلة

ألمنة أرمينية الصغرى

الرها

أنطاكية

حلب

عمّاه

مصر الكراد

عص

طرابلس

بيروت

صيدا

صو

عكا

عسليت

عقلان

غزة

بيت

القدس

الكرامة

الشولة

مصر

الفلزم

بلاد الشام على عصر

الحروب الصليبية

الفصل الأول

عالم مضطرب

هل الأحداث هي التي تصنع الرجال أو أن الرجال هم الذين يصنعون الأحداث ؟ وبعبارة أخرى أيهما يدين بوجوده للطرف الآخر : الشخصيات الكبيرة التي نسمع عنها في التاريخ تدين بظهورها وعظمتها الى الأحداث التي أحاطت بها ومهدت لظهورها وساعدت على نموها ؛ أم أن الأحداث الضخمة التي يمتلئ بها تاريخ البشر هي التي تدين بوجودها وظهورها وتطورها وصناعتها الى بعض الشخصيات الملهمة من صانعي التاريخ ؟ مشكلة عسيرة طالما شغلت تفكيري طوال دراستي التاريخية، وفي كل مرة أرى أنها تحتاج الى مزيد من الروية قبل أن أقطع فيها برأى حاسم . وربما كان أقرب الى الصواب عند معالجة هذا النوع من المشاكل الفكرية أن نأخذ رأيا وسطا ، فنقول ان كثيرا من الأحداث التاريخية انما هي من صنع البشر ، وأن هذه الأحداث بدورها رسمت للبشر الدور الذي يلعبوه على مسرح التاريخ . فالأوضاع والأحداث التي ألت بالعالم الروماني القديم في القرن الأول قبل الميلاد هي التي ساعدت على ظهور قيصر وأوغسطس وفي الوقت نفسه أدى ظهور هذين الرجلين الى

تطوير تاريخ العالم الرومانى تطويرا لا ينكره باحث . كذلك
يمكن أن يقال أن تطور أحداث الثورة الفرنسية هو الذى أدى
الى ظهور رجل مثل بوناپرت ، ولم يلبث بوناپرت بدوره أن
أسهم فى خلق أحداث جديدة تركت أثرا عميقا فى التاريخ
الأوروبى بوجه خاص . والأوضاع التى أحاطت بألمانيا عقب الحرب
العالمية الأولى هى المسئولة عن ظهور رجل مثل هتلر ، ولا نستطيع
أن ننكر الأثر الذى تركه هتلر بدوره فى التاريخ .. وهكذا
تتلخص المشكلة فى عملية تفاعل كبيرة ، فتساعد الأحداث فى خلق
الرجال ويساعد الرجال فى خلق الأحداث ، ويشترك الجميع فى
صياغة التاريخ تحت تأثير ظروف البيئة والطبيعة ...

* * *

وإذا كان التاريخ يذكر لصالح الدين الأيوبى أنه البطل
الذى ظهر على مسرح الشرق الأدنى فى النصف الثانى من القرن
الثانى عشر للميلاد ، ليشكل الأحداث ويؤثر فى سيرها بعد أن
قضى حياته فى تدعيم الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى ثم فى
محاربة الصليبيين حتى حوّل أمنهم فى بلاد الشام خوفا
وانتصاراتهم هزائم ، وأنزل بهم ضربات لم يفيقوا منها حتى تم
طردهم نهائيا من الشام فى أواخر القرن التالى .. إذا كان هذا هو
المعروف عن صالح الدين ، فمن حق التاريخ أن تسجل الظروف
والأحداث التى مهدت لظهور صالح الدين ، بل التى أدت
وساعدت على ذلك الظهور ، والتى لولاها ما أصبح المسرح
معدا لنشاط بطل كبير مثل صالح الدين ..

والواقع ان هناك أمثلة كثيرة في التاريخ لأجزاء عديدة من العالم تشهد على أن الفوضى وسوء الأحوال وانتشار الأخطار والمخاوف كثيرا ما تنتهى بظهور رجل مصلح يضع حدا لتلك الفوضى والأخطار ويوفر الأمن والاستقرار لقومه بعد ما عانوه من قلق واضطراب ، فيكون ظهوره بشيرا بفجر نهار جديد يأتى بعد ليل طويل وأمس ملئ بالمخاوف والهواجس . ومن هذا يبدو أنه من الصعب تقدير ما حققه المصلح أو البطل لقومه ووطنه من أعمال وخدمات الا في ضوء الأوضاع التى ألت بالبلاذ والعباد قبل ظهوره . وهذه هى الحقيقة الكبرى التى جعلتنا نبداً هذا الكتاب بفضل تخصصه لدراسة الموقف في الشرق الأدنى قبل ظهور صلاح الدين ..

* * *

الدولة العباسية والروم :

ويبدو أن المدخل الطبيعى لدراسة أحوال الشرق الأدنى قبل ظهور صلاح الدين على مسرحه انما يأتى من ناحية الدولة العباسية . ذلك أن ما أصاب المسلمين في الشرق الأدنى من وهن وضعف أدى الى تمكين الصليبيين من تثبيت أقدامهم في مراكز هامة من أراضيهم ، انما يرجع أولا الى ضعف الخلافة العباسية وتفتت دولتها ، مما ترك أثره في الوطن الاسلامى مشرقه ومغربيه بوجه عام ، وفي منطقة الشرق الأدنى بوجه خاص .

ذلك أن الدولة العباسية بلغت في أوائل القرن التاسع للميلاد (القرن الثالث للهجرة) درجة واضحة من اتساع الشهرة

وازدیاد النفوذ وقوة السلطان ووفرة الحرمة ، مما لم يتيسر لدولة أخرى معاصرة . وكان الخليفة العباسی يقول كلمته فی بغداد فیجاب بالطاعة والولاء فی جميع أرجاء دولته الواسعة التي امتدت من المحيط الى الخليج . ولم تكف جيوش الخلافة العباسية وقتئذ عن مواصلة الجهاد — وبخاصة ضد الروم أو البيزنطيين — فدأب الخلفاء العباسيون واحدا بعد آخر على ارسال الجيوش صيفا وشتاء لتوغل فی آسيا الصغرى وتستولى على المدن والحصون ثم تعود مثقلة بالغنائم والأسرى . وأدرك أباطرة القسطنطينية أنه لا قبل لهم بمواجهة جيوش الخلافة ، فدأبوا على شراء الصلح من المسلمين مقابل دفع جزية سنوية ضخمة من المال حيناً أو تحمل مرارة الهزيمة وقسوة الضربات التي أنزلتها بهم الجيوش الاسلامية أحيانا .

على أن الموقف أخذ يتبدل تدريجيا منذ أخذ الخليفة المعتصم العباسی يكثّر من الاعتماد على الترك ، الأمر الذي كان من أسباب تركه بغداد ونقل عاصمته الى سامرا سنة ٨٣٦ . ولم يلبث أن غدا الخلفاء العباسيون أداة سهلة فی أيدي أمراء الأتراك ، حتى غدت السلطة الفعلية فی القرن العاشر فی يد كبير أولئك الأمراء الذي اتخذ لقب « أمير الأمراء » . وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والحركات المذهبية والدينية داخل الدولة ؛ مثل الحركة الخرمية التي تزعمها بابك الخرمي وحركة المعتزلة ، فضلا عن نشاط الشيعة فی جوف الدولة . فاذا أضفنا الى ذلك ثورة الزنج فی جنوب العراق (٨٧٧—٨٨٣)

وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق سنة ٨٩٠ ، استطعنا أن نكون فكرة عامة عن عوامل انحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال .

وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وتفككها في ذلك الدور ، من الحركات الانفصالية التي قامت في جسم الدولة والتي أدت الى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة ، مثل الدولة السامانية (٩٧١ — ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٨ — ١٠٤٧) والدولة الغزنوية (٩٦٢ — ١١٨٦) والدولة الحمدانية (٩٢٩ — ١٠٠٣) والدولة البويهية . ويهملنا من هذه اليبوت التي قامت في المشرق على حساب الدولة العباسية ، السامانيون والبويهيون . أما السامانيون فقد غدت لهم السيطرة على الجزء الشرقي من بلاد فارس ، أعنى خراسان وبلخ وما وراء النهر فضلا عن فرغانة وخوارزم . وقد اتخذ السامانيون بخارى وسمرقند مركزين لنشاطهم ، واستمروا يحكمون تلك الأقاليم الواسعة حكما مستقلا معظم القرن العاشر . وأما البويهيون — وهم من أصل فارس أيضا — فقد سيطروا على الجزء الغربي من بلاد فارس — أعنى عراق العجم وكرمان وخوزستان — كما سيطروا على العراق العربي بما فيه بغداد بين سنتي ٩٤٥ ، ١٠٥٥ : وفي تلك الفترة اتخذ أمراء بني بويه لقب أمراء ، وسلبوا لأنفسهم كل ما للخلفاء العباسيين من سلطان ونفوذ ، حتى صار أمير الأمراء من بني بويه هو الحاكم الفعلي في الدولة.

على أنه يلاحظ أن كلا من هذين البيتين — السامانيون والبويهيون — كانوا من أصل فارس ، ومن ثم وجهوا جل عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية ، ولم يهتموا بالأقاليم العربية كالجزيرة وبلاد الشام ومصر . والواقع أن بلاد الشام ومصر لم تكن أقل تعرضا للفوضى والانقسام من بقية أجزاء الخلافة . ذلك أن الاخشيديين استقلوا بمصر والجزء الأكبر من بلاد الشام — حتى طرابلس وبيروت شمالا — (٩٣٥ — ٩٦٩) . أما شمال الشام واقليم الموصل فقد استقل بهما الحمدانيون (٩٢٩ — ١٠٠٣) الذين ظلوا في منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والاشعديين من ناحية أخرى . وزاد من الفوضى التي تعرضت لها بلاد الشام في ذلك الدور انتفاضة القبائل العربية ، فسيطر العرب الجسريون أو اليمانيون على جنوب الشام ووسطها حيث صارت الغلبة في فلسطين لبنى طى وفي وسط الشام لبنى كلب . أما عرب الشمال أو القيسيون فقد سيطروا على شمال الشام والجزيرة حيث ظهر من قبائلهم بنو كلاب وبنو نمير وبنو عقيل . وجميع هذه القبائل الغرمية ربطتها علاقات بالقرامطة ، بل ان بنى طى وبنى كلب شاركوا في ثورة القرامطة التي حدثت في مستهل القرن العاشر .

أما الخلافة العباسية ذاتها فاستمرت أوضاعها في القرن التاسع تنتقل من سوء الى أسوأ ، حتى تولى منصب الخلافة في مدى ثمان سنوات (٨٦١ — ٨٦٩) أربع خلفاء مات منهم

اثنان مقتولان هما المعتز بالله والمهتدي بالله . وأمام ذلك الانحلال
الذي أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذي اعترى وحدة
الدولة الإسلامية ازداد أباطرة الروم حزما وصلابة تجاه جيرانهم
المسلمين . وبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية تلتزم سياسة
الدفاع ضد هجمات المسلمين منذ القرن السابع للميلاد ، اذا
بأباطرة القسطنطينية يتحولون في القرن العاشر من الدفاع الى
الهجوم .

على أنه في الوقت الذي أخذ الروم يشددون هجماتهم على
المسلمين في أطراف العراق والشام ، شاءت الظروف أن تظهر على
مشرق الشرق الأدنى قوة فتية أمدت الوطن الإسلامي بدماء جديدة
وجعلت المسلمين يتحولون مرة أخرى من الدفاع الى الهجوم .
أما هذه القوة فكانت قوة الأتراك السلاجقة الذين بسطوا
سيطرتهم على الخلافة العباسية في بغداد وقاموا بحمايتها وحماية
أراضيها . وكان طبعيا أن يحمل السلاجقة — وهم مسلمون
سنيون — أمانة جهاد الروم ، فأخذوا يغيرون على أراضي الروم
في آسيا الصغرى وأنزلوا بهم عدة هزائم أضخمها الهزيمة التي
أنزلها السلطان ألب أرسلان السلجوقي بالروم في موقعة مانزكرت
أو ملازكرت سنة ١٠٧١ .

وأمام تلك الكارثة لم يجد الروم بدا من الاستنجاد بغرب
أوربا والبابوية ، فلبت البابوية النداء ، ومن ثم تجمعت الحملة
الصليبية الأولى في الغرب سنة ١٠٩٦ .

* * *

ظهور الصليبيين على مسرح الشرق الأدنى :

وليس هذا مجال الخوض في جذور الحركة الصليبية وأسبابها ودوافعها الحقيقية ؛ ولكننا نكتفى هنا بالإشارة الى أنه منذ بداية حركة الفتوح العربية الإسلامية في القرن السابع للميلاد، والدولة البيزنطية لا تكف عن طلب مساعدة الغرب الأوربي المسيحي ضد المسلمين الذين اقتطعوا أجزاء ثمينة من أراضيها . ولكن شاءت الظروف أن يعيش غرب أوربا حتى القرن الحادي عشر في غمة العصور المظلمة ، فلم يكن لديه من الاستعداد أو الإمكانيات ما يمكنه من تلبية نداء أتباع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في القسطنطينية ، الأمر الذي جعل البيزنطيين يقفون وحدهم أمام جيرانهم المسلمين ، وجعل العلاقات بين الطرفين تستمر بين مد وجزر لصالح هذا أو ذاك من الطرفين المتنازعين ، حتى كانت الكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية وجيشها وامبراطورها على أيدي السلاجقة المسلمين في موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ كما سبق أن أشرنا . وكان أن صادفت استغاثة الدولة البيزنطية عندئذ قبولا في الغرب الأوربي الذي أخذ يفيق من سباته الطويل ؛ فاذا بالبابوية في الغرب تجد في فكرة ارسال جيوش الى الشرق فرصة ثمينة لتحقيق حلم جميل طالما تافت الى تحقيقه هو فرض سيطرتها على الكنيسة الأرثوذكسية وتحقيق زعامة البابوية على المسيحيين جميعا في الشرق والغرب . ولم تلبث أن قوبلت دعوة البابا للحرب الصليبية بالاستجابة في غرب أوربا ، فرحب بها جمهور العامة بسبب الفاقة

والضيق الاقتصادي الذي كانوا يعانون منه عندئذ في غرب أوروبا ، ورحب بها فريق كبير من الفرسان وأمرأء الاقطاع لأنهم وجدوا فيها فرصة طيبة لتأسيس امارات لهم في الشرق ؛ ورحبت بها المدن التجارية مثل بيزا والبندقية وجنوا لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة ، هي الاستئثار بتجارة الشرق واقامة مراكز تجارية لها في شرق البحر المتوسط ، وجمع الأموال والثروات من وراء ذلك كله .

وهكذا اتفقت مختلف الأطراف في المجتمع الأوربي الغربي على ارسال حملة الى الشرق لتحقيق أغراض دنيوية بحثة تحت ستار زائف من الدين جعلها تنتسب الى الصليب وتعرف باسم الحروب الصليبية ، وهي في حقيقة أمرها أبعد ما تكون عن روح المسيحية وآفاقها . وقد خرجت الحملة الصليبية الأولى من الغرب سنة ١٠٩٦ ، وكان الشرط الأول منها يتألف من الدهماء والعامّة الذين لم يشاركوا في تلك الحركة الا فرارا من الجوع والفاقة في غرب أوروبا ، والذين كانوا يجهلون أبسط مبادئ الحرب ؛ فأتوا من ضروب السلب والعدوان على اخوانهم المسيحيين في شرق أوروبا ما أثار الاشمئزاز من سلوكهم ، حتى اذا ما وصلوا الى آسيا الصغرى ، سهل على السلاجقة القبض عليهم وتحويلهم الى كومة كبيرة من الأشلاء . أما الشرط الثاني من الحملة الصليبية الأولى فقد تألف من الأمراء وأتباعهم من الفرسان المسلحين ، أي أنه يمثل الشرط النظامي من الحملة . وعلى الرغم من التنافر الذي بدا لأول وهلة بين الصليبيين

الغريبين والبيزنطيين الأرثوذكس ، وعلى الرغم من العقبات التي
حرصت الامبراطورية البيزنطية على وضعها في طريق الصليبيين
من أول الأمر ؛ على الرغم من كل ذلك فقد نجحت الحملة الصليبية
الأولى في تحقيق نتائج كبيرة ونجاحا أكثر مما كان يطمح فيه
الصليبيون أنفسهم . ذلك أنه لم تكد تمر سنوات قليلة حتى
كان الصليبيون قد ثبتوا أقدامهم في الوطن العربي بالشرق الأدنى ،
وأسسوا ثلاث امارات كبرى في الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلا
عن مملكة بيت المقدس الصليبية . ولم يلبث الصليبيون أن
اتخذوا هذه المراكز الكبرى قواعد ينشرون منها نفوذهم على
بلاد الجزيرة والشام ، فاستولوا على عديد المدن والقرى على
الساحل وفي الداخل ، بالإضافة الى الحصون الكثيرة التي
أقاموها وشيدوها لاحكام سيطرتهم على البلاد .

* * *

موقف المسلمين من الخطر الصليبي :

ومن الواضح أن هذه المكاسب السريعة التي حققها
الصليبيون في نهاية القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر لا يرجع
الفضل فيها الى قوتهم بقدر ما يرجع الى ضعف المسلمين
عندئذ . ذلك أن الصليبيين أفادوا الى حد كبير من الانقسامات
التي تعرض لها المسلمون في الشرق الأدنى في أواخر القرن
الحادى عشر بين شيعة وسنة ، وعرب وترك . بل لقد بلغ من
غفلة المسلمين أنهم لم يدركوا في أول الأمر حقيقة الحركة الصليبية
فأراد بعضهم أن يستغل تلك القوة الجديدة التي ظهرت على

مشرح الشرق الأدنى في ضرب منافسيهم وخصومهم من اخوانهم المسلمين . من ذلك أنه لم يكذب يفرض الصليبيون حصارا على أنطاكية ، حتى أرسل الأفضل — الوزير الفاطمي بمصر — سفارة الى الصليبيين في أوائل سنة ١٠٩٨ ، يعرض عليهم محالفته ضد الأتراك السلاجقة ، على أن يقتسم الحليفان الغنيمة فتكون أنطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين !!

وليس معنى ذلك أن المسلمين تقاعسوا عن صد ذلك الخطر الصليبي الغربي في مرحلته الأولى ؛ وانما ظهرت عدة محاولات من جانب أمراء المسلمين لوقف الزحف الصليبي . من ذلك أنه حدث عندما أخذ الصليبيون يحاصرون أنطاكية في أواخر سنة ١٠٩٧ أن تجمعت قرب شيزر قوة اسلامية بزعامه دقاق ملك دمشق وجناح بن ملاعب أمير حمص ، واستطاعت هذه القوة أن تتفوق على الصليبيين في الاشتباك الذي حدث بين الطرفين قرب البارة . وكان رضوان ملك حلب يقف عندئذ موقفا سلبيا من تهديد الصليبيين لأنطاكية ، بسبب ما كان هناك من علاقة غير طيبة بين رضوان وياغى سيان حاكم أنطاكية ؛ ولكن رضوان لم يستطع المضي طويلا في سياسته فصمم على أن يتناسى الماضي وأسرع لاتخاذ أنطاكية على رأس حملة شاركه فيها سكمان بن أرتق من ديار بكر ، وأمير حماه ، فضلا عن قوات أخرى من حمص ومن الأراتقة في اقليم الجزيرة .

واذا كانت هذه الجهود قد باءت بالفشل ، مما ترتب عليه سقوط أنطاكية في قبضة الصليبيين في يونية ١٠٩٨ ، الا أن ذلك

لا يعنى توقف حركة المقاومة الاسلامية . ذلك أن سقوط أنطاكية آثار موجة من الذعر في البلدان الاسلامية المجاورة « فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن » (١) . وكان كربوغا أتابك الموصل قد أعد عدته لانتفاذ أنطاكية ، ولكنه أضاع كثيرا من الوقت في محاولة فاشلة للاستيلاء على الرها من الصليبيين ، حتى اذا ما أدرك أنطاكية على رأس جيوشه ، كانت المدينة قد سقطت فعلا في قبضة الصليبيين . ومع ذلك فقد لجأ كربوغا ومن انضم اليه من أمراء المسلمين — مثل دقاق بن تتش صاحب دمشق وطغتك أتابك وأرسلان تاش صاحب سنجار وسكمان ابن أرتق وجناح الدولة حسين صاحب حمص — الى حصار الصليبيين داخل أنطاكية حتى نفذت أقواتهم وصاروا « ليس لهم ما يأكلونه » ، وتقوت الأقوياء بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » (٢) . ولكن حدث في الوقت الذي انتاب اليأس الصليبيين داخل أنطاكية وشرع بعضهم يفكر في الاستسلام والبعض الآخر يحاول التسلل والهروب ، حدث في ذلك الوقت أن دب الشقاق في صفوف المسلمين « فجرت بين الأتراك والعرب منافرة » ، وعندئذ سهل على الصليبيين ائزال الهزيمة بهم ، فعاد كربوغا الى الموصل تحوطه خيبة الأمل .

وكانت حيرة المسلمين أليمة عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس في يوليو سنة ١٠٩٩ ، لا سيما وأن المراجع المسيحية

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

والاسلامية سواء أجمعت على أن الصليبيين أحدثوا مذبحة وحشية في تلك المدينة عقب استيلائهم عليها ، وأنهم اقتحموا المسجد الأقصى وذبحوا كل من احتفى به من المسلمين وعدتهم أكثر من سبعين ألفا « منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف » . ولا شك في أن هذه الأخبار أثارت رد فعل عنيف في العالم الاسلامي بأجمعه ، حتى روى ابن الجوزي أن قاضي دمشق ومعه بعض المستنفرين أسرعوا الى بغداد ليستثيروا الخليفة العباسي ويدفعوه دفعا الى جهاد أولئك الصليبيين المعتدين ؛ وهناك في بغداد « قطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضي في الديوان وأورد كلاما أبكى الحاضرين .. » (١) . غير أنه يبدو أن الخلافة العباسية كانت قد بلغت درجة من الضعف والانحلال عندئذ بحيث لم تحرك ساكنا ؛ وكذلك كان السلطان برکيا روق السلجوقي ماضيا في سياسته مشغولا بمشاكله الضيقة الخاصة ، وبذلك وقع التقاعد ، واكتفى المسلمون عندئذ بالبكاء والعويل وهو أضعف سلاح يلجأ اليه الانسان وقت الخطر . وقد عبر عن ذلك أحد الشعراء المعاصرين — هو أبو المظفر الأبيوردی — فقال : —

وشر سلاح المرء دمع يفيضه

إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان ؛ حوادث سنة ٤٩٢ .

فأيها بنى الاسلام ان وراءكم
وقائع تلحق الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام أضحي مقلهم
ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأتسم
تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أرى امتى امتى لا يشرعون الى العدى
رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الاعارب بالأذى

ويغضى على ذل كماء الأعاجم
واذا كانت هناك مقاومة اسلامية قد تعرض لها الصليبيون
في ذلك الدور ، فان هذه المقاومة بدت فاترة ضعيفة من جانب
الفاطمين في مصر . ذلك أن الوزير الأفضل حاول أن يحول دون
استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، فجمع قواته وخرج من
مصر ، ولكنه وصل عسقلان في ٤ أغسطس « وقد فات الأمر » ،
أى بعد أن استولى عليها الصليبيون بعشرين يوما . وهكذا بدأ
الأفضل يدرك حقيقة أولئك الغزاة ، بعد أن اعتقد في يوم ما أن
الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ويحرصون

على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفاءهم الطبيعيين ضد الأتراك
السلجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله الى عسقلان سوى
أن يرسل « رسولا الى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه !! » (١) .
ثم ان الأفضل أضاع وقتا ثميناً في عسقلان ينتظر وصول الأسطول
في البحر ، الأمر الذي مكن الصليبيين من جمع شملهم ، ثم أنزلوا
الهزيمة بالقوات الفاطمية في ١٢ أغسطس ، فهرب الوزير الأفضل
الى مصر ، في حين انتهى أمر معظم جيشه الى القتل . وكان لهذه
الهزيمة أثر كبير من الناحية المعنوية على الأقل ، حتى اعتبرها
بعض المؤرخين نهاية لنفوذ الفاطميين بالشام .

وهكذا استأسد الصليبيون في بلاد الشام بوجه عام
وفلسطين بوجه خاص ، فضلاً عن نشاطهم في اقليم الجزيرة حول
امارتهم التي أسسوها بالرها . ولم يلبث أن استولى الصليبيون
على اقليم الجليل وسواد طبرية ، ثم سقطت حيفا في أيديهم في
أغسطس سنة ١١٠٠ . وفي العام التالي استولى بلدوين الأول
— أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية — على أرسوف
وقيسارية ، كما استولى على عكا سنة ١١٠٤ ومن الواضح أن
هذه المراكز التي استولى عليها الصليبيون جعلت لهم سيادة فعلية
على شواطئ فلسطين . وقد أظهر المؤرخون أسفا عميقا لعجز
الفاطميين عن حماية شواطئ فلسطين وموانئها ، ومن ذلك
ما يقوله المؤرخ أبو المحاسن عن الخليفة الأمر الفاطمي ، أنه كان

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ؛ ص ٤٦٣ (مجموعة مؤرخي
الحروب الصليبية) .

« يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد .. وكان فيه تهاون فى أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه . ولم ينهض لقتال الفرنج ألبته ، وان كان قد أرسل مع الأسطول عسكر فهو كلاشيء » (١) . والواقع أن الفاطميين أرسلوا ثلاث حملات ضد الصليبيين سنة ١١٠١ ، سنة ١١٠٢ ، سنة ١١٠٥ ، وفى كل مرة لا يوفق الفاطميون فى اشتباكاتهم مع الصليبيين عند الرملة . وكانت حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصليبيين فى ذلك الدور ؛ هذا وان استمر الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ؛ واتخذوا مدينة عسقلان مركزا لذلك التهديد . ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة للحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ؛ كما أغارت سنة ١١٠٧ على الخليل ؛ بل ان الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ الى أسوار بيت المقدس ذاتها . ولا أدل على ضعف تلك الهجمات من أن الصليبيين استولوا على بيروت وصيدا سنة ١١١٠ ، فى الوقت الذى كانت طرابلس قد وقعت فى أيديهم سنة ١١٠٩ .

وكانت النتيجة الطبيعية لهجمات الفاطميين على الصليبيين من ناحية ؛ وظهورهم فى صورة العاجزين عن زحزحة الصليبيين بعيدا عن مراكزهم التى احتلوها فى جنوب الشام من ناحية أخرى ، أثرها فى دفع بلدوين الأول ملك بيت المقدس الى العمل على تأمين حدود مملكته من ناحية الجنوب ، فضلا عن القيام

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ١٧٨ .

ببعض المحاولات للوقوف على مدى قوة الفاطميين في الدفاع عن أراضيهم . وكان أن بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادي عربية جنوبى البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادي عربية بأجمعه . وفى العام التالى — أى سنة ١١١٦ — خرج بلدوين فى حملة أخرى ، اخترق فيها صحراء النقب حتى وصل أيلة على ساحل خليج العقبة حيث بنى قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، كما شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة فى خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من مد نفوذهم الى شبه جزيرة سيناء الواسعة ، وان كان يجدر بالذكر أن رهبان دير القديسة كاترينه فى شبه جزيرة سيناء رفضوا أن يستضيفوا الملك بلدوين الأول فى ديرهم نظرا للعلاقات التى تربطهم بالفاطميين فى مصر .

وبعد أن قام الملك بلدوين بمحاولة للاستيلاء على صور سنة ١١١٦ ، عاد الى التفكير فى مهاجمة الفاطميين فى عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم . ويبدو أن الملك بلدوين لم يقصد عندئذ القيام بحملة كبيرة ضد مصر ، وإنما قام بمجرد حملة استكشافية ، لأنه خرج على رأس مائتين من الفرسان وأربعمائة من المشاة ، مما يدل على أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربي واسع النطاق . وقد استطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض

لتهديد من جانب البدو الذين خشوا خطر الصليبيين
فسهلوا لهم الحصول على ما لزمهم من زاد وماء . وكان أن
وصل الصليبيون في مارس سنة ١١١٨ الى الفرما واستولوا عليها،
وهي أولى المراكز الأمامية في البلاد المصرية . وكانت دهشة
الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن
هجرها أهلها من المصريين وتركوا فيها متاعهم ، مما أمد الغزاة
بقدر كبير من الغنائم . وبعد أن أحرق بلدوين جامع الفرما
ومساجدها اتجه غربا نحو مصب النيل . ويروي المؤرخ ابن الأثير
أن بلدوين الأول وصل الى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ،
كما أشار المؤرخ الصليبي وليم الصورى الى أن الملك بلدوين
وصل الى نهر النيل فعلا .

غير أن بلدوين كان لا يستطيع المضى أكثر من ذلك ، لصغر
قوته من جهة ومرضه من جهة أخرى ، وهو المرض الذى لم
يلبث أن توفى بسببه قرب العريش فى أوائل ابريل سنة ١١١٨ .
وذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سبح فى النيل عند
تنيس « فانتقض جرح كان به » ، فى حين ذكر غيره من المؤرخين
أن وفاته كانت بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة . وأشار المؤرخ
أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه
(حنطوه) ورموا أحشاءه هناك ، فعرف ذلك المكان حتى اليوم
بسبخة بردويل أو البردويل قرب بور سعيد الحالية ، واعتاد

الناس أن يرجموها الى أيام أبي المحاسن^(١). وهكذا قدر لمنطقة
بور سعيد أن تكون مقبرة الغزاة في العصور الوسطى والحديثة!!

* * *

السلاجقة والصليبيون :

ولم يكن توسع الصليبيين في شمال الشام أقل سرعة من
توسعهم في جنوبه ، فاستولوا على طرابلس — كما سبق أن
أشرنا — في يولية سنة ١١٠٩ . ولو كانت الحكومة الفاطمية
اتخذت اجراء حاسما سريعا لانتقاذ طرابلس ، لأمكن لهذه المدينة
الباسلة أن تستمر في المقاومة ، ولكن الفاطميين تقاعسوا « مع
قوتهم في العساكر والأموال والأسلحة » على قول المؤرخ
أبي المحاسن . وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس في أيدي
الصليبيين استيلاؤهم على ما تبقى من المعاقل الاسلامية على
شواطئ الشام — مثل بانياس وجبله — فضلا عن بعض
الحصون الداخلية مثل حصن الأكراد .

واذا كان مفروضا أن يدافع الفاطميون عن جنوب الشام
وسواحله ، فان الوضع الطبيعي كان يتطلب أن يقوم السلاجقة
بالدفاع عن الوطن الاسلامي في شمال الشام واقليم الجزيرة .
ولكن الظاهرة التي تسترعى الانتباه هي بلا شك جمود السلاجقة
— سلاجقة فارس وأتابكيتهم في الموصل — في أواخر القرن
الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر ؛ بحيث أنهم لم يتحركوا

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٢ هـ
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١ .

للحد من توسع الفرنجة ، على الأقل في شمال العراق والشام
وشرقي آسيا الصغرى . ثم انه حدث في مستهل القرن الثاني
عشر (سنة ١١٠١) أن أصيبت حملة صليبية كبيرة — هي
الحملة اللباردية — بهزيمة ساحقة في شمال شرق الأناضول ،
ومع كل ذلك لم يحاول سلاجقة فارس أن يهتبلوا الفرصة
لتحويل التيار في الشرق الأدنى ضد الصليبيين وطردهم من البلاد
التي اغتصبوها . ثم كيف ارتضى سلاجقة فارس لأنفسهم أن
تقوم القوى التركمانية الصغيرة — مثل الأراقة — بمحاربة
امارة الرها ، دون أن يشاركوهم عبء الجهاد للقضاء على تلك
القوة الصليبية الرابضة في شمال العراق والتي تهدد سلامة
الخلافة العباسية في بغداد ؟

الواقع أن دولة سلاجقة فارس تعرضت للانقسام الشديد
عقب وفاة ملكشاه ، وما أعقب تلك الوفاة من خلاف بين ولديه
بركيا روق ومحمد حول تقسيم ملك أبيهما . وإذا كان ذلك
الخلاف قد انتهى باتفاق الأخوين سنة ١١٠٤ على أن يأخذ
بركيا روق فارس وبغداد ويترك لأخيه محمد الأقاليم الغربية
من الدولة — أي ديار بكر والجزيرة والموصل والشام — إلا أنه
من الواضح أن سلطة كل منهما غدت اسمية إلى حد كبير أمام
ازدياد نفوذ الأتابكة والحكام المحليين . وليس معنى ذلك
استقامة أحوال الأتابكيات ، وإنما دب الفساد فيها أيضا بصورة
تبعث على الأسف العميق . وإن نظرة عاجلة نلقيها على أتابكية
الموصل في ذلك الدور كفيلة بأن توضح لنا أن الموقف السلبي

لتلك الأتابكية عندئذ إنما يرجع الى اختلال أحوالها الداخلية
اختلالا جعلها مسرحا لكثير من الفتن والثورات والمنازعات بين
أمراء السلاجقة . من ذلك أن كربوغا أتابك الموصل أوصى
وهو على فراش الموت سنة ١١٠٢ بأن يخلفه في حكم الموصل
أحد رجاله واسمه سنقرجه . ولكن موسى التركمانى — وهو
أيضا أحد رجال كربوغا — نازع سنقرجه حكم الموصل ،
واستطاع موسى هذا أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل
بوصفه نائبا عن السلطان بركيا روق . ولم يكدموسى التركمانى
يهنأ بذلك النصر حتى ظهر له منافس جديد فى شخص جكرمش ،
الذى استولى على نصيبين وطمع فى الموصل أيضا ، مما جعل
موسى يستنجد بسقمان بن أرتق ، وأعطاه حصن كيفا وعشرة
آلاف دينار ثمنا لمساعدته . على أن ذلك كله لم يغن موسى
التركمانى شيئا ، إذ لم يلبث أن قتل ، وبذلك أصبح جكرمش
حاكم الموصل وما حولها .

ولعل هذا المثل عما كان يحدث بالموصل فى تلك الفترة
يعطينا صورة واضحة عن مدى انحلال السلطة المركزية فى سلطنة
سلاجقة فارس ، مما أتاح للأتابكة أن يتوارثوا مدن الدولة
وأقاليمها ، ويتقاتلوا فيما بينهم وبين بعض ، وهم فى شغل بكل
ذلك عن الصليبيين فى الرها وشمال الشام . ولم تغب هذه الحقيقة
عن بال الصليبيين الذين رأوا « اشتغال عساكر الاسلام وملوكه
بقتال بعضهم بعضا » فأسرعوا الى استغلال الفرصة بعد أن

« تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال » (١) .

على أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن المسلمين في الجزيرة وشمال الشام استكانوا تماما في أوائل القرن الثاني عشر أمام التوسع الصليبي . من ذلك أنه حدث عندما حاول بلدوين الثاني دى بورج أمير الرها مهاجمة حران سنة ١١٠٤ بمساعدة أمير أنطاكية ، أن هب أمراء المسلمين في الجزيرة لدفع ذلك العدوان . وكان احساس هؤلاء الأمراء بالخطر سببا للتوفيق بين خصمين متعادين ، هما جكرمش أتابك الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردین وحصن كيفا ؛ « فأرسل كل منهما لصاحبه يدعوهُ الى الاجتماع معه لتلافي أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه ، وكل واحد منهما أجاب صاحبه الى ما طلب منه » . ولم يلبث أن جمع هذان الأميران ما يقرب من عشرة آلاف محارب من الترك والعرب والأكراد ، وفي موقعة حران أو البليخ التي دارت في مايو سنة ١١٠٤ أيّد الجيش الصليبي إبادة تامة وقتل من الصليبيين « عشرة آلاف ما بين راجل وفارس » . وكان من بين الأسرى أمير الرها نفسه وغيره من أمراء الصليبيين (٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٧ هـ .
(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ص ٥٢٧) .

ويبدو أن انتصار جكرمش على الصليبيين لم يخفف من حدة كراهية السلطان محمد السلجوقي له ، وهو السلطان الذي غدا منفردا بحكم دولة السلاجقة بعد وفاة أخيه بركياروق سنة ١١٠٥ . وقد رفض جكرمش من ناحيته إعلان خضوعه للسلطان محمد ، الأمر الذي جعل الأخير يزحف على الموصل « بالنقايين والدبابات » ويقا تل أهل الموصل قتالا شديدا ، ولكن دون أن يظفر بغرضه . وأخيرا فكر السلطان محمد في وسيلة لاسترجاع الموصل وديار بكر والجزيرة ، فمنح حكمها جميعا لأحد رجاله — واسمه جاولى سقاوا — وعهد إليه سنة ١١٠٦ بمحاربة الصليبيين في أطراف العراق والشام ، وتحت هذا الستار يستطيع أن يقضى على جكرمش . وفعلا نجحت الخطة ، ولكن جاولى سقاوا أعلن استقلاله بالموصل ، الأمر الذي جعل السلطان محمد السلجوقي يعهد سنة ١١٠٨ الى أحد رجاله — وهو مودود التوينكى — بطرد جاولى من الموصل ويحل محله في حكمها . وعندما نجح شرف الدولة مودود في مهمته وأصبح أميرا على الموصل سنة ١١٠٩ ، عهد إليه السلطان محمد في العام التالى باستئناف الجهاد ضد الصليبيين .

ولم يلبث أن برز اسم مودود — أتابك الموصل — في صفحة الجهاد ، فقام بعدة هجمات وحملات ضد الصليبيين جعلت منه زعيما للمسلمين في حروبهم ضد الصليبيين ، فاستحق تقدير المعاصرين ووصفه المؤرخ أبو المحاسن بأنه « كان من خيار

الملك دينا وشجاعة وخيرا» (١) . ذلك أن مودود لم تكد تستقيم له الأمور في الموصل حتى أعد حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين ، واشترك معه في تلك الحملة سكران القطبي أمير خلاط وميافارقين ، ونجم الدين ايلغازي بن أرتق أمير ماردين . وكان أن اتجهت تلك الحملة الكبيرة لحصار الرها في ربيع سنة ١١١٠ ، ولكنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها واتجه صوب حران حيث انضم إليه طغتكين ومعه قوات دمشق . ويبدو أن الخطة التي وضعها مودود عندما ترك حصار الرها واتجه إلى حران استهدفت استدراج الصليبيين إلى أقصى مكان بعيد عن قاعدتهم في الجزيرة ، ثم الإيقاع بهم كما حدث في موقعة البليخ سنة ١١٠٤ . وقد عبر عن ذلك ابن الأثير عندما قال ان المسلمين « رحلوا عن الرها إلى حران ليطلع الفرنج ويعبروا الفرات إليهم » (٢) . ولم يشأ الصليبيون أن يغامروا بأنفسهم ويتقدموا بعيدا عن قواعدهم للملاقاة المسلمين ، فضلا عما دب بين صفوف الصليبيين من خلافات جعلت بعضهم ينصرف إلى الشام . أما مودود ورجاله فقد أخذوا يتلفون المزارع والضياع الصليبية ، كما هاجموا بعض القوات الصليبية وهي تعبر نهر الفرات وأنزلوا بهم خسائر جسيمة .

* * *

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

بدور حركة الجهاد :

على أن المسلمين لم يقنعوا بذلك ، وإنما أراد الرأي العام في العالم الاسلامي في الشرق الأدنى القيام بعمل حاسم ضد أولئك الصليبيين الغربيين الدخلاء ، بما يحفظ سلامة أهل البلاد الأصليين وكرامتهم . وبعبارة أخرى فإن الوضع الذي أمسى فيه المسلمون في أوائل القرن الثاني عشر وشعورهم بسوء موقفهم في الشام وأطراف العراق أثار بينهم موجة عامة من الاستياء ، فارتفعت الأصوات تستنكر ذلك الوضع وتنادى بالجهاد . هذا الى أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعقل في أرض الجزيرة والشام قطع أوصال العالم الاسلامي في الشرق الأدنى ، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام والحجاز ومصر ؛ وهو أمر لم يألفه المسلمون منذ حركة الفتوح العربية الاسلامية في القرن السابع للميلاد .

ويروى ابن الأثير أن بعض أهالي حلب قصدوا عندئذ بغداد للتعبير عن استيائهم من ذلك الوضع الذي أمسى فيه المسلمون ؛ وهناك « اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم وقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر » فوعدهم السلطان اتفاد العسكر للجهاد . وفي يوم الجمعة التالي قصد جمهور الغاضبين الساخطين جامع القصر بدار الخلافة في بغداد ، حيث كرروا العملية نفسها فاقترحوا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر ؛ وعندئذ أدرك الخليفة المستظهر خطورة الموقف فأرسل الى السلطان محمد السلجوقي « يأمره بالاهتمام

بهذا الفتق ورتقه » . وكان أن أخذ السلطان يعد العدة لحملة ثانية ، وقرر أن تكون هذه الحملة الجديدة تحت قيادة ابنه مسعود والأمير مودود أتابك الموصل . ومما يسترعى النظر ما رواه ابن القلانسي من أنه حدث في ذلك الوقت بالذات أن بلغ العداء أشده بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين ، مما جعل الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين يرسل مبعوثا الى السلطان محمد السلجوقي يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من الشام » وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم ، قبل افضال أمرهم واستفحال شرهم ! » . وقد وصل المبعوث البيزنطي الى بغداد قبل وصول وفد حلب ، الأمر الذي جعل المسلمين في بغداد يصيحون في السلطان « أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام ، حتى قد أرسل اليك في جهادهم !! » .

ولم يلبث أن اجتمع تحت قيادة مودود أتابك الموصل كثير من حكام الأقاليم في دولة السلاجقة ، واتجهوا جميعا سنة ١١١١ لمهاجمة الرها التي استعصت عليهم فعبروا الفرات لمهاجمة تل بامر . وبينما المسلمون يحاصرون تل بامر جاءتهم استغاثة من رضوان صاحب حلب فتركوا تل بامر واتجهوا صوب شمال الشام . ولم يكد الجيش الاسلامي يقترب من حلب حتى فوجيء زعماءه بموقف غريب من رضوان . ذلك أن رضوان طلب مساعدة الأتراك عندما كان هؤلاء بعيدين عند تل بامر ، ولكن اقتراب الأتراك من حلب أثار مخاوف رضوان لكثرتهم ، وبدأ

يحسب حسابا لخطرهم على سلطانه أكثر من خطر الصليبيين أنفسهم . وهكذا ظهرت المفاجأة المؤلمة وهى أن رضوان الذى كان يستنجد بالأتراك أغلق فى وجه المسلمين « أبواب البلد ولم يجتمع بهم » ، بل انه أسرع بالتحالف مع بعض القوى الصليبية القريبة للوقوف فى وجه ذلك الخطر المشترك !! . و يروى ابن العديم أن أهل حلب لم يرضوا عن مسلك ملكهم رضوان ، فغضبوا ونادوا بالجهاد ولكن رضوان أخضع حركتهم فى سرعة واحتفى فى قلعة حلب وبذلك ظلت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه القوات الاسلامية المتحالفة (١) .

وزاد موقف المسلمين سوءا أن الجيش المتحالف عندما انصرف عن حلب واتجه الى حوض نهر العاصى ليعمل ضد الصليبيين ، تعرض للتصدع ، عندما قرر طغتكين صاحب دمشق أن يقف موقفا سلبيا من الحملة الاسلامية ، ورفض أن يتعاون مع اخوانه المسلمين فى أى عمل يقدمون به ضد الصليبيين ، لأنه « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج سرا » . وهكذا صدق المؤرخ ابن العديم عندما قال عن أمراء المسلمين عندئذ انهم « كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه » ، أى أنهم كانوا يرجون استمرار بقاء الصليبيين ليضمنوا استمرار بقائهم فى مناصبهم !! .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٠٠) .

على أنه اذا كانت حملة سنة ١١١١ التي قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت الى لا شيء ، فان هذه النتيجة لا ينبغي أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل ، وهو الرجل الذي عرف بالتقوى والورع والتشبع بفكرة الجهاد الديني والواقع أن فشل تلك الحملة انما يرجع أولا الى عدم اخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق وتخوفهما من قوة مودود . لذلك عاد مودود الى الموصل حزينا كاسف البال ، واكتفى مؤقتا بمراقبة حدود الجزيرة وممالك الشام تحقيقا لرغبة الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي .

ثم كان أن تغيرت الأوضاع في بلاد الشام سنة ١١١٣ ، وكان ذلك عندما دخل طغتكين في صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور ، مما جعل طغتكين يتجه نحو مودود أتابك الموصل « فأرسل اليه يعرفه الحال ويستنجد به ويحثه على سرعة الوصول اليه » (١) . والواقع أن مودود لم يكن في حاجة الى تحريض لمواصلة الجهاد ، فعبر الفرات في ربيع سنة ١١١٣ وتبعه بعض أمراء السلاجقة حيث اتجهوا جميعا صوب طبرية للاشتراك مع طغتكين في حصارها . وعندما استعصت طبرية على المسلمين اتجهوا الى تدمير الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور . ولم يلبث أن جمع الصليبيون قواهم بزعامة بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، وعندئذ حلت بهم الهزيمة في موقعة الصنيرة — الى

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

الجنوب الغربى من بحيرة طبرية — فبلغت خسائر الصليبيين ألفا ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان ، ولم ينج الملك الصليبي نفسه الا بصعوبة بالغة .

وزاد موقف الصليبيين سوءا فى ذلك الدور أن الجيش الفاطمى فى عسقلان استغل فرصة انشغال الصليبيين بمحاربة المسلمين قرب طبرية ، وخرجت القوات الفاطمية فى محاولة جريئة تدمر وتنهب فى الأراضى الصليبية حتى قارب الفاطميون أسوار بيت المقدس ذاتها . ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى ، لأمكن للمسلمين أن يقوموا بعمل حربى ضخم يهدد كيان الصليبيين ويجعلهم بين نارين ، ولكن الانقسام بين صفوف المسلمين ، والعداء بين الفاطميين والسلاجقة ، وبين الشيعة والسنة ، حال دائما دون ذلك .

ولم يلبث أن وصل الى عكا عدد كبير من الحجاج الغربيين، قدرتهم المراجع بستة عشر ألفا ، مما بدل الموقف بين المسلمين والصليبيين ، وجعل مودود وظغتكين ينصرفان الى دمشق ، حيث أذن مودود لرجال جيشه « فى العودة والاستراحة » ثم الاجتماع فى الربيع لمعاودة الغزاة » . أما مودود نفسه فقد بقى ومعه بعض خواصه فى دمشق فى ضيافة طغتكين (سبتمبر ١١١٣) ، وذلك لحين استئناف الجهاد ضد الصليبيين .

ولم تمض بضعة أسابيع حتى حدث حادث جديد برهن على مدى انحلال أمراء المسلمين فى ذلك الوقت . ذلك أن مودود

— بطل حركة الجهاد في ذلك الدور — قتل في الجامع الأموي بدمشق بيد أحد الباطنية ، وذلك عند شروعه في تأدية صلاة الجمعة . وقد اتهم المؤرخون — مثل ابن الأثير وابن القلائسي — طغتكين بالتآمر على ضيفه وتحريض ذلك الباطني على قتله . ونحن لا نستبعد أن يكون وجود مودود في دمشق قد أثار مخاوف طغتكين الذي خشى أن تكون حركة الجهاد ستارا ظاهريا يخفى وراءه سلطان السلاجقة رغبته في بسط سيطرته على دمشق . وربما كان في تعجل طغتكين في قطع رقبة القاتل في الحال واحراق جثته دليلا على رغبته في طمس معالم الجريمة والتخلص من أدواتها ، فضلا عن اظهار استنكاره لها ^(١) . ولم يلبث أن أحس طغتكين باتهام الرأي العام الاسلامي له ، فلم يجد حليفا يطمئن اليه سوى الصليبيين . وهكذا ثبت أن أمراء الشام في ذلك الوقت الحرج لم يقدرُوا المصلحة العليا للأمة ، وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة في سبيل الصالح العام ، مما دفعهم الى محاربة العدو الدخيل ممثلا في الصليبيين الغربيين . وكان أن عهد السلطان محمد السلجوقي بحكم الموصل — بعد مقتل مودود — الى حاكم جديد هو أقسنقر البرسقي ، مع تكليفه — مثل سلفه — بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين . وفي سنة ١١١٤ قام أقسنقر بهجوم على الرها ، وكان في صحبته ابنه عماد الدين زنكي وبعض الأمراء المجاورين . وقد ظل

(١) ابن القلائسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ ، ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

أقسنقر يحاصر الرها شهرين كاملين. ولكن الصليبيين قاوموه « وصبروا له » على حد تعبير ابن الأثير ، مما جعل أقسنقر ينصرف عن الرها ويوجه هجماته ضد المراكز الصليبية المحيطة بالرها وسروج وسميساط . على أن السلطان محمد السلجوقي لم يغفر لأقسنقر فشله أمام الرها ، فعزله عن أتابكية الموصل وأحل محله أحد مماليكه الأتراك — ويعرف باسم جيوش بك — ؛ في حين عهد السلطان بقيادة الحرب ضد الصليبيين الى الأمير برسق صاحب همذان ، وهو أحد القادة المعروفين بمهارتهم وشجاعتهم . (شتاء سنة ١١١٥) .

ويبدو أن سلطنة السلجقة في أصفهان لم تستهدف من هذه الحملة الكبيرة محاربة الصليبيين فحسب ، وانما استهدفت أيضا بسط هيمنة السلطنة السلجوقية على كافة الامارات الاسلامية في الشام والجزيرة ؛ حيث استطاع بعض حكام المسلمين — مثل طغتكين في دمشق وبدر الدين لؤلؤ في حلب والأراتقة في ديار بكر — أن يستغلوا فرصة الفوضى التي عمت البلاد نتيجة للحرب بين المسلمين والصليبيين لقطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية في أصفهان . بل ان بعض أولئك الأمراء — مثل ايلغازي الأرتقى — لم يترددوا في محاربة جيوش السلطان محمد ، في حين أن البعض الآخر — مثل طغتكين — جرؤ على قتل مودود زعيم حركة الجهاد الاسلامي وقائد جيوش السلطان . لذلك كان طبيعيا أن يفكر السلطان السلجوقي في اعداد حملة كبيرة بقيادة برسق سنة ١١١٥

لاخضاع ذلك النفر من الأمراء أولا ، ثم محاربة أنطاكية والرها وغيرهما من القوى الصليبية بعد ذلك .

وكان أن أحس ايلغازى فى ديار بكر وطغتكين فى دمشق بالخطر المشترك ، فاتفقا على محالفة الصليبيين ، وانضم اليهما بعد قليل بدر الدين لؤلؤ الخادم « المتولى لأمر حلب » . وهكذا انقسمت الجبهة الاسلامية ، مما أدى الى هزيمة برسق فى الموقعة التى دارت بينه وبين الصليبيين عند دانيث فى سبتمبر سنة ١١١٥^(١) . ولم يلبث أن توفي برسق بعد بضعة أشهر متأثرا بعار الهزيمة ، فى حين يبدو أن هزيمة دانيث وضعت حدا لجهود سلاطين السلاجقة لاسترداد الشام .

ولا شك فى أن اضطراب القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى على ذلك الوجه ، أتاح فرصة طيبة للصليبيين للتدخل فى شئونها وابتلاع الأراضى الاسلامية قطعة بعد أخرى . ولم يقتصر الأمر على أن مركزا كبيرا فى وسط بلاد الشام — مثل دمشق — أصبح تحت وصاية الصليبيين ، بل ان حلب هى الأخرى فى شمال الشام صارت تحت رحمتهم . وكانت أحوال حلب قد اختلفت منذ وفاة ملكها رضوان سنة ١١١٣ ، ثم مقتل ابنه ألب أرسلان فى العام التالى وقيام بدر الدين لؤلؤ البابا بالوصاية على الامارة . وعندما أحس بدر الدين لؤلؤ بضعفه وعدم قدرته على الوقوف بمفرده وسط العواصف الداخلية والخارجية

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، ج ٣ ص ٦٠٩) .

المحيطة به ، حالف طغتكين أتابك دمشق ، وإن كانت هذه
المحالفة لم تنج من القتل سنة ١١١٧ ، وعندئذ تولى يارقتاش
— وهو أرمنى الأصل — الوصاية على حلب ، ثم خلفه في تلك
الوصاية ابن الملحى . وقد أدت سياسة هذين الأخيرين الى
وقوع حلب تحت رحمة الصليبيين في أنطاكية منذ سنة ١١١٨ .
ولكن اذا كان حكام حلب قد فضلوا الوصاية الصليبية عن
الخضوع لسيطرة « أحد من الشرق » على قول ابن العديم ،
فإن الحلبيين أنفسهم لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فتغلب الشعور
الدينى عليهم وسلموا مدينتهم للأمير التركمانى نجم الدين
ايلغازى صاحب ماردين وديار بكر . وعندما استمر روجر
الأنطاكى صاحب أنطاكية في تهديد حلب ، خرج اليه الأمير
ايلغازى على رأس جيش كبير من القوى الاسلاميه المتحالفة ،
واستطاع أن ينزل هزيمة كبرى بالصليبيين في موقعة البلاء
— قرب أرتاح — فى صيف سنة ١١١٩ . وقد قتل فى هذه
الموقعة عدد كبير من الصليبيين بينهم روجر الأنطاكى نفسه ، حتى
أطلق الصليبيون على السهل الذى دارت فيه الموقعة اسم « ساحة
الدم » (١) .

وكان لذلك النصر رد فعل قوى عند المسلمين والصليبيين
جميعا ، لأن موقعة البلاء فى حقيقة أمرها هى التى قررت مصير
حلب ، فاما أن تبقى فى قبضة المسلمين ، واما أن يسلبها

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١
ص ٥٠٤ — ٥٠٦ .

الصلبيون . لذلك جاءت فرحة المسلمين بذلك النصر عظيمة ،
فنظم شعراؤهم القصائد في مدح ايلغازى ، وأرسل اليه الخليفة
المسترشد بالله العباسى الخلع « وشكره على ما يفعله من غزو
الفرنج » .

وزاد من حرج موقف الصليبيين فى ذلك الدور انصراف
طغتكين أتابك دمشق عنهم بعد أن رفض بلدوين الثانى ملك
بيت المقدس الشمن الباهظ الذى طلبه طغتكين لاستمرار الحلف
بين الطرفين . وكان أن اتفق طغتكين مع الوزير الأفضل الفاطمى
على القيام باغارات مشتركة ضد الصليبيين ، فهاجم طغتكين طبرية
ثم اتجه الى عسقلان لمقاومة القوات الفاطمية التى أرسلها
الوزير الأفضل . على أن الأمر لم يتعد عندئذ أن رابط كل من
المسلمين والصلبيين تجاه الفريق الآخر نحو ثلاثة أشهر ، ثم عاد
كل فريق من حيث أتى دون أن يحدث صدام بين الطرفين •

أما ايلغازى الأرتقى فقد استمر يهدد الصليبيين بين حين
 وآخر ، فقام بمهاجمتهم سنة ١١١٩ بالاشتراك مع طغتكين ، كما
هاجمهم سنة ١١٢٠ ثم سنة ١١٢١ . على أن ايلغازى لم يلبث أن
توفى فى أواخر سنة ١١٢٢ ، فجاء ذلك نذيرا بتفكك إمارة
الأراتقة ، مما أثر تأثيرا سيئا فى قوة المسلمين وجهودهم فى محاربة
الصلبيين . حقيقة أن حركة الجهاد الاسلامية استمرت فى ذلك
الدور فى صورة أو أخرى ؛ من ذلك وقوع بلدوين الثانى
ملك بيت المقدس أسيرا فى قبضة الأراتقة سنة ١١٢٣ عند قيامه
بمحاولة لانقاذ أمير الرها من الأسر ، وانتهاز الفاطميين فرصة

أسر ملك بيت المقدس وارسالهم حملة برية يساعدها الأسطول في البحر لمهاجمة يافا .. ولكن هذه الجهود التي قام بها المسلمون عندئذ كانت فردية قللت من قيمتها الانقسامات الداخلية بين صفوف حكام المسلمين . ولم تغب هذه الانقسامات عن بال الصليبيين ، فلعبوا دورهم بمهارة في تفرقة صفوف المسلمين عن طريق ضرب العرب بالأتراك والشيعة بالسنة لاضعافهم جميعا .

* * *

انحلال القوى الاسلامية في الشرق الأدنى :

والواقع أن أوضاع القوى الاسلامية ، في تلك الفترة كانت لا تبشر بالخير ، وكانت جميع الدلائل تشير الى أنه لا بد من ظهور شخصية قوية في المحيط الاسلامي توحد قوى المسلمين في الشرق الأدنى وتوجه طاقتهم ضد الخطر الصليبي الخارجي الذي أخذ — كالأخطبوط — ينتشر تدريجيا من شمال العراق الى دلتا النيل . فسلطنة السلاجقة أخذت في الاضمحلال ، وبخاصة بعد وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ هـ اذ خلفه ابنه محمود الذي كان في الرابعة عشرة من عمره ، فترك شئون الحكم في أيدي وزرائه ، في حين انصرف هو الى اللهو ، مما مكن عمه سنجار شرف الدين من توجيه سياسة الدولة . وفي ذلك الدور بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها ، وانعكست صورة ذلك الضعف في العلاقة بين المسلمين والقوى المسيحية في الشرق الأدنى . ذلك أن سنجار وجه كل جهوده

نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، ولم يعبأ بالشام وما كان يجرى فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين . كذلك فعل الفرع السلجوقي في الأناضول ؛ اذ شغلت سلطنة الروم بالمنازعات بين أمراء السلطنة بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين بنى دانشمند حينا والبيزنطيين أحيانا ، وتركوا اخوانهم في الشام يواجهون الصليبيين وحدهم .

وكانت الخلافة العباسية في ذلك الوقت مجرد صورة شكلية ، دون أن يكون للخليفة العباسي أى ظل من السلطان والنفوذ . وقد اتهم بنو مزيد — وهم قبيلة عربية كانت تنتشر في العراق غربى نهر دجلة في المنطقة من البصرة حتى هيت — فرصة ضعف الخلافة العباسية من جهة وضعف سلطنة السلاجقة من جهة أخرى واستولت على المنطقة الواقعة حول الحلة غربى الفرات . ولم يلبث صدقه بن مزيد (١٠٨٦ — ١١٠٨) أن « عظم شأنه وعلا قدره وامتنع جأحه واتسع ، واستجار به صغار الناس وكبارهم ، فأجارهم » . وكان أن اتخذ صدقه لنفسه لقب « سيف الدولة » وأخذ يعمل لانشاء دولة لنفسه في العراق ، مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعا ، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب « أمير العرب » (١) . ويلاحظ أن بنى مزيد كانوا جميعا من الشيعة ، مما أثار حنق السلاجقة — وهم سنيون — عليهم . واذا كانت جيوش السلطان محمد قد

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ .

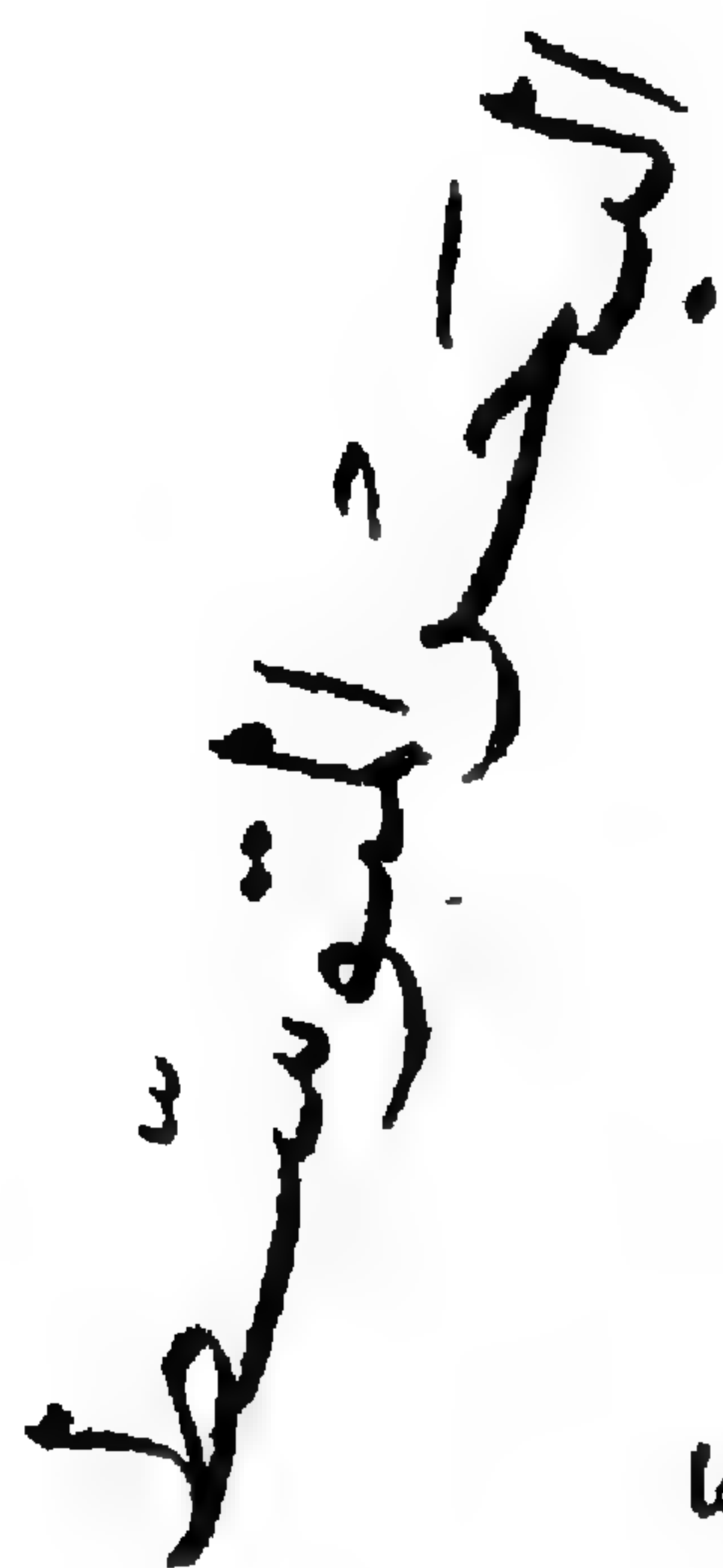
نجحت في ائزال الهزيمة بصدقه وقتله سنة ١١٠٨ ، فان ابنه ديس بن صدقه لم يلبث أن اشتد عوده حتى جرؤ على مهاجمة بغداد نفسها سنة ١١٢٠ ؛ وعندئذ لم يحجم عن نهب المدينة وسلبها « وأتى بها من النهب والقتل والفساد ما لم يجر مثله » . بل ان ديس نصب مخيمه في مواجهة قصر الخليفة العباسي المسترشد بالله ، الذي لم يجد وسيلة لدفع ذلك الخطر سوى الاستنجاد بالسلطان محمود السلجوقي . وهكذا ظل ديس يهدد بغداد من مركزه — الحلة — حتى أمر السلطان محمد أحد رجاله — وهو آقسنقر البرسقى أتابك الموصل — بمحاربته ، ولكن الهزيمة حلت بآتابك الموصل على الضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ . وقد أدى انتصار ديس على البرسقى الى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسي يستغيث بالسلاجقة من جديد . وأخيرا حلت الهزيمة بالأمر ديس عند المباركة — بين بغداد والكوفة — في ربيع سنة ١١٢٣ ، فنقل ديس نشاطه الى البصرة ثم الى قلعة جعير في شمال الشام ، حيث « التحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وأطعمهم في أخذها » .

ولعل في قصة ديس بن صدقة ما يكفي لايضاح الوضع المؤسف الذي الحدرت اليه القوى الاسلامية في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كان الصليبيون يمكنون لأنفسهم في بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض في الخلافة العباسية عندئذ أن تتزعم القوى الاسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الاسلامية ، ولكن ظهر أن هذه الخلافة كانت أضعف من أن تحمي

نفسها من المسلمين أنفسهم ! ولما أراد الخليفة العباسي المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) أن يكون له كيان سياسى مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بإنشاء جيش للخلافة خاص بها ، عارضه السلطان محمود السلجوقى ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير الى بغداد . ولم يسمع الخليفة عندئذ سوى أن يخرج ومعه أفراد أسرته الى الضفة الغربية لنهر دجلة ، ومن ورائهم أهل بغداد سيكون « بكاء عظيما لم يشاهد مثله ! » . وقد استطاع عماد الدين زنكى — حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقى — أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط . ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالى ، فى حين اضطر الخليفة الى الخضوع فى نهاية الأمر سنة ١١٢٧ « واعتذر السلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم » (١) .

وإذا كان هذا هو وضع المسلمين على الجبهة الشرقية للصليبيين ، فان الخلافة الفاطمية — على الجبهة الغربية للصليبيين — لم تكن أحسن حالا . ذلك أن مقتل الوزير الأفضل فى ديسمبر سنة ١١٢١ جاء بمثابة بداية النهاية فى تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك فى الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بما قام به بدر الجمالى أو الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدير أمورها . وهكذا ضمن الصليبيون بالشام قسما من الاستقرار فى أوائل القرن الثانى عشر أمام تدهور نفوذ

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٢٩-٣٠ .



السلاجقة والخلافة العباسية في الشرق من ناحية ، وائتلاف
الخلافة الفاطمية على حدودهم الغربية من ناحية أخرى .

* * *

عماد الدين زنكى :

وفي وسط ذلك الظلام الدامس الذى اكتنف المشرق
العربى ؛ اذا يبصيص من النور يلوح بظهور عماد الدين زنكى
على المسرح . وكان زنكى هذا ابن قسيم الدولة آقسنقر
الحاجب ، وهو قائد من أبرز قادة السلطان ملكشاه السلجوقى .
وقد كافأ ملكشاه قائده بإعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢ ، ولكن
آقسنقر قتل سنة ١٠٩٤ ، فنشأ ابنه زنكى نشأة هادئة بعيدة عن
النفوذ والسلطان ، ودخل في خدمة آتابكة الموصل — جاولى
ثم البرسقى — حتى وصل الى حكم البصرة ؛ وعندئذ أبرز
مهارة فائقة في الأعمال التى عهد اليه بها السلطان محمود
السلجوقى ، وبخاصة اخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦ .
وهكذا لفت زنكى الأنظار اليه بفضل شجاعته فتدرج في
المناصب ، حتى اختاره السلطان آتابكا على الموصل سنة ١١٢٧
« لما يعلمه من كفايته لما يليه » . وبعد أن نظم زنكى أمور
الموصل ، استولى على نصيبين من الأراتقة ، ثم اتجه الى حران
التي كانت دائما شبه محاصرة بالقوات الصليبية ، فاستولى
عليها وفرح أهلها بذلك فرحا عظيما لأنهم وجدوا في زنكى الرجل
القادر على حمايتهم ^(١) . ويبدو أن زنكى كان يفكر عندئذ في

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٣٤ - ٣٦ .

القيام بحركة جهاد كبرى ضد الصليبيين ، ولكنه أدرك ضرورة العمل على توحيد القوى الإسلامية في العراق والشام قبل القيام بتلك الحركة . وأولى تلك القوى كانت حلب التي أخذ زنكى يتطلع الى ضمها في يده .

وكانت حلب قد غرقت في بحر عميق من الفوضى بعد وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقى ، فتنازعت السيطرة عليها قوى السلاجقة والأرارقة ، في الوقت الذي طمع كل من جوسلين الثانى أمير الرها وبوهيموند الثانى أمير أنطاكية فى الاستيلاء عليها . ولكن زنكى أفسد على جميع أولئك الطامعين خططهم عندما استولى على حلب فى صيف سنة ١١٢٨ ، وعندئذ استقبله الحلبيون استقبالا رائعا « وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه الا الله تعالى » .

على أن زنكى لم يستطع أن يمضى بعيدا فى طريقه دون أن يصادف معارضة من جانب الأمراء المسلمين المحليين . فالأرارقة عز عليهم أن يستأثر زنكى بحكم حلب وأن يزداد نفوذه فى شمال الشام والعراق بصورة هددت مصالحهم ، فحاربوه ولكن الهزيمة حلت بهم . ومن جهة أخرى فإن تطور الأحداث فى فارس والعراق وتدخل زنكى فيها صرفه عن ميدان الشام . ذلك أن دولة السلاجقة تعرضت لانتقسام خطير عقب وفاة السلطان محمود سنة ١١٣١ . وفى النزاع الذى نشب بين اخوة السلطان الراحل ، اختار الخليفة العباسى المسترشد أن يؤيد سجلوق شاه ، فى حين خف زنكى

أتاك الموصل لمساعدة مسعود . وعندما خف زنكى لمساعدة مسعود ضد الخليفة وسجلوق شاه ، حلت الهزيمة بزنى ، فتشجع الخليفة وزحف على الموصل . وفى الوقت الذى كانت جيوش الخليفة تحاصر الموصل استغل اسماعيل بن بورى أتابك دمشق الفرصة واستولى على حمص سنة ١١٣٣ ، كما هاجم الصليبيون حلب فى نفس الوقت .

ولم يلبث أن أخذ مجرى الأمور يتحول فى صالح زنكى بعد قليل ، ففشل الخليفة العباسى فى الاستيلاء على الموصل وارتد الى بغداد بعد أن ضاق عسكره بسبب قلة الأقوات . وبعد مقتل الخليفة المسترشد العباسى سنة ١١٣٥ ، لجأ الخلفاء العباسيون الى استرضاء زنكى والاستعانة به . وهكذا تفرغ زنكى لمنازلة خصومه من أمراء المسلمين حيناً ومحاربة القوى الصليبية والبيزنطية أحياناً ، حتى استطاع أن يتوج أعماله بالاستيلاء على الرها سنة ١١٤٤ . ولا شك فى أن استيلاء زنكى على الرها جاء ضربة كبرى بالنسبة لمستقبل الكيان الصليبي بالشرق الأدنى ، لا سيما وأن الرها كانت أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق ، فكان استيلاء المسلمين عليها ايذاناً ببداية النهاية بالنسبة للبناء الضخم الذى أقامه الصليبيون فى الشرق . وفى الوقت الذى أخذ زنكى يخضع المدن الصليبية وييسط سيطرته على بعض الامارات الاسلامية فى الجزيرة ، اذا بأحد خصيانه ينقض عليه ليقتله فجأة سنة ١١٤٦ ، وبذلك فقد المسلمون

بطلا كبيرا من أبطال الجهاد ، حتى لقد صاحوا في القاتل « لقد قتل المسلمين كلهم بقتله » (١) .

* * *

نور الدين محمود والجهة الإسلامية المتحدة :

ولم يصادف أبناء زنكى صعوبة كبيرة في الاحتفاظ بملك أبيهم ، فنجح نور الدين محمود بن زنكى في تثبيت قدمه في حلب ، في حين تمكن أخوه سيف الدين غازي من الاحتفاظ لنفسه بالموصل ، وكان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين نهر الخابور . أما الابن الثالث لزنكى وهو نصير الدين فقد حكم حران تابعا لأخيه نور الدين ، في حين كان الابن الرابع قطب الدين صغيرا فلبث في رعاية أخيه غازي بالموصل .

ويهمنا من هؤلاء الأبناء نور الدين محمود الذي أظهر من الكفاية والعقل وبعد النظر والحرص على مصالح المسلمين ، ما جعل منه بطلا حقيقيا من أبطال تلك الحقبة ، رغم أنه عندما تولى حكم حلب بعد وفاة أبيه كان دون الثلاثين من عمره . وساعد على إبراز أهمية نور الدين ومكاته في قلوب معاصريه أنه لم يتصف بما اتصف به أبوه زنكى أحيانا من قسوة وغلظة في بعض المواقف ، كما أن نور الدين امتاز بميزة لها أهميتها هي قدرته على اختيار الرجال ، مما هيا له بطانة من الأوفياء أخلصوا

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٦٧)

له النصيح وتعاونوا معه في صدق وإيمان . حقيقة ان نور الدين محمود كان أقل من أبيه في موارده المالية ، لأنه لم ينعم بحكم الموصل والجزيرة مثل أبيه زنكى ؛ ولكن نور الدين محمود الذى حرم من أموال الجزيرة ومواردها استراح أيضا من مشاكلها ومتاعبها ، وترك أخاه سيف الدين غازى ينعم بموارد الموصل وفي الوقت نفسه يقاسى كثيرا من عديد المشاكل من جانب الأراقة والخلافة العباسية فضلا عن سلطنة السلاجقة .

وكان على نور الدين محمود — بوصفه الابن البكر لعماد الدين زنكى — أن يتم رسالة أبيه في جهاد الصليبيين . هذا فضلا عن أن موقع امارة نور الدين في حلب جعله أشد احساسا بالخطر الصليبي وأكثر تعرضا لهجمات الصليبيين في شمال الشام . لذلك استغل نور الدين حكمه بالقيام بهجمات مباشرة ضد امارة أنطاكية ، فاستولى على عدة قلاع في شمال الشام . وفي سنة ١١٤٧ وصلت الحملة الصليبية الثانية بزعامة لويس السابع الى الشام ، فاستغل نور الدين فشل تلك الحملة وهاجم أمير أنطاكية الصليبي وأزل به الهزيمة سنة ١١٤٩ (١) . وفي الموقعة التى دارت بين نور الدين وأمير أنطاكية فى نفس العام قرب انب ، أحاطت قوات نور الدين احاطة تامة بالصليبيين الذين تعرضوا للإبادة الشاملة ، وكان من جملة القتلى ريموند أمير أنطاكية نفسه ورينو صاحب كيسوم ومرعش ، فضلا عن

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٤٣ هـ .

على بن وفا زعيم الباطنية الحشيشية الذي كان محالفا للصليبيين ومرافقا لجيشهم . وكان فرح المسلمين بذلك النصر عظيما فتغنى شعراؤهم بشجاعة نور الدين محمود ، في حين يروى المؤرخ الصليبي وليم الصوري أن نور الدين أرسل رأس ريموند وذراعه الأيمن في صندوق من الفضة الى الخليفة العباسي ببغداد .

على أن حروب نور الدين محمود ضد الصليبيين جعلته يؤمن بحقيقة هامة هي أنه لا أمل في زحزحة أولئك الدخلاء عن بلاد الشام ما لم تنتظم القوى الاسلامية المبعثرة بين الفرات والنيل في هيئة وحدة متكاملة أو جبهة قوية تقف كالبنيان المرصوص في وجه الصليبيين . وكانت العقبة الكئود في سبيل هذه الوحدة هي مدينة دمشق التي لم يكتف حكامها بصم آذانهم عن الدعوة لوحدة الصف ، وانما تأمروا جهرا ضد القضية العربية الكبرى ولم ينجلوا من محالفة الصليبيين في بيت المقدس ضد نور الدين محمود . وكان صاحب السلطة الفعلية في دمشق هو معين الدين أنر الذي استغل صغر سن الأتابك الشرعي مجير الدين أبق ، وأخذ يوجه سياسة تلك الامارة ذات الموقع الخطير بالنسبة للمسلمين وللصليبيين جميعا في بلاد الشام . لذلك حاول نور الدين محمود أن يكتسب ود أنر عن طريق السياسة فتزوج من ابنته وبذلك استقرت العلاقة بين الطرفين « على أجمل صفة » ، على قول ابن القلانسي (١) .

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

على أنه يبدو أن أنر ظل يتخوف دائما من أطماع نور الدين محمود ، فرأى في محالفة الصليبيين ضمانة كافية للاحتفاظ بسلطانه . حقيقة أن العلاقات بين أنر والصليبيين تعرضت لنوع من الفتور والضعف عندما أغار الصليبيون على ممتلكات دمشق سنة ١١٤٧ ؛ ثم عندما انحرفت الحملة الصليبية الثانية عن محاربة نور الدين واتجهت بدلا من ذلك الى محاولة فاشلة للاستيلاء على دمشق ذاتها في صيف سنة ١١٤٨ . ولكن حكام دمشق أثبتوا في ذلك الدور أنهم على استعداد لأن يغفروا للصليبيين ويتناسوا لهم أخطاءهم في سبيل الإبقاء عليهم حلفاء يساعدونهم في مقاومة نور الدين محمود . ولم تؤد وفاة معين الدين أنر سنة ١١٤٩ الى أى تغيير في تلك السياسة التى اتتبعها حكام دمشق ؛ اذ أن مجير الدين أبى الذى انفرد بحكم دمشق بعد وفاة أنر كان ضعيفا قاسيا ضيق الأفق فارتضى بين أحضان الصليبيين يطلب حمايتهم ضد اخوانه دعاة الوحدة من المسلمين ، فازدادت أطماع الصليبيين « حتى طمعوا فى دمشق واستضعفوا مجير الدين » . وهكذا انحدرت مكانة دمشق نتيجة لسياسة حكامها الخونة الذين رفضوا أن يضحوا بمصالحهم الشخصية فى سبيل الصالح العام لأمتهم ، وأعرضوا عن دعوة الوحدة ضارين عرض الحائط ببدء الضمير ، فصار الدماشقة يدفعون ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم ، وصار رسل

الصلبيين يدخلون دمشق فعلا لجمع الضريبة المفروضة على أهلها من المسلمين ! (١) .

ولكن اذا كانت دمشق قد وقعت عندئذ تحت حماية الصليبيين ؛ واذا كان الخضوع لتلك الحماية أفضل — في نظر مجير الدين أبق وأعوانه من الاتصاليين ذوى المطامع الشخصية — من الاتحاد مع نور الدين محمود ؛ فان سائر أهل دمشق — وهم الذين عرفوا دائما بنخوتهم وصدق عقيدتهم — لم يرضوا مطلقا عن ذلك الوضع الشائن . ولم يلبث خضوع مجير الدين أبق للصلبيين أن أساء الى شعور أهل دمشق وكرامتهم اساءة بالغة ، حتى فقدوا كل احترام للبيت البورى « وقلت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق » . او كان أن استغل نور الدين محمود ذلك الشعور ودبر أموره مع فريق من أهل دمشق ، حتى تمكن من الاستيلاء على دمشق فعلا سنة ١١٥٤ ؛ وبذلك « صفت الممالك بالشام لنور الدين » على قول ابن واصل ، « وألقى الاسلام بدمشق جرانه وثبت أوتاده » ؛ على قول ابن الأثير اشارة منه الى أن دمشق فى عهد البيت البورى كانت من الناحية الواقعية تحت سيطرة الصليبيين .

ومن الواضح أن استيلاء نور الدين على دمشق كان نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ؛ نظرا لما ترتب على

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٠٦
ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٢٦ .

هذه الخطوة من وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين . فمن الرها شمالا حتى حوران جنوبا امتدت دولة اسلامية واحدة مركزها مدينة دمشق على نهر بردى . وبعبارة أخرى فان استيلاء نور الدين على دمشق حقق نوعا من التوازن بين المسلمين والصليبيين ببلاد الشام ؛ فاذا كان الصليبيون قد سيطروا على ساحل الشام بأكمله من اسكندرونة حتى غزة ، فان استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردى في قبضة قوة اسلامية واحدة لا انقسام في صفوفها ولا فرقة بين أعضائها . ثم انه لا يخفى علينا أن استيلاء نور الدين على دمشق جاء خطوة كبرى نحو تحقيق الجبهة الاسلامية المتحدة في الشرق الأدنى ، وهي الجبهة التي امتدت من الفرات الى النيل والتي كان قيامها ضربة قاصمة ضد الصليبيين . فحتى ذلك الوقت كان المسلمون في الشرق الأدنى منقسمين الى جبهتين منفصلتين جبهة في الجنوب — هي مصر — وجبهة في شمال الشام والعراق . وقد استطاع الصليبيون بسبب موقف حكام دمشق الاتصاليين توجيه الضربات لكل جبهة من هاتين الجبهتين على انفراد دون أن تتمكن الجبهة الأخرى من التدخل لنجدة زميلتها . ومصادق ذلك ما يقوله النويري من أن نور الدين لم يستطع نجدة عسقلان عندما هاجمها الصليبيون سنة ١١٥٣ . « لأن دمشق تحول بينه وبينهم » . كذلك ذكر ابن اواصل ما نصه « وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان

يتأسف ، اذ لا يمكنه الوصول اليهم ودفعهم عنها ، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم » (١) .

وأخيرا ، فان استيلاء نور الدين محمود على دمشق ، أغلق الطريق الشمالي في وجه مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولم يبق أمام هذه المملكة — اذا أرادت أن تتوسع — سوى طريق الجنوب ، حيث كانت الدولة الفاطمية تعاني آلام الموت البطيء .

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٨٥ (مخطوط) .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٦ .

الفصل الثاني الطريق إلى مصر

الصلبيون ومصر :

كان الاتجاه الطبيعي لتوسع الصليبيين في الربع الأول من القرن الثاني عشر للميلاد هو الاتجاه الشمالى الشرقى ، حيث لم توجد قوة اسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع . ولكن استفحال قوة الزنكيين في شمال العراق والشام جعل حركة التوسع الصليبي تتخذ منذ منتصف ذلك القرن اتجاها آخر ، هو الاتجاه الجنوبى الغربى على حساب مصر والفاطميين . على أن غزاو مصر — وهى السياسة التى اتخذت طابعا عمليا واسع النطاق على يد عمورى الأول فيما بعد — كان لابد له من التمهيد بالاستيلاء على عسقلان ، آخر قاعدة بقيت للفاطميين في فلسطين . وهذا ما قام به بلدوين الثالث ملك بيت المقدس .

والواقع أن الدولة الفاطمية كانت تحتضر فعلا عند منتصف القرن الثاني عشر ، بعد أن اقتزع الوزراء كل ما للخليفة الفاطمى من سلطان . وعندما يئس الخلفاء الفاطميون من وزراءهم ، عين الخليفة الفاطمى الحافظ (١١٣١ — ١١٤٩) ابنه وزيرا له ،

ولكن الابن تأمر هو الآخر على أبيه « واستبد بالأمر دونه وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر كثيرا » ، مما جعل الأب يدس السم لابنه ليتخلص منه (سنة ١١٣٥) (١) . ولم يلبث أن توفي الخليفة الحافظ سنة ١١٤٩ ليخلفه ابنه الظافر (١١٤٩ — ١١٥٤) الذي استبد بالنفوذ في عصره الوزير العادل بن السلار ، حتى قتل ذلك الوزير سنة ١١٥٣ . وهكذا ظلت الدولة الفاطمية تعيش أيامها الأخيرة في جو مشبع بالمؤامرات لا يتورع الأب فيه أن يقتل ابنه ، وصار الخلفاء « اسم لا معنى » على قول المؤرخ ابن الأثير .

وكان أن ساعدت هذه العوامل بلدوين الثالث ملك بيت المقدس في الاستيلاء على عسقلان ، فشرع في حصارها في أوائل سنة ١١٥٣ ، منتهزا فرصة الاضطرابات الداخلية في مصر « واشتغالهم (الفاطميون) عن عسقلان » . وقد استمر حصار الصليبيين لعسقلان بضعة أشهر ، حاولت الحكومة الفاطمية خلالها أن تمد أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر ، ولكن ذلك كله لم يحل دون دخول الصليبيين المدينة في أغسطس سنة ١١٥٣ ، وعندئذ حولوا جامعها الكبير الى كنيسة تحمل اسم القديس بولس .

ومن الواضح أن استيلاء الصليبيين على عسقلان كان خطوة لمحاولة غزو مصر . وإذا كان بلدوين الثالث قد مات قبل أن

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

يحقق ذلك الحلم ، فان أخاه وخليفته عمورى الأول الذى تولى عرش مملكة بيت المقدس سنة ١١٦٣ ، قرر منذ بداية حكمه أن يضع يده على مصر . وكانت هناك اتصالات تمت بين الفاطميين ونور الدين محمود بقصد انقاذ عسقلان عندما شرع الصليبيون فى الاستعداد لمباصرتها ؛ الأمر الذى أثار مخاوف الصليبيين لأنه اذا امتد نفوذ نور الدين محمود فى صورة أو أخرى الى مصر فمعنى ذلك وقوع مملكة بيت المقدس الصليبية بين شقى الرمح . وشجع الملك عمورى الأول على تنفيذ مشروعه ، استمرار تدهور أوضاع الدولة الفاطمية فى مصر . ذلك أن الخليفة الظافر الفاطمى مات مقتولا سنة ١١٥٤ بسبب شذوذه الخلقى ، فاستبد بالسلطة الوزير طلائع بن رزيك طوال سبع سنوات (١١٥٤ — ١١٦١) . وعندما توفى الخليفة الفائز — ابن الظافر — وهو فى الحادية عشرة من عمره سنة ١١٦٠ ، أقام ابن رزيك فى الخلافة العاضد الذى كان « مراهقا قارب البلوغ » ، فزوجه الوزير طلائع ابنته مما مكنه من احكام سيطرته على الخليفة (١) . وهكذا استمر طلائع بن رزيك يلهو بالخلفاء الصغار الذين صاروا أداة طيعة فى يده . ويتضح ذلك من العبارة التى قالها عندما هلك أهل القاهرة للخليفة الجديد ، فتعجب منهم طلائع وقال « كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أننى كنت من ساعه أستعرضهم

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

استعراض الغنم !! » . وأخيرا أحس الخليفة العاضد والأمراء
بثقل ذلك الكابوس ، فدبروا مؤامرة لقتل ابن رزيك وتمت
المؤامرة بنجاح في سبتمبر سنة ١١٦١ .

وقد خلف ابن رزيك في الوزارة ابنه العادل الذي لقب بمجد
الاسلام ، ولكنه لم يظل في الوزارة سوى خمسة أشهر ، قتله
بعدها شاور حاكم الصعيد ، وتولى بدله في الوزارة في يناير
سنة ١١٦٣ . على أن شاور « عامل العاضد بأفعال قبيحة ، وأساء
السيرة في الرعية ، وأخذ أمر مصر في وزارته في ادبار » . ولذلك
خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر الذي استطاع أن ينتصر
على شاور ويطرده من مصر سنة ١١٦٣ . ولم يلبث ضرغام أن
بغى بدوره وارتكب كثيرا من المظالم وأعمال الاضطهاد « وقتل
كثيرا من أمراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع » ؛ فعم
الخوف والاستياء جميع الناس في مصر ، وكان ذلك في الوقت
الذي أخذ عموري الأول ملك بيت المقدس يفكر في غزو مصر .

وقد ذكر بعض المؤرخين الصليبيين — مثل وليم الصوري
وميخائيل السرياني — أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس كان
قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠ منتهزا فرصة الفوضى التي عمتها
عقب مقتل الخليفة الفائز ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت
أن تشيه عن عزمه بمقابل تعهداتها بدفع جزية سنوية مقدارها مائة
وستون ألف دينار للصليبيين . وقد احتج الملك عموري الأول
بعدم وفاء الفاطميين بتعهدهم وغزا الدلتا سنة ١١٦٣ حتى وصل

الى بلبس وحاصرها . ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وامتلاء الترع والأراضي بالمياه ليجبر عمورى على الانسحاب والعودة الى فلسطين .

ومع أن حملة عمورى الأول على مصر قد فشلت ، إلا أنها كانت ذات فائدة كبيرة له وللصليبيين . ذلك أنها أطلعتهم على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها ، مما شجع الملك عمورى على القيام بغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر . ومن ناحية أخرى فإن جرأة عمورى الأول في مهاجمة مصر أثارت مخاوف نور الدين محمود الذى أسرع بالقيام بعدة هجمات على الصليبيين بالشام ليجبر عمورى على الانسحاب من مصر . وهكذا بدت مصر فى أواخر الدولة الفاطمية فى صورة الفريسة السهلة ، وصار على نور الدين محمود أن يدخل فى سباق سريع مع الصليبيين حول الفوز بمصر ، وعلى نتيجة هذا السباق أصبح يتوقف مصير الصليبيين ومستقبلهم فى بلاد الشام .

وفى تلك الأثناء كان شاور قد لجأ الى بلاط نور الدين محمود فى الشام ، وأخذ يستنجد به ضد خصمه ضرغام ؛ « وأطمعه فى الديار المصرية ، وقال له : أكون نائبك بها ، وأقنع بما تعين لى من الضياع والباقي لك ! » . كذلك تعهد شاور لنور الدين — اذا ساعده الأخير فى العودة الى الوزارة بمصر — أن يدفع له ثلث دخل البلاد « ويتصرف على أمره ونهيه

واختياره « (١) . ويبدو أن نور الدين محمود تردد كثيرا في المغامرة بإرسال حملة الى مصر ، خوفا من أن يتورط في ذلك المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء في بلاد الشام . ولكن تخوف نور الدين من استيلاء الصليبيين على مصر ، وتقديره مدى أهمية مصر في بناء الجبهة الإسلامية المتحدة ، جعله يسرع بالتفكير جديا في الاقدام على تلك الخطوة . وأخيرا استخار نور الدين القرآن وأنفذ حملته الأولى الى مصر سنة ١١٦٤ . أما قائد تلك الحملة فكان أحد رجال نور الدين المقربين واسمه أسد الدين شيركوه ؛ وصحب شيركوه في حملته ابن أخ له في السابعة والعشرين من عمره ، اسمه صلاح الدين بن أيوب .

* * *

ظهور صلاح الدين :

وقد اختلفت المصادر في تحديد أصل شيركوه هذا وأخيه أيوب والد صلاح الدين ؛ فذكر ابن الأثير أن أصلهم من الأكراد وأنهم فخذ من الهذليانية ، في حين أنكر جماعة من ملوك بني أيوب نسبتهم الى الأكراد وقالوا « انما نحن عرب ، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم » . وبعض من قالوا بهذا الأصل العربي نسبوا الأيوبيين الى بني أمية . ويبدو من دراسة موطن الأيوبيين الأصلي ونشأتهم وسيرتهم بعد ذلك أنهم أكراد الجنس ، وأن نسبتهم الى جد عربي ليست الا مسألة طارئة جدت بعد قيام

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ١٣٠

دولتهم واقامة ملكهم . ويؤيد هذا الرأى ما يرويه ابن خلكان
عن شيخه وأستاذه بهاء الدين بن شداد — كاتب سنية
صلاح الدين — اذ ذكر أنه سمع شيخه بهاء الدين يحكى عن
السلطان صلاح الدين أنه عندما سمع هذا النسب العربى
أنكره ، وقال « ليس لهذا أصل أصلا » . أما المقرئ فيعلق
على هذا النسب العربى بقوله « هذه أقوال الفقهاء لهم فمن
أراد الحظ لديهم لما صار الملك اليهم » (١) . ومهما يكن من أمر ،
فاننا لسنا بحاجة الى تكرار ما سبق أن ذكرناه فى مقدمة كتابنا
عن الظاهر يبرس الذى صدر فى هذه السلسلة ؛ من أن العروبة
فى ذلك الوقت لم تعد عروبة الدم والجنس والأصل ، وانما أضحت
عروبة الأحاسيس والمشاعر والحضارة .

وكان أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب من أهل
مدينة دوين قرب خلاط من مدن أرمينية ، ثم شاءت الظروف
أن قصدا العراق حيث حظيا عند مجاهد الدين بهروز الخادم
الذى كان يلى شحنة بغداد ، أى ينوب عن سلطان السلاجقة
فيها . ولم يلبث مجاهد الدين أن عهد الى نجم الدين أيوب
بالولاية على تكريت فأقام بها ومعه أخوه شيركوه مدة من
الزمن . وشاءت الظروف فى الوقت الذى قام نجم الدين أيوب
بجكم تكريت أن نشبت الحرب بين عماد الدين زنكى أتابك
الموصل والخليفة العباسى المسترشد ، فحلت الهزيمة بزنى عند

(١) انظر ماكتبه الدكتور جمال الدين الشيال فى : —
ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ، ص ٦ حاشية ه .

تكرت سنة ١١٣٢ ، وعندئذ أسرع نجم الدين أيوب بتقديم
المعونة الى زنكى فساعدته على الفرار والعبور الى الضفة الأخرى
لنهر دجلة بأن أقام له السفن التى ساعدته وأصحابه على الفرار .
ويروى ابن واصل ان « هذا أول المعرفة بين عماد الدين زنكى
وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه ، ومبدأ
سعادتهما ، ولكل شئ سبب » . كما يروى أبو الفدا « وكان
هذا الفعل من نجم الدين أيوب سببا للاتصال بعماد الدين حتى
ملك بنو أيوب البلاد » (١) .

على أن نجم الدين أيوب لم يطل بقاءه فى تكرت بعد
ذلك ، اذ عزله مجاهد الدين عنها بسبب مساعدته لزنكى ؛ وقيل
انه أسد الدين شيركوه قتل انسانا بتكرت ظلما ، فعزل
مجاهد الدين نجم الدين أيوب لذلك ؛ كما قيل ان نجم الدين
أيوب رمى مملوكا من ممالك مجاهد الدين فقتله . ومهما يكن
من أمر ، فان نجم الدين أيوب صاحب أخاه أسد الدين شيركوه
وغادروا تكرت فى نفس الليلة التى ولد فيها صلاح الدين
« فتشاءموا به وتطبروا منه » . ولكن البعض هون عليهم وقال
لهم « لعل فيه الخيرة وما تعلمون ! » . ومهما يكن من أمر ، فان
نجم الدين أيوب صاحب أخاه وأسرتيهما وتوجها الى الموصل
حيث رحب بهما عماد الدين زنكى « وأحسن اليهما وقربهما ،

(١) أبو الفدا : المختصر ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

ورعى لهما خدمتهما له ، وبالف في اكرامهما ، وأقطعهما اقطاعات
جليلة ، وترقت أحوالهما عنده .

ولما فتح عماد الدين زنكى بعلبك عين نجم الدين أيوب واليا
عليها ، فاستمر في ولايته الى أن قتل عماد الدين زنكى وخلفه
ولداه نور الدين محمود في حلب وسيف الدين غازي في الموصل .
ويقال ان نجم الدين أيوب أحس بصعوبة موقفه في بعلبك
لا سيما وأن مجير الدين أبق صاحب دمشق اشتد طمعه في بعلبك
وراسل نجم الدين فعلا في تسليمها . وكان أن طلب نجم الدين
أيوب من الأمير سيف الدين غازي أن يتسلم منه بعلبك ، ولكن
سيف الدين أبطأ في الرد بسبب مشاغله ، الأمر الذي جعل
نجم الدين يسلم بعلبك الى صاحب دمشق خوفا من أن يناله
أذى . وبعد ذلك انتقل نجم الدين أيوب الى دمشق حيث كافاه
صاحبها بإعطائه اقطاعا جليلا . أما أسد الدين شيركوه فقد دخل
في خدمة نور الدين محمود صاحب حلب « وصار من أخص
أصحابه ومقهما على سائر أمرائه ، لما عرفه من شهامته وشجاعته ،
واقدامه في الحرب على ما لا يقدم عليه غيره ، ولم يزل حاله ينمو
عنده الى أن أقطعه مدينتي حمص والرحبة » (١) .

ثم كان أن أخذ نور الدين محمود يعمل على انشاء الجبهة
الاسلامية المتحدة ، وتطلع الى ضم دمشق لتكتمل وحدة المسلمين

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٠
وانظر كذلك ترجمة حياة صلاح الدين يوسف في :
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٩ وما بعدها .

في بلاد الشام ، وعندئذ فكر في الاستعانة بنجم الدين أيوب المقيم في دمشق لتسهيل تنفيذ مشروعه . ويروي ابن واصل أن نور الدين محمود أمر أسد الدين شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب حتى يساعد سياسة نور الدين في دمشق . وفعلًا ساعد نجم الدين في تسليم دمشق لنور الدين ، الأمر الذي زاد من تقدير نور الدين محمود لأسد الدين شيركوه وأخيه نجم الدين أيوب ، حتى « صارت منزلتهما عنده في أعلا الرتب » . وإذا كان ابن واصل قد ذكر أن أسد الدين شيركوه صار مقدم جيوش نور الدين ؛ فإن النويري ذكر أن مكانة نجم الدين أيوب فاقت مكانة أخيه أسد الدين شيركوه عند نور الدين ، فكان « لا يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، إلا نجم الدين أيوب . وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره فانهم كانوا يقفون حتى يأمرهم بالجلوس ! » (١) .

* * *

ضم مصر الى الجبهة الإسلامية المتحدة :

وأخيرا جاء دور مصر — كما سبق أن ذكرنا — فعمد نور الدين محمود الى قائده شيركوه بالخروج على رأس حملة سنة ١١٦٤ لمساندة شاور ضد ضرغام من ناحية ، وحماية مصر من أطماع الصليبيين من جهة أخرى . وكان أن صدع شيركوه للأمر فقاد جيش نور الدين الى مصر وصحبته ابن أخيه

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ورقة ١٨٠ (مخطوط) .

صلاح الدين وشاور. وعندما علم ضرغام بالخبر استنجد بالصليبيين، وتعهد لعموري — مقابل مساعدته — بأن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للملك الصليبي. على أن مهارة شيركوه وسرعته في اجتياز الصحراء رغم تقدم سنه، جعلته يكسب قصب السبق، فوصل إلى الدلتا قبل الصليبيين، وانتصر عند تل بسطا على جيش أرسله ضرغام، بحيث لم يكدر يجل أول مايو سنة ١١٦٤ إلا كان شيركوه قد وصل على رأس جيشه إلى أسوار القاهرة. ولم يلبث أن وجد ضرغام نفسه وحيدا بعد أن تخلّى عنه رجاله وعامة الناس فضلا عن الخليفة، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة.

وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن شاور بأنه كان « خبيثا سفاكا للدماء »، فأساء معاملة الناس، وتناسى وعوده المعسولة لنور الدين، بل سرعان ما « ظهر منه امارات الغدر بأسد الدين شيركوه »، فرفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه وطلب منه الخروج من مصر^(١). ولكن شيركوه رد على موقف شاور باحتلال بليس والشرقية، مما جعل شاور يفعل مثل سلفه ضرغام، فاستنجد بالصليبيين، وواعد عموري الأول بمبلغ كبير من المال مقابل مساعدته ضد شيركوه. وهكذا عاد عموري الأول على رأس جيشه إلى مصر مرة أخرى. وكان شيركوه عندئذ في بليس، فحاصره الصليبيون من ناحية وشاور من ناحية أخرى. وأخيرا تم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعموري الأول جميعا

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة؛ ج ٤ ص ٣٤٧.

أرض مصر ؛ وحدث ذلك فعلا في أواخر سنة ١١٦٤ بعد أن تعهد شاور بدفع ثلاثين ألف دينار لشيركوه . وربما كان الملك الصليبي أكثر تلهفا على تلك الاتفاقية بعد أن اشتدت هجمات نور الدين على ممتلكات الصليبيين أثناء غيابه ، مما استدعى سرعة عودته الى بلاد الشام على وجه السرعة .

والملاحظ أن أخبار حملة شيركوه الأولى على مصر وردت في المراجع في إيجاز شديد ، بحيث لا نستطيع أن نتبين فيها الدور الفعلي الذي قام به صلاح الدين الى جانب عمه شيركوه . وكل ما هنالك هو أن المؤرخ ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين يذكر لنا أن صلاح الدين كان موضع ثقة عمه ، وأن شيركوه « كان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا الا بمشورته ورأيه » لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتربان النصر بحركاته وسكناته . ومهما يكن في عبارة ابن شداد من مبالغة قصد بها التنويه بمواهب صلاح الدين في ذلك الدور المبكر من حياته ؛ فلا شك في أن خروج صلاح الدين الى مصر في صحبة عمه سنة ١١٦٤ كان في حد ذاته تجربة كبرى ، هي التجربة الأولى من نوعها بالنسبة له ، مما ترك أثرا خطيرا في مستقبل حياته .

والواقع ان نور الدين والصليبيين خرجوا جميعا من تجربتهم الفعلية في أرض مصر بفكرة واضحة عن ثروة هذه البلاد وضعفها ، فضلا عن أهميتها لكل فريق في مناوئة خصمه . ويذكر ابن شداد أن شيركوه غادر مصر « فأقام في الشام مندبرا لأمره ففكر في كيفية رجوعه الى البلاد المصرية ، مجددا بذلك نفسه » .

أما ابن الأثير فيقول ان شيركوه لم يستطع عقب عودته الى بلاد الشام أن ينسى مصر ، فظل « بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها وبقصدها ، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير » . في حين يقول المؤرخ أبو المحاسن ان شيركوه غادر مصر « وهو في غاية من القهر » . وهكذا يبدو أنه لو ترك الأمر لشيركوه لعاد الى مصر سنة ١١٦٥ أو سنة ١١٦٦ ، ولكن نور الدين محمود كان يخشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر في هاتين السنتين فيشتت جهوده ويقسم قواته في الوقت الذي كان الموقف في بلاد الشام يستدعى قدرا كبيرا من اليقظة والانتباه .

ومن ناحية نور الدين يلاحظ ان الطمع في ثروة مصر أو الخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حرييا وماديا لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمامه بأمر مصر ، وانما كان هناك — بالاضافة الى ما سبق — دافع آخر مذهبى له أهميته في توحيد الجبهة الاسلامية . ذلك أن الخلافة الفاطمية في مصر كانت عندئذ مصدرا من مصادر الفرقة في العالم الاسلامى ، لأن قيامها في القاهرة كان كفيلا ببقاء المذهب الشيعى حيا في مصر ، في الوقت الذى ساد المذهب السنى الشام ومعظم العراق . ويحتمل أن تكون قد دارت اتصالات بهذا الشأن بين نور الدين وقائده شيركوه من ناحية والخليفة العباسى من ناحية أخرى ، وذلك قبل أن يعهد نور الدين الى شيركوه بمهمة غزو مصر سنة ١١٦٧ . وثمة أسباب أخرى ذكرها المؤرخ أبو المحاسن جعلت نور الدين يرسل شيركوه للمرة الثانية الى مصر ، أهمها

أن الخليفة العاضد الفاطمي أرسل الى نور الدين يستجده ضد شاور ، ويعلمه ان شاور « قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم » . ولم يكن نور الدين في حاجة الى مزيد من التحريض ضد شاور ، اذ كان « في قلب نور الدين من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه ، واستنجد عليه بالفرنج » .

وكان أن غادرت الحملة النورية الثانية دمشق في يناير سنة ١١٦٧ في طريقها الى مصر بقيادة شيركوه ، وبصحبه أيضا ابن أخيه صلاح الدين ، وفي ذلك قال الشاعر عرقلة الدمشقي بمدح صلاح الدين (١) : —

رب كما ملكتها يوسف ال صديق من أولاد يعقوب
يملكها في عصرنا يوسف ال صادق من أولاد أيوب

وعندما أدرك شيركوه الدلتا عمل حسابا لاستنجد شاور بالصليبيين فوجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة ، واختار أن يعبر النيل عند أطفيح الى الجيزة ، حيث عسكر في مواجهة القسطنطينية على الضفة الغربية للنيل . وقد صبح ما توقعه شيركوه ، اذ استنجد شاور بعموري الأول ملك بيت المقدس ، الذي أسرع ليغزو مصر للمرة الثالثة . وقد أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين تضمن لهم أجرهم قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمئة ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر ، بشرط دفع نصف هذا

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٤٩ .

المبلغ فوراً . وكان أن رحب الصليبيون بتلك الاتفاقية التي جعلت منهم حامية مصر والخلافة الفاطمية ، واستعدوا لعبور النيل للاشتراك مع الفاطميين في مهاجمة شيركوه على الضفة الغربية . ويبدو أن شيركوه أدرك عندئذ حرج موقفه ، فاتجه — وصحبته صلاح الدين بن الحلي الصعيد ، حيث لحق بهما الصليبيون وشاور . وقرب الأشموين في المنيا دارت معركة البابين في مارس سنة ١١٦٧ . واشترك في المعركة صلاح الدين . وقد هزم الصليبيون في تلك المعركة ، وازلم كان انتصار شيركوه غير جاسم ؛ في حين عاد عموري ليعسكر مع جيشه قرب القسطنطينية على الضفة الغربية للنيل . . .

أما شيركوه ، فقد أثر أن يتجه شمالاً على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية ، في الوقت الذي ظل الصليبيون قابعين أمام القسطنطينية . وإذا كان عسف شاور وجوره لم يمكن أهل القاهرة من التعبير عن استيائهم لتحالف حكامهم مع الصليبيين ، فإنه كان من الصعب أن يقبل أهل الاسكندرية ذلك الوضع ؛ فضلاً عن أن بعد الاسكندريين عن العاصمة وملاستهم الخطر الصليبي عن طريق البحر ، جعلهم أكثر احساساً بالخطر وأكثر حرية في التعبير عن شعورهم . لذلك لم يكد شيركوه يقترب من الاسكندرية حتى « تلقاه أهلها طائعين » ، وفتحوا له أبواب مدينتهم ليدخلها في أمن وهدوء . على أنه يبدو أن شيركوه خشى أن يحصره الصليبيون وجميع قواته داخل الاسكندرية ، وقال « أنا لا يمكنني أن أحصر نفسي » ؛ فترك ابن أخيه نائباً عنه

في الاسكندرية ، واتجه هو على رأس الجزء الأكبر من قواته عائدا الى الصعيد « فاستولى عليه وأقام يجمع أمواله » (١) .

وفي الوقت الذي أوغل شيركوه في الصعيد حتى قوص وحاصرها ، ساء موقف صلاح الدين وأهل الاسكندرية ، بعد أن أسرع عموري لحصار صلاح الدين الذي لم يكن معه داخل المدينة سوى ألف جندي . وكان أن اشتد الحصار وقل الطعام داخل الاسكندرية ، ومع ذلك فقد « صبر أهلها على ذلك » .

وعندما رأى صلاح الدين اصرار الصليبيين على حصار الاسكندرية وخشى عاقبة ذلك الحصار ، أرسل الى عمه يطلب النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه الى العودة شمالا في أواخر يونيو سنة ١١٦٧ . وفي الطريق أدرك شيركوه صعوبة الاستيلاء على مصر ، فأرسل الى الصليبيين يطلب عقد الصلح ، وتم الاتفاق — مثل المرة السابقة — على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد (٢) . على أن عموري الأول لم يترك مصر الا بعد أن ثبت الحماية الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية ، وأهم مظاهر تلك الحماية دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين ، وبقاء قوة من فرسان الصليبيين تحمي أبواب القاهرة ، فضلا عن اقامة مندوب عن الملك الصليبي (شحنة) في القاهرة يشارك في شئون الحكم (٣)

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٥

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٦٦ .

(٣) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٤

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٤٩ .

على أنه إذا كان عمورى الأول قد غادر مصر مضطرا سنة ١١٦٧ ، فليس معنى ذلك أنه صرف النظر عن فكرة الاستيلاء على هذه البلاد . ويذكر أبو المحاسن أنها الصليبيين عندما أتوا الى مصر فى المرات السابقة « اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها » . ولم يلبث عمورى الأول أن وجد نفسه مضطرا للعمل مرة أخرى لاقتناص مصر ، لا سيما بعد أن انقلبت سياسة شاور ضد الصليبيين . حقيقة ان شاور كان هو البادىء دائما بطلب مساعدة الصليبيين ، ولكنه أخذ يتخوف أخيرا عندما وجد أن هذه المساعدة تحولت الى حماية . هذا الى أن الضريبة السنوية التى فرضها عمورى الأول على شاور — وهى مائة ألف دينار — أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية ، فى الوقت الذى ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها . ثم ان وجود مندوب عن الصليبيين — أو شحنة — فى القاهرة يشارك فى شئون الحكم ، ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة ، كل ذلك أزعج الفكر الاسلامى المعاصر . وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شاور أنزلوا الضرر بأهل البلاد « وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالأذى » . وهكذا لم يجد شاور مفرأ — أمام شعور الاستياء العام فى القاهرة — أن يقلب سياسته رأسا على عقب ، فاتصل بنور الدين نائب المساعدة للتخلص من الحماية الصليبية . وقد أرسل شاور ابنه — الملك شجاع — الى نور الدين « ينهى مجبته وولاءه

ويسأله الدخول في طاعته « مما ترتب عليه عقد اتفاقية بين الطرفين . كذلك حاول شاور تأكيد هذه الرابطة الجديدة عن طريق المصاهرة ، فيتزوج الكامل شجاع من أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين من ابنة شاور (١) .

وإذا كان الملك عمورى نفسه قد رأى ضرورة التحفظ تجاه المسألة المصرية ؛ فإن غالبية أمراء الصليبيين لم يشاركوه الرأي « وقالوا انهم مصر لا مانع لها ولا حافظ » . وبناء على ذلك خرج عمورى الأول على رأس جيشه للمرة الرابعة قاصدا مصر . وعندما قاومت بلييس الصليبيين وأغلقت أبوابها في وجه عمورى ؛ حاصرها واقتحمها عنوة « وقتل من أهلها خلقا عظيما وخرب أكثرها وأحرق جل دورها » . وفي الوقت الذى اقترب عمورى من القاهرة وصل الأسطول الصليبي في البحر الى تنيس ولكنه لم يستطع التقدم في النيل جنوبا بسبب العقبات التى وضعها المصريون في مجرى النيل . أما شاور فقد أشعل النار في النسطاط من ناحية ، كما دفع مبلغا كبيرا من المال للملك الصليبي لصرفه عن القاهرة من ناحية أخرى . وكان ذلك في الوقت الذى سمع الملك عمورى بأن شيركوه في طريقه فعلا الى مصر على رأس جيش كبير من المسلمين .

ويقال ان الخليفة الفاطمي عندما رأى الخطر المحيط ببلاده أرسل الى نور الدين يعرض عليه « ثلث بلاد مصر » اذا هو

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ١٧٠ .

أنقذه من الصليبيين . والواقع ان نور الدين كان لا يمكنه أن يترك مصر تقع في قبضة الصليبيين ، فلم يكدر يسمع بغزوة عموري الأخيرة لها حتى « أسرع بتجهيز العساكر خوفا على مصر » . كذلك يذكر أبو شامة أن تور الدين ضاق ذرعا بنفاق شاور وأدرك أنه « يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى ! » . وعلى هذا الأساس خرجت حملة نور الدين الثالثة الى مصر سنة ١١٦٨ ، بزعامة شيركوه الذي اصطحب معه أيضا تلك المرة ابن أخيه صلاح الدين . وهنا تتوقف قليلا أمام ظاهرة تحرص المراجع المعاصرة على إبرازها ، هي تمنع صلاح الدين عن المجيء الى مصر في الحملتين السابقتين وفي هذه الحملة الثالثة بوجه خاص . من ذلك ما يروي ابن الأثير من أن صلاح الدين قال لعمه عندما دعاه للمجيء في صحبته الى مصر في المرة الثالثة « والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبدا » (١) . كذلك يروي أبو المحاسن أن نور الدين قال لصلاح الدين « أخرج مع عمك أسد الدين » ، فامتنع صلاح الدين وقال « يكفي ما لقينا من شدة في تلك المرة » ، فأجبره نور الدين على الخروج (٢) . أما ابن شداد فيروي عن صلاح الدين أنه قال بنفسه « كنت أكره للخروج في هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمي باختيارى » . وفي رأينا أن المؤرخين انما

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٤ هـ

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ٣٥٠

قصدها من تلك الاشارات ايضاح أهمية الدور الذي يلعبه القدر
والنصيب المكتوب ، وكيف أن نور الدين ألح على صلاح الدين
في الحضور الى مصر دون أن يدري أن صلاح الدين هذا سيكون
منافسه في المستقبل ، وأنه سيستغل ثروة مصر للوقوف في وجهه ،
وأنه سيرثه في دولته . . . كذلك كيف أتى صلاح الدين الى مصر
كارها دون أن يدري أنه على موعد مع القدر ، وأذن نجمه لن يلبث
أن يتألق في تلك البلاد . ويؤكد القاضي ابن شداد هذا المعنى
الأخير عندما يعقب على تمنع صلاح الدين عن الحضور الى مصر
بالآية الكريمة : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » (١) .
وسواء حضر صلاح الدين مع عمه شيركوه راضيا أم كارها ،
فالمهم أنه وصل الى مصر سالما في أواخر سنة ١١٦٨ . وقد فرح
أهل مصر بشيركوه فرحا عظيما واستقبلوه استقبال البطل المخلص
عند وصوله الى القاهرة . وعندما رأى عموري الأول التفاف
أهل مصر حول شيركوه وترحيبهم به بوصفه مدافعا عن
الاسلام ، لم يستطع البقاء في البلاد واضطر الى أن يسحب
رجالَه وينصرفوا « عائدين الى بلادهم يخفي حنين ، خائبن مما
أملوه » . أما شيركوه فقد عسكرت قواته عند أرض اللوق على
باب القاهرة ، فاستدعاه الخليفة العاضد الفاطمي الى القصر ،
وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور ، وأخذ أرباب الدولة
يترددون الى خدمته في كل يوم . وكان من الطبيعي أن يحقد

(١). ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٦٧ .

شاور على شيركوه ، وبخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد الفاطمي لشيركوه وميله اليه ؛ فأرسل شاور مرة أخرى الى الصليبيين يستدعيهم لمساعدته ويقول لهم « يكون مجيئكم في دمياط في البحر والبر » . بل ان شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم اليها ، ولما عارضه ابنه الكامل في ذلك رد شاور على ابنه قائلا « لن لم تفعل هذا لنقتلن كلنا » .

وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ؛ فلما أرسل الأخير يطلب منه الوفاء بوعده أخذ يماطل في انتظار وصول الصليبيين لنجدته . وأخيرا اجتمع « أعيان الدولة بمصر » عند شيركوه وقالوا له « شاور فساد العباد والبلاد ، وقد كاتب الفرنج ، وهو يكون سبب هلاك الاسلام » وطالبوا بقتله . وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل في يناير سنة ١١٦٩ ؛ وقيل ان الخليفة العاضد الفاطمي شارك في المؤامرة التي عصفت بشاور . وبعد ذلك دخل شيركوه وصلاح الدين القاهرة ظافرين حيث أباحوا للناس نهب قصر شاور .

* * *

الوزير صلاح الدين :

وشاعت المقادير أن يموت شيركوه بعد شهرين — أى في مارس سنة ١١٦٩ — وعندئذ خلفه صلاح الدين ليبنى ثمرة جهده . ذلك أن الخليفة العاضد ولى الوزارة لصلاح الدين وهو

في الحادية والثلاثين من عمره . وهنا أيضا تحرص بعض المراجع على الإشارة الى تمنع صلاح الدين يوسف عن قبول منصب الوزارة ، ولكنه « ألزم به » ، وأحضر الى القصر ، وخلعت عليه الوزارة . ويعلق أبو المحاسن على تمنع صلاح الدين عن قبول منصب لوزارة بقوله « وان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل !! » . ويبدو أن قيام صلاح الدين في منصب الوزارة لم يتم دون معارضة أو منافسة من جانب كبار الأمراء النورية . ذلك أن جيش شيركوه في مصر كان يضم جماعة من أكابر أمراء نور الدين ، مثل عين الدولة الياروقى وقطب الدين خسرو وسيف الدين على بن أحمد المشطوب وشهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين .. وجميع هؤلاء تطلعوا الى الوزارة عقب وفاة شيركوه . ولكن الخليفة العاضد الفاطمى أصر على اختيار صلاح الدين بالذات للوزارة ، وربما ظن العاضد الفاطمى أن صغر سن صلاح الدين وعدم خبرته ستجعل منه أداة سهلة في يد الخليفة ، يستغلها في القضاء على بقية أعوان شيركوه من القادة العتاة . ويذكر ابن الأثير أن أصحاب الخليفة العاضد قالوا له : « ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف (صلاح الدين) » ، والرأى أن يولى (الوزارة) فإنه لا يخرج من تحت حكمنا » (١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٤ هـ
التاريخ الباهر ؛ ص ١٤٢

ولكن صلاح الدين لم يكده يتولى الوزارة حتى خيب ظن
الخليفة الفاطمي ، اذ شرع في استمالة قلوب الناس اليه ، وبذل
من الأموال ما كان أسد الدين شيركوه قد جمعه « فمال الناس
اليه وأحبوه » . وضعف أمر العاضد « . ثم ان صلاح الدين
أخضع بمهاليك شيركوه ، وسيطر سيطرة تامة على الجند ، بعد أن
« أجبتهم لجميع المعسكر الشامي والمصري فأحبوه وأطاعوه » .
وكان ذلك في الوقت الذي أمدّه نور الدين بقوة جديدة من
المعسكر ، فيها شمس الدين توران شاه بن أيوب ، أخو
صلاح الدين .

وبفضل هذه الوسائل تمكن صلاح الدين من القضاء على
قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة
العاضد الفاطمي . ويقال ان رئيس بلاط قصر الخليفة — وكان
نوبيا خصيا اسمه مؤتمن الخلافة — استاء من صلاح الدين
عندما « ثقلت وطأته على أهل القصر » فدبر مؤامرة للخلاص
منه ، وحاول أن يتصل بعموري الأول والصليبيين « والتقوى بهم
على صلاح الدين » . ولكن رسالة مؤتمن الخلافة الى الملك
عموري وقعت في يد صلاح الدين ، فرأى أن يستأصل الفتنة
من جذورها ، ويقضى على أية محاولة للعودة الى أساليب ضرغام
وشاور وألاعيبهم ، فقتل مؤتمن الخلافة فوراً في أغسطس
سنة ١١٦٩ . ثم لجأ صلاح الدين الى ابعاد جميع الخدم
(الخصيان) من السودان عن قصر الخلافة الفاطمية « واستعمل

على الجميع بهاء الدين قزاقوش وهو خصي أليغز ، وكان لا يجرى في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره وحكمه » (١) .

ولم يلبث أن غضب السودان الذين بمصر لقتل مؤتمن الخلافة « حمية للجنسية ولأنه كان يتعصب لهم » ، كما عز عليهم استبعادهم وضياع نفوذهم . وعندما تفاقت ثورتهم في القسطنطينية وتكاثرت أعدادهم حتى بلغوا خمسين ألفاً ، لجأ صلاح الدين إلى إشعال النار في محلتهم التي اعتصموا فيها بالقسطنطينية ، فطلبوا الأمان في أواخر أغسطس سنة ١١٦٩ ، وانتقلوا إلى الجزيرة على الضفة الغربية للنيل ، ولكن صلاح الدين أرسل إليهم أخاه توران شاه بن أيوب في طائفة من العسكر « فأبادهم بالسيف » (٢) .

أما الخليفة العاضد فقد ظن في أول الأمر أن السودان سينتصرون ، فأمر « من بالقصر أن يقدفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة » ، وعندئذ هدد تورانشاه بإشعال النار في قصر العاضد وأحراق منظره الخليفة . وكان أن غير الخليفة موقفة بسرعة ، ففتح باب المنطرة وخرج منه زعيم الخلافة وقال « أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة (تورانشاه) ويقول دونكم العبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم !! » . وكان السودان يعتمدون على تأييد العاضد ، فلما رأوا تغير موقف الخليفة منهم « فت في أعضادهم فجنبوا وتخاذلوا وأدبروا » . كذلك فعل صلاح الدين بجرس الخليفة الفاطمي من

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

الأرمن ؛ اذ أشعل النار في ثكناتهم وقضى عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بمثل ما قام به السودان . وهكذا قضى صلاح الدين على عناصر الخيانة في مصر ، وأدب القوى التي هددت سلطانه واعترضت طريق مشروعه الكبير في جهاد الصليبيين ؛ ولم يبق أمامه الا كبار الاقطاعيين وملوك الأراضى الذين يدفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة الى مساندة الفساد ، والعمل على عدم تغيير الأوضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضا وأحل محلهم فى أراضيهـم جماعة من رجاله من أهل الشام .

وهنا نلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة فى تلك المرحلة بوصفه نائبا عن نور الدين ، لا باسم الخليفة الفاطمى بوصفه وزيرا له . ويؤكد المؤرخ ابن واصل هذه الحقيقة فيقول أن صلاح الدين كان عندئذ « لا يتصرف الا عن أمره » يقصد أمر نور الدين . وقد أدت هذه السياسة الى احتفاظ صلاح الدين حتى ذلك الوقت على الأقل بعطف نور الدين وعدم إثارة مخاوفه أو حسده « نتيجة للخطوات السريعة التى دعم بها سلطانه فى مصر ، حتى أعطاه نور الدين لقب أمير ولقبه « الأمير الأسفهلار » . والواقع ان صلاح الدين كان لا يمكنه أن يستغنى عن معونة نور الدين فى ذلك الدور المبكر من حياته العملية ، لا سيما وان الموقف أمامه كان — كما سبق أن رأينا — مليئا بالصعاب داخل مصر ؛ فى حين كان الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية للبلاد .

فزع الصليبيين من الوحدة الاسلامية :

ذلك أن نجاح نور الدين في ضم مصر الى دولته ، خلق في محيط الصليبيين بالشام جوا جديدا من القلق والرعب ، بعد أن أحسوا أنهم وقعوا بين شقى الرحى ، وأن القسوات الصليبية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقى والجنوب الغربى . ويعبر المؤرخون المسلمون عن ذلك الوضع الجديد تعبيراً دقيقاً ، فيقول ابن الأثير « كان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين (شيركوه) مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك .. وانهم خائفون على بيت المقدس » . أما ابن واصل فيقول « ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية .. أيقن الفرنج بالهلاك » . هذا الى أن سيطرة نور الدين محمود — وقائده صلاح الدين — على القواعد البحرية في شمال مصر — مثل الاسكندرية ودمياط وغيرها من موانئ الدلتا — من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحرية ، وتجعل هذه السيادة للمسلمين في الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط .

ولم يلبث الشعور بالفزع والقلق على المستقبل أن دفع عمورى الأول ملك بيت المقدس الى ارسال سفارة الى الغرب الأوروبى لتطلب من امبراطور ألمانيا وملوك فرنسا وانجلترا وصقلية وغيرهم من كبار الحكام الاسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لانقاذ اخوانهم الصليبيين في الشرق . وجدير بالذكر أن تلك الاستغاثة لم تخف على المؤرخين المسلمين ، فقال ابن الأثير ان

الصليبيين بالشام » كاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم بما تجدد من ملك مصر. وأنهم خائفون على البيت المقدس » ، أما ابن واصل فيقول انهم « كاتبوا فرنج صقلية وغيرهم واستمدوهم واستتصروهم لدين النصرانية » (١) . على أن الأوضاع السياسية في غرب أوروبا عندئذ ، لا سيما ما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية حالت دون تحقيق رغبة الملك عمورى الأول وشركاه . وبذلك لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه الى الدولة البيزنطية وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها .

وكان أن لبى الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين النداء ، فأعد أسطولاً كبيراً غادر مياه الدردنيل فى يوليو سنة ١١٦٩ متجها الى قبرس ، حيث انضمت اليه بعض الوحدات الاضافية ، ثم اتجهت العمارة البيزنطية نحو صور ومنها الى عكا لرسم الخطة اللازمة لغزو مصر بالاشتراك مع الصليبيين . أما الملك عمورى فقد أراد أن يكتسب تأييد كافة القوى الصليبية ببلاد الشام لتنفيذ مشروعه الخاص بغزو مصر ، ولذلك أصدر مرسوماً هاماً فى أكتوبر سنة ١١٦٨ يقضى بمنح الاستثنائية جزءاً هاماً من ايراد مصر ، ونصيباً كبيراً من دخل أهم المدن المضرية مثل القسطنطينية وتنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم .. مما يدل على عزم الملك عمورى على

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٨٠ .

الاحتياط على مصر من ناحية وعلى اعتقاده في امكان تحقيق ذلك
من ناحية أخرى (١)

وفي الوقت الذي أقلع الأسطول البيزنطي صوب دمياط ،
زحف الصليبيون برا في ١٦ أكتوبر سنة ١١٦٩ من عسقلان الى
الفرما ومنها الى دمياط « ومعهم المنجنقات والدبابات وآلات
الخصار وغير ذلك » . واذا كان الصليبيون قد نصبوا معسكرهم
أمام دمياط ، الا أن الأسطول البيزنطي لم يستطع دخول الميناء
بسبب المأصر ، وهى السلاسل الحديدية الممتدة بعرض النيل
في الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء .

أما إصلاح الدين فقد أسرع عندما علم بهجوم الصليبيين الى
تحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية ، ظنا منه أن الحملة
الصليبية في تلك المرة ستقتفى أثر الحملات السابقة . فلما اتجهت
الحملة الى دمياط وجد صلاح الدين نفسه في موقف حرج ،
لا سيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة في الداخل
عقب قيامه باقصاء الخصيان عن القصر الفاطمي وقتله الجند
السودان . وقد عبر صلاح الدين عن موقفه في الرسالة التي
أرسلها الى نور الدين ، وقال فيها « انى ان تأخرت عن دمياط
ملكها الفرنج وان سرت اليها خلفنى المصريون في أهلها بالشر ،
وخرجوا عن طاعتى وساروا في اثرى والفرنج أمامى » . ومع

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢

ذلك فان صلاح الدين لم يئأس ولم يستسلم ، فأرسل يطلب
النجدة من نور الدين « فسير نور الدين العساكر اليه ارسالا
يتلو بعضها بعضا » . وفي الوقت نفسه كان تقي الدين عمر
— ابن أخى صلاح الدين — ، وشهاب الدين — خاله — ، قد
دخلوا دمياط فواصل صلاح الدين ارسال الامدادات والنجادات
اليهما عن طريق النيل « وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر » (١) .
وهكذا كان حصار الصليبيين للمدينة غير تام . وتشير
المراجع الصليبية الى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار
النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أواني
فخارية بها مواد مشتعلة ، كانت تصطدم بسفن الأسطول البيزنطى
فتنزل به أبلغ الضرر ، مما اضطر الأسطول الى الابتعاد عن لسان
النيل وعن المدينة . ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع
بعد أن نفذ تموينها ، فاقترح القائد البيزنطى على عمورى الأول
القيام بهجوم شامل على دمياط ، ولكن الملك الصليبي عارض
بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين داخل المدينة ، وأنه
« حشر فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر » .
وأخيرا وجد الصليبيون أن انتظارهم طال أمام دمياط دون
جدوى ، وفي الوقت الذى هاجم نور الدين ممتلكاتهم وبلادهم
فى الشام ، والذى كانوا يحسبون فيه دائما حسابا لهجوم
صلاح الدين عليهم من الخلف . ولذلك قرروا رفع الحصار عن

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ص ١٨٠ — ١٨١ .

دمياط وعادوا الى عسقلان خائبين بعد أن فشلوا في غزو مصر ،
ليجدوا نور الدين قد عبث ببلادهم في الشام ونهبها ؛ حتى
شبههم ابن الأثير بالنعامة التي خرجت تطلب قرنين فرجعت
بلا أذنين !!! (١) .

أما السفن البيزنطية فقد انسحبت هي الأخرى ، ولم يستطع
بحارتها السيطرة عليها أو التحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه
من جوع وارهاق ، فغرق كثير منها ، وظلت الأمواج تقذف جثث
بحارتها على الشاطئ طوال عدة أيام قالية .

ولا شك في أن فشل تلك الحملة الصليبية البيزنطية أدى
الى تدعيم مركز صلاح الدين في مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية
تفقد الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية . أما نور الدين
فلم يبق أمامه سوى البحث عن وسيلة لتقوية الاتصال بين القاهرة
ودمشق ، لأن سيطرة الصليبيين على الأردن ووادي عربة
— بما فيه من حصون مثل الكرك والشوبك وغيرهما — أتاحت
للصليبيين امكانيات التحكم في صحراء النقب بين البحر الميت
والبحر الأحمر ، حيث كانت أيله على خليج العقبة خاضعة لهم .
وهكذا صار طريق الاتصال البرى مقطوعا بين مصر وبلاد الشام
الاسلامية ، أو بعبارة أخرى بين صلاح الدين ونور الدين ، في
الوقت الذي أخذ الصليبيون يعتدون على القوافل المتنقلة بين
الحجاز ومصر والشام . وليس غريبا ما نسمعه من أن نور الدين

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٤٤ .

لجأ في أبريل سنة ١١٧٠ الى مهاجمة حصن الكرك ليسمح لقافلة بقيادة نجم الدين أيوب - والد صلاح الدين - بالعبور الى مصر .

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين يعمل على توطيد مركزه في مصر دأب نور الدين محمود على مهاجمة الصليبيين في الشام من ناحية ، وعلى السعى لاتمام الجبهة الاسلامية في الشرق الأدنى من ناحية أخرى . وقد حدث في سبتمبر سنة ١١٧٠ أن توفي قطب الدين مودود أتابك الموصل وأخو نور الدين ، فاتهز نور الدين فرصة الخلاف الذي نشب بين ولدي أخيه واستولى على الموصل في أوائل سنة ١١٧١ ، وبذلك صارت الجبهة الاسلامية تمتد فعلا من الفرات الى النيل وتربط بين الموصل وحلب ودمشق والقاهرة برباط وثيق . ولا أدل على قوة نور الدين في العالم الاسلامي عندئذ من أنها الخليفة العباسي المستضيء أرسل اليه خلعاً تكريماً له واعترافاً بقدره .

* * *

نهاية الخلافة الفاطمية :

ولم يكن صلاح الدين في ذلك الدور أقل نشاطاً في العمل في هذين الميدانين : ميدان جهاد الصليبيين وميدان توحيد قوى المسلمين . ففي الميدان الأول نسمع أن صلاح الدين خرج من مصر في أوائل ديسمبر سنة ١١٧٠ لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطئ فلسطين ، فبدأ بجصار قلعة الداروم (الدارون

— دير، البلج) جنوبى غزة ؛ ثم حاول الاستيلاء على غزة نفسها .
ولكن صلاح الدين لم يستطع تنفيذ غرضه بسبب المساعدة
العاجلة التى قدمها عمورى الأول ملك بيت المقدس الذى أتى
بنفسه للدفاع عن شواطئ فلسطين ضد هجمات صلاح الدين .
ولم يلبث صلاح الدين أن انسحب عائدا الى مصر ، وانه كان
ابن الأثر يذكر أن صلاح الدين لم يعد الى مصر عندئذ الا بعد
أن أنزل هزيمة بالصلبيين حتى أن الملك عمورى أفلت من الأسر
بصعوبة . ثم ان صلاح الدين لم يترك شاطئ فلسطين عائدا الى
مصر الا ليستعد لضربة جديدة يوجهها ضد الصليبيين . ذلك أنه
بنى عددا كبيرا من السفن ، حملت أجزاءها مفككة على ظهور
الجمال عبر سيناء حتى البحر الأحمر ؛ وهناك جمعت أجزاءها
وركبت واستخدمها صلاح الدين فى مهاجمة أيله بحرا فى الوقت
الذى هاجمتها القوات البرية برا (نهاية ديسمبر ١١٧٠) .
ولم تلبث أن سقطت أيله فى قبضة صلاح الدين فاقتيد أفراد
حاميتها أسرى الى القاهرة (١) .

أما من ناحية جهود صلاح الدين فى توحيد قوى المسلمين
فى ذلك الدور المبكر من تاريخه ؛ فإن أول ما اتجه اليه
صلاح الدين كان ازالة الشقاق المذهبى بين المسلمين فى الشرق
الأدنى عن طريق القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية . والواقع

(١) للوقوف على التفاصيل انظر :

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢

ص ٧١٨ .

ان بقاء الخلافة الفاطمية في مصر كان يمثل مشكلة خطيرة بالنسبة لنور الدين ، وهو الحاكم السني الذي ازدادت علاقته بالخلافة العباسية رسوخا عقب فرض سيطرته على الموصل سنة ١١٧١ ؛ فكان لا بد من ايجاد حل سريع حاسم لتحديد وضع الخلافة الفاطمية في ظل قوة كبرى تعتنق المذهب السني . ومن ناحية أخرى فان صلاح الدين في مصر لم يكن أقل تحمسا للمذهب السني من سيده نور الدين بالشام ؛ فقد عرف عن صلاح الدين أنه كان شافعيًا حريصًا على مذهبه ؛ فأخذ يعمل — منذ أن استتب له الأمور في مصر — على تدعيم المذهب الشافعي في البلاد بكافة الوسائل ؛ والخليفة الفاطمي في قصره يسمع ويرى !! من ذلك ما لجأ اليه صلاح الدين من تحويل دار المعونة ودار العدل في القسطنطينية الى مدارس للشافعية ، فضلا عن مدرسة للمالكية بناها صلاح الدين في مكان يعرف بدار الغزل ، وهي المدرسة التي عرفت فيما بعد باسم المدرسة القمحية . كذلك أحل صلاح الدين القضاة الشافعية محل قضاة الشيعة « في جميع البلاد » (١) .

ومع ذلك فقد ظل صلاح الدين متخوفا من الاقدام على الخطوة الكبرى الخاصة باسقاط الخلافة الفاطمية والغائها ؛ في الوقت الذي كان الخليفة الفاطمي العاضد لا يمتلك من القوة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٩٨
المقرئ : المواعظ ، ج ٤ ص ١٩٣
أبو المحاسن : النجوم ؛ ج ٥ ص ٣٥٨

ما يمكنه من التخلص من صلاح الدين . ولا يستبعد أن يكون صلاح الدين نفسه قد حرص في ذلك الدور بالذات على بقاء الخلافة الفاطمية قائمة في صورتها الرمزية ، وذلك بعد أن أحس بتغير شعور سيده نور الدين نحوه ، وحسده له على ما حققه من مكانة لنفسه في مصر ؛ فضلا عن تخوف نور الدين من مشروعات صلاح الدين المقبلة في ميدان الاستقلال بمصر . لذلك أراد صلاح الدين أن يستبقى الخلافة الفاطمية لتكون بمثابة سلاح يستطيع أن يستعمله عند الحاجة إذا تأزم الموقف بينه وبين نور الدين . وقد عبر ابن الأثير عن هذا الرأي عندما قال « وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم (للعلويين) ويريد بقاءهم » خوفا من نور الدين ؛ فانه كان يخافه أن يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه ، فكان يريد أن يكون العاضد (الخليفة الفاطمي) معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه ! . هذا وان كانت كراهية ابن الأثير لصلاح الدين تجعلنا نقرب في حذر مما يصدره هذا المؤرخ من أحكام شخصية لا تخلو من تطرف ضد صلاح الدين (١) .

على أنه مما يؤيد وجهة نظر ابن الأثير في موضوع موقف صلاح الدين من الغاء الخلافة الفاطمية ؛ ما هو ثابت في التاريخ فعلا من أن صلاح الدين أخذ يماطل سيده نور الدين عندما طلب منه القضاء على الخلافة الفاطمية تحقيقا لوحدة العقيدة في العالم

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

الإسلامي؛ فاعتذر صلاح الدين « من وثوب أهل مصر وامتثالهم من الإجابة التي ذلك ليلهم الى العلوية » ولكن نور الدين لم يستطع ضبرا فأرسل إنذارا نهائيا في صيف سنة ١١٧١ الى صلاح الدين يأمره باحلال اسم الخليفة العباسي المستضيء محل اسم الخليفة العاضد في خطبة الجمعة « وأرسل اليه يلزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه ! » . وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين ثارين : الوقوع في أزمة مع نور الدين و التعرض لثورة الشيعة في مصر . ولم يكن صلاح الدين في ذلك الوقت مستعدا للدخول في نزاع صريح مباشر مع سيده نور الدين ، فاختار أن يلبى رغبته لا سيما وأن الخلافة الفاطمية وأتباعها من الشيعة في مصر لم تعد لهم قوة حقيقية يعتمدون عليها بعد مقتل الجند السودان .

وأخيرا تم الانقلاب ، فدعى في القاهرة في أول جمعة بحجة ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) للخليفة العباسي المستضيء أمير المؤمنين ، وبذلك حدث التحول من المذهب الشيعي الى المذهب السني في هدوء « ولم ينتطح فيه عنزان » ، على قول ابن الأثير . وقد توفي الخليفة العاضد — آخر الخلفاء الفاطميين — بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته ، إذ منع صلاح الدين رجاله من ازعاجه بذلك الخبر أثناء مرضه « قاذبا غوفي فهو يعلم ، وإنم توفي فلا ينبغي أن تفجعه بهذه الحادثة قبل موته » . ويقال إن صلاح الدين عندما علم ب وفاة الخليفة

العاقد الفاطمي لدم ندما شديدا على أنه تعجل في قطع خطبته
وقال « ليتنى صبرت حتى يموت !! » (١) .
ومهما يكن من أمر ، فإن صلاح الدين دأب على القس
لازالة معالم الدولة الفاطمية « وقطع دابرها ومحو آثارها » .
ومن ذلك ما يرويه المقرئى أنه نزع المناطق الغضة التى كانت
بمحارب جوامع القاهرة ، والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء
الفاطميين . وقد ذكر ابن واصل أن الخطبة قطعت للعباسيين من
مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وأنها عادت سنة ٥٦٧ هـ ، فكانت مدة
انقطاعها من مصر نحو من مائتى سنة وتسع سنين . ولم تلبث
أن أقيمت الاحتفالات في بغداد تعبيرا عن شعور الفرح بذلك
النصر الضخم الذى تحقق للخلافة العباسية ، فأسرع الخليفة
العباسى المستضىء الى ارسال الخلع الى نور الدين وصلاح الدين ،
ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين .

* * *

صلاح الدين ونور الدين :

ولم تلبث الوحشة أن دبّت بين صلاح الدين ونور الدين
عقب اسقاط الخلافة الفاطمية سنة ١١٧٢ ، بسبب تحديد العلاقة
بين الأول والثانى ، أو تحديد الخيوط التى تربط صلاح الدين
بسيده نور الدين . فحتى ذلك الوقت كان صلاح الدين يباشر
سلطانه الفعلى في مصر بوصفه وزيرا شرعيا للخليفة العاضد

(١) أبو المحاسن : التجوّم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ٣٥٦ .

الفاطمي ؛ فضلا عن أنه كان يتفد التعليمات الصادرة اليه من سيده نور الدين بوصفه نائبا عنه وقائدا لقواته في مصر . ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية و وفاة الخليفة العاضد « صفا الوقت لصالح الدين » على قول أبي المحاسن ؛ اوصار يخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود .

ولعله من الواضح أنه كان لزاما على صلاح الدين في ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين ويختار لنفسه أحد طريقين ، فاما أن يظل على ولائه لنور الدين بوصفه نائبا عنه في مصر ؛ وفي هذه الحالة عليه أن يتقبل في أية لحظة قرار نقله واحلال من يحل محله في حكم مصر ؛ واما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته ويجعل من نفسه ملكا على مصر مما يعرضه لنقمة نور الدين وهجمات جيوشه . وليس هناك من شك في أن صلاح الدين الذي خبر أحوال مصر وأدرك أهميتها ومدى ثروتها ؛ عز عليه أن يتخلى عنها ويحرم منها لمجرد الحرص على ولائه لنور الدين . وتشير الشواهد كلها الى أنه أخذ يمكن نفسه في مصر ويستعد لما عساه يتعرض له اذا تطورت العلاقات بينه وبين نور الدين تطورا سيئا . من ذلك أن صلاح الدين زار الاسكندرية وتفقد تحصيناتها كما أخذ يفكر في الاستيلاء على برقة طمعا في ثروتها (١) .

(١) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٤٨ .

ويضرب لنا ابن الأثير مثلاً لحالة الوحشة التي سادت العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمي ؛ فيقول ان صلاح الدين خرج من مصر في أواخر سبتمبر سنة ١١٧١ بناء على أوامر صدرت اليه من نور الدين لمهاجمة حصن الشوبك في وادي عربة . ولم تستطع حامية الحصن الثبات في المقاومة ، فطلبت اعطائها مهلة عشرة أيام للتسليم . ولكن صلاح الدين لم يلبث — وهو أمام الشوبك — أن علم بمسير نور الدين اليه لمساعدته ؛ وعندئذ تخوف صلاح الدين من نوايا سيده نور الدين ، وأدرك أنه من المخاطرة أن يبقى أمام الشوبك لحين حضور نور الدين اليه ؛ اذ ربما استغل نور الدين الفرصة وقبض على صلاح الدين وعزله من منصبه بعد أن تضخم نفوذه في مصر . ويبدو أن أصحاب صلاح الدين وخواصه هم الذين « خوفوه من الاجتماع بنور الدين » وقالوا له انه اذا تم الاجتماع فحينئذ « يكون هو المتحكم فيك ان شاء تركك وان شاء عزلك ! » . لذلك أسرع صلاح الدين بالانسحاب الى مصر قبل وصول نور الدين في أواخر أكتوبر سنة ١١٧١ ، معتذرا بأنه لا بد له من الاسراع بمساعدة أخيه الذي يحارب بقايا أتباع الفاطميين بالصعيد ، وبأن ثورة العلويين تنذر بالانفجار في القاهرة مما تطلب سرعة عودته (١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٧ هـ . ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٨ .

على أن مثل هذا السلوك لم يكن له سند قوى يبرره ،
فاستاء نور الدين من مسلك نائبه في مصر « وعظم عليه ذلك ..
ولم يقبل عذره » . وكان أن أخذ نور الدين يستعد للزحف على
مصر لتأديب صلاح الدين الذي أسرع بعقد اجتماع من أهل بيته
وأمرائه لبحث الموقف على عجل والاتفاق على خطة لمواجهة
نور الدين . وقد بدأ الكلام في ذلك الاجتماع بعض الشبان
المتحمسين — مثل المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين —
الذى اندفع قائلاً « اذا جاء (نور الدين) قاتلناه وصددناه عن
البلاد » ؛ وانضم الى تقى الدين في رأى بعض الحاضرين .
ولكن والد صلاح الدين — وهو الشيخ نجم الدين أيوب —
تدخل في الحال ، فشتهم أولئك المتهورين وأنكر عليهم تفكيرهم ،
ثم اتجه نحو صلاح الدين وقال « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين
الحارمى خالك ، أتظن في هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير أكثر
مننا ؟ » . قال صلاح الدين « لا » . فقال والده نجم الدين
أيوب « لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا
الا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك
بالسيف لفعلنا !! فاذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وهذه
البلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه ، فاذا أراد عزلك فأى حاجة
الى المجيء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى
البلاد من يريد » . وبعد ذلك التفت نجم الدين الى جموع
الحاضرين وقال لهم « قوموا عنا ؛ فنحن ممالك نور الدين
وعبيده يفعل بنا ما يريد !! » فتفرق الجميع ، وبادر بعضهم

بالكتابة الى نور الدين بما حدث . وعندما خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له : « أنت جاهل قليل المعرفة !! تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك ! ؟ فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاهها بالقصد . ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحدا ؛ وكانوا يسلمونك اليه . وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون اليه يعرفونه قولى ! » ثم طلب نجم الدين من ولده صلاح الدين أن يكتب الى نور الدين يعرب له عن ولاءه ، ففعل ذلك . كذلك خرج صلاح الدين بنفسه في العام التالي — سنة ١١٧٣ — لغزو الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون الصليبية القريبة لاثبات حسن نيته لسيده نور الدين . بل لقد بالغ صلاح الدين — عملا بنصيحة والده — فأرسل هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والأقمشة والمصنوعات والعطر . هذا وان كان ابن واصل يذكر أن نور الدين لم تعجبه الهدية واستقلها « ولم تقع منه بموقع » . ويبدو أن نور الدين كان سمع أخبارا مبالغ فيها عن ثروة الفاطميين وما استولى عليه صلاح الدين من قصورهم ، حتى أنه أرسل أحد رجاله « مطالبا لصلاح الدين بالحساب عن جميع ما أخذه من قصور الخلفاء » (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد نجحت خطة الشيخ نجم الدين

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٤
المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٩ - ٥٢

أيوب ، فاطمئن نور الدين من ناحية صلاح الدين « وترك قصته واشتغل بغيره ، فكان الأمر كما ظنه أيوب » . على أن صلاح الدين — رغم ذلك — لم يتقاعس عن حماية مكاسبه التي حققها في مصر ، ولم يشأ أن يتخلى عن مطامعه ، وإنما فضل أن يستعد لما عساه يحدث في المستقبل . وشارك صلاح الدين في رأيه بعض أفراد أسرته الذين أتوا الى جانبه في مصر ، حتى استقر رأيهم على « تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم انهم أخرجهم نور الدين من مصر ساروا اليها وأقاموا بها » . وربما كان ذلك هو السر في أن صلاح الدين أرسل أخاه شمس الدولة توران شاه ابن أيوب في أواخر سنة ١١٧٣ لفتح بلاد النوبة حتى تصبح مأوى للأيوبيين في حالة دخول نور الدين مصر وتغلبه على صلاح الدين . ولكن تقرير توران شاه عن بلاد النوبة أظهر لصلاح الدين أنها بلاد فقيرة « قليلة الجدوى » ، فأرسل صلاح الدين أخاه توران شاه الى اليمن سنة ١١٧٤ حيث أخضعها وأدخلها تحت سيادة بني أيوب (١) .

ويبالغ ابن الأثير ، فيذكر ان صلاح الدين حرص في ذلك الدور أيضا على عدم التوسع في حرب الصليبيين ليظلوا ستارا يفصل بينه وبين نور الدين ، فقال ان صلاح الدين « كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج عن طريقه أخذ البلاد منه ، فكان

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

يحتسب بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم» (١) وإذا كان صلاح الدين قد قام بغزو أراضي الصليبيين في الكرك والشوبك سنة ١١٧٣ بناء على نصيحة والده ، فإن تلك الغزوة لم تطل ؛ بل على العكس أدت الى تجديد الخلاف بينه وبين نور الدين . ذلك أن صلاح الدين لم يكد يشرع في حصار الكرك ، حتى عاد وتخوف أن يغدر به نور الدين الذي كان هو الآخر قد اقترب فعلا من الكرك . وهكذا تحجج صلاح الدين بمرض أبيه نجم الدين أيوب — الذي كان صلاح الدين قد استخلفه في مصر — « وأنه يخاف أن يحدث عليه حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم » ؛ فأسرع فورا بالعودة الى مصر دون أن ينتظر وصول سيده نور الدين . والواقع ان نجم الدين أيوب توفي فعلا قبل عودة صلاح الدين الى القاهرة ، ولكن وفاته كانت بسبب سقوطه من فوق فرسه (٢) . أما عن نور الدين محمود فيبدو أنه أيقن يقينا لا يشوبه أدنى شك في اتجاهات صلاح الدين ونواياه ، فقرر نهائيا غزو مصر والقضاء عليه « وشرع يتجهز للدخول الى مصر لأخذها من صلاح الدين » . ولكن شاءت الأقدار أن تترك صلاح الدين حرا في تخطيط مستقبله ومستقبل الوطن العربي في الشرق الأدنى ، فتوفي نور الدين سنة ١١٧٤ قبل أن يحقق غرضه ، وبذلك ترك الميدان خاليا أمام أطماع صلاح الدين .

* * *

(١) ابن الأثير : التايخ الباهر ، ص ١٦١ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٧٦ .

صلاح الدين يوطد نفوذه في مصر

على أن المتاعب التي أقلقت بال صلاح الدين في مصر في ذلك الدور لم تأت فقط من جانب مخاوفه من سيده نور الدين ، وإنما ثمة متاعب داخلية في مصر هددت نفوذ صلاح الدين في مصر في ذلك الدور وأوشكت أن تعصف به وبالبذور الأولى لدولته . ذلك أنه لم يكن معنى القضاء على قوة السودان ثم سقوط الخلافة الفاطمية و وفاة الخليفة العاضد .. لم يكن معنى ذلك كله استقرار الأوضاع في داخلية مصر نهائيا لصلاح الدين . فاذا كانت الخلافة الفاطمية في ظاهر أمرها قد ماتت موتا صامتا ، إلا أن الوضع الجديد في البلاد أغضب المخلصين من الشيعة في مصر . هذا بالإضافة الى أتباع النظام القديم والمستفيدين منه ؛ وجلهم من الانتهازيين الذين عز عليهم أن ينقضى زمن الفوضى وأن يسيطر على البلاد رجل قوى مثل صلاح الدين .

ولم تلبث أن دبرت مؤامرة في القاهرة (مارس — أبريل ١١٧٤) اشتركت في حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد بقصد احياء الخلافة الفاطمية « واقامة الدعوة العلوية وردها الى ما كانت عليه » . وكان على رأس هذه المؤامرة الشاعر عمارة اليمنى الذى وصفه المؤرخ ابن واصل بأنه كان « شديد التعصب لهم » أى للفاطميين على الرغم من أنه كان سنيا شافعيا « ولم يكن على مذهبهم » ؛ وفسر ذلك بأنه وفد عليهم من اليمن فأحسنوا اليه وصار « صنيعه الاحسان » (١) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٢١٢ .

وبالإضافة الى عمارة اليمنى ، يذكر التاريخ عدة أسماء ممن خططوا لتلك المؤامرة ، منهم عبد الصمد الكاتب والقاضى العوريسى داعى دعاة الشيعة ، وابن عبد القوى ، فضلا عن عدد آخر كبير من أتباع الدولة الفاطمية من الموظفين وبقايا الجند السودان وخدم القصر الفاطمى وغيرهم .

وعندما أدرك المتآمرون أنهم فى حاجة الى مساندة قوة خارجية لضمان نجاح مؤامرتهم ، أقدموا على الاتصال بالحشيشية الباطنية من ناحية وبالصليبيين من ناحية أخرى . وكان أن أرسل المتآمرون الى شيخ الجبل مقدم الاسماعيلية بالشام يقولون له « ان الدعوة واحدة والكلمة جامعة » ؛ ويطلبون منه ايفاد « من يقيم على الملوك غيلة » لقتل صلاح الدين . أما الخطة التى وضعها المتآمرون فقد قضت بأن يقوم الصليبيون بغزو مصر ، فى الوقت الذى يشعلون الثورة فى القاهرة والفسطاط ، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين ، ويسهل القضاء عليه .

ولم يكتف المتآمرون بالاتصال بعمورى الأول ملك بيت المقدس ، وانما اتصلوا أيضا بوليم الثانى النورمانى ملك صقلية ، حتى يهاجم أسطوله الاسكندرية فى الوقت الذى يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق . وقد تم الاتفاق بين المتآمرين من ناحية وملكى بيت المقدس وصقلية من ناحية أخرى على جميع تلك التفاصيل ، بحيث « لم يبق الا رحيل الفرنج » على قول

ابن الأثير (١) . واختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه في اليمن موعدا لتنفيذ مؤامرتهم ، حتى لا يحل محل أخيه في حالة مقتله ، كما عينوا أعضاء الجهاز الحكومي الجديد « وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأهالك » ؛ بحيث غدا كل شيء معدا للتنفيذ .

وقبل البدء في تنفيذ المؤامرة ، أرسل عمورى الأول رسولا الى القاهرة يحمل في ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبي لصلاح الدين ، ولكنه في حقيقة أمره أتى ليرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين قبل التنفيذ . وفي الوقت نفسه استجاب وليم الثانى ملك صقلية لدعوة المتآمرين ، فأعد أسطولا ضخما من ستمائة سفينة تحمل قرابة ثلاثين ألف رجل للمشاركة في غزو مصر .

ولكن الخيانة لم تلبث أن انكشفت وتم احباط المؤامرة في اللحظة الأخيرة . ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم في سرهم الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجا ، فقام هذا الفقيه باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولا بأول . وفي الوقت نفسه وصل المبعوث الذى أرسله عمورى الأول الى القاهرة محملا بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين ، فالكشف أمره بعد أنه راقبه صلاح الدين عن طريق بعض أقباط مصر . ولم يكذ صلاح الدين يتأكد من تفاصيل المؤامرة حتى قبض على المتآمرين فوراً وصلب زعماءهم الشاعر عمارة اليمنى وعبد الصمد

(١) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

الكاتب والعوريس القاضى فى أبريل سنة ١١٧٤ ، فى حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد (١) .

ولم يلبث صلاح الدين أن وجه جهوده بسرعة لاختماد ثورة أخرى قامت فى أسوان على حدود النوبة ، أشعلها أحد القادة الفاطميين واسمه كنز الدولة (الكنز) الذى جمع حوله فى أسوان بعض العناصر من الشيعة والجند السودان وغيرهم ، وأوهمهم « أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية » ، وزحف بهم على قوص . ولكن الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه العادل سيف الدين استطاعت فى سبتمبر سنة ١١٧٤ أن تقضى على أولئك الجند السودان قضاء مبرما « فاستأصل شأفتهم وأحمد ثأرتهم » (٢) .

أما عمورى الأول ملك بيت المقدس ، فلم يكدر يعلم بانكشاف سر المؤامرة فى القاهرة وفشل الخطة الموضوعة لغزو مصر ، حتى توفى فى بيت المقدس وسط جو من خيبة الأمل فى صيف سنة ١١٧٤ . ولم يلبث أن وصل أسطول صقلية الذى أرسله وليم النورمانى الى مياه الاسكندرية فى أواخر يوليو ليجد أن كل شىء قد انتهى ، وأن فشل المؤامرة من جهة ووفاة عمورى الأول من جهة أخرى جعلت غزو مصر غير ذى موضوع . ومع

(١) المرجع السابق ، ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٩ ؛ المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٥٧ - ٥٨

ذلك فان الأسطول النورمانى الذى وصل أمام الاسكندرية فى ٢٨ يوليو سنة ١١٧٤ نجح فى انزال قواته على الشاطئ ؛ كما دمر بعض السفن التجارية الراسية فى ميناء الاسكندرية . وقد حاول النورمان اقتحام الاسكندرية وشددوا هجماتهم عليها ، ولكن المسلمين ثبتوا لهم وأحرقوا بعضا من سفنهم ؛ فى الوقت الذى قدم صلاح الدين مسرعا ومعه جيشه ، فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وأحرق خيامهم وأنزل بهم الهزيمة . وهكذا « بقى العدو بين قتل وغرق وأسر » ؛ فاضطر النورمان الى الاقلاع بسفنهم فورا « وعادوا خائبين خاسرين » (١) .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن صلاح الدين استطاع أن يفرغ من مشاكله الداخلية فى مصر وأن يدعم نفوذه تماما فى هذه البلاد فى خريف سنة ١١٧٤ ؛ ولم يبق بعد ذلك سوى أن يوجه صلاح الدين جهوده ضد الصليبيين بالشام . غير أن صلاح الدين كان أعقل من أن يدخل معركة فاصلة ضد الصليبيين قبل أن يدعم الوحدة الاسلامية فى الشرق الأدنى .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ٢٣٥ .

الفصل الثالث

تدعيم الوحدة

لم يكن عجباً أن يعتقد صلاح الدين بعد هذا التوفيق الذي أصابه في مصر أنه هو الوارث الحقيقي لدولة نور الدين وسياسته في توحيد المسلمين في الشرق الأدنى من ناحية وفي جهاد الصليبيين من ناحية أخرى . ولكن إذا كان صلاح الدين قد افترض في نفسه أنه الوارث الروحي للدولة النورية ، فإن هذا كان يعني أيضاً أنه الوارث لجميع المشاكل التي ترتبت على سياسة نور الدين الواسعة ، سواء في الميدان الإسلامي أو في الميدان الصليبي . وقد أدرك صلاح الدين أن عليه أن يبدأ أولاً بتدعيم الوحدة الإسلامية ، ولكن دون أن يهمل الجانب الصليبي إهمالاً تاماً حتى لا يستغل الصليبيون انصرافه إلى المشاكل الداخلية في الوطن الإسلامي في التوسع والعدوان . وهكذا يمكن القول أنه في نهاية سنة ١١٧٤ انتهى الدور المصري في تاريخ صلاح الدين ، وبدأ دور جديد هو دور تدعيم الوحدة الإسلامية الذي امتد حتى سنة ١١٨٧ ؛ مع عدم اغفال ما قام به صلاح الدين أثناء هذا الدور الأخير من حروب ضد الصليبيين ؛

كانت لها أهميتها بالنسبة لدور الجهاد الأكبر الذى بدأ
سنة ١١٨٧ .

والواقع ان وفاة نور الدين محمود فى قلعة دمشق فى منتصف
مايو سنة ١١٧٤ أثارت مشكلة كبيرة ، هى تقسيم دولته الواسعة
بين ورثته ، مما هدد الوحدة الاسلامية التى أجهد نفسه فى
بنائها . وكان الوريث الأول لنور الدين — الذى ورثه فى ملك
حلب ودمشق — هو ابنه الملك الصالح اسماعيل الذى لم يتجاوز
سنه عند وفاة أبيه الحادية عشرة . على أنه وجد للملك الصالح
اسماعيل هذا ابن عم — هو سيف الدين غازى الثانى
ابن قطب الدين مودود بن زكى — أتابك الموصل الذى « فرح
بوفاة عمه نور الدين ، وأظهر الفسق ، وأمر بإعادة المكوس ،
وتظاهر بالمنكرات » (١) . ولا أدل على قصر تفكير سيف الدين
هذا من أنه بدلا من أن يعمل على الاحتفاظ بوحدة الدولة
النورية ، لجأ الى تفتيتها ؛ فلم يكده يعلم بوفاة عمه حتى أسرع
الى احتلال نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقه وغيرها
من الأماكن التى كانت تابعة لنور الدين فى الجزيرة .

ثم ان النزاع لم يلبث أن نشب كذلك بين أقوى اثنين من
أمراء نور الدين ، هما شمس الدين على بن الداية ، والأمير
شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم . وكان
النزاع بين هذين الأميرين بسبب الوصاية على الملك الصالح

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٩ .

اسماعيل بن نور الدين ؛ فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها
مركز الدولة النورية ، في حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك
الصالح اسماعيل في دمشق .

أما صلاح الدين فقد صار لا سلطان لأحد عليه بعد وفاة
نور الدين محمود . وقد أشار القاضي كمال الدين الشهرزورى
على الأمير ابن المقدم وعلى بقية الأمراء بالرجوع الى رأى
صلاح الدين فى مصر لحل مشاكلهم والانتقياد له ؛ وقال لهم
« المصلحة أن يشاور (صلاح الدين) فى الذى تفعله ولا تخرجه
من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا ؛ وهو أقوى
منا لا تفراده بملك ديار مصر » . ولكنهم أبوا أن يأخذوا بهذا
الرأى وخافوا تدخل صلاح الدين . والواقع انه كان من الممكن
أن يتدخل صلاح الدين فى شئون الشام عقب وفاة نور الدين
مباشرة ، لولا وصول الأسطول النورمانى الى الاسكندرية
— كما سبق أن أشرنا — مما أخره بعض الوقت ؛ فاكفى بأن
أرسل الى دمشق معلنا حقه فى الوصاية على الصالح اسماعيل
وأملك نور الدين ، وقال انه « لو لم يعجل عليه (نور الدين)
الموت ؛ لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته
سواى » (١) .

وقد حاول عمورى الأول ملك بيت المقدس أن يستغل تلك
الظروف التى أضحت فيها دولة نور الدين ليستولى على

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٦٣ .

بانياس ، ولكن المدينة صمدت لحصاره أسبوعين ، في الوقت الذي خرج الأمير ابن المقدم على رأس الجيش الدمشقي للدفاع عنها . على أن ابن المقدم رفض أن يحارب الصليبيين « وراسلهم ولاطفهم » ؛ واكتفى بأن عرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال واطلاق سراح أسرى الصليبيين في دمشق ، ثم محاولة الصليبيين ضد صلاح الدين وأطماعه . ولم ينس ابن المقدم في عرضه هذا أن يلوح للصليبيين بأنه سيضطر الى الاستعانة بسيف الدين في الموصل وصلاح الدين في مصر ان لم يتركوا حصار بانياس ، مما يعرضهم للخطر من كل ناحية . كذلك لفت ابن المقدم نظر الصليبيين الى أن صلاح الدين كان يخشى المجيء الى الشام خوفا من الاصطدام مع نور الدين ، ولكن « الآن زال ذلك الخوف ، واذا طالبناه الى بلادكم لا يمتنع » ويبدو أن هذا الانذار كان له أثره في نفوس الصليبيين ، فوافق عمورى على عقد الصلح ورفع الحصار عن بانياس ، وارتد عائدا الى بيت المقدس . ويروى أبو شامة أنه عندما علم صلاح الدين بسلوك ابن المقدم استاء « واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم » . ثم ان صلاح الدين أدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين انما موجهان ضده ، فأرسل الى الملك الصالح اسماعيل وأمراء بلاطه « يقبح لهم ما فعلوه » (١) . وهكذا أدى تفكك دولة نور الدين الى اتاحة الفرصة لعمورى ليستغل دمشق في ضرب بقية القوى الاسلامية في الشرق الأدنى . على أن

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٨ .

عمورى لم يستطع المضى فى تلك السياسة بسبب وفاته فى يوليو سنة ١١٧٤ ، مما أضاع على الصليبيين فرصة طيبة لاستغلال الانقسامات التى حدثت بين أمراء الدولة النورية عقب وفاة نور الدين .

وقد زاد من حدة هذه الانقسامات أنها لم تقتصر على ما كان هناك من أطماع سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل ، أو ما نشأ من تنافس بين ابن المقدم فى دمشق وابن الداية فى حلب ؛ بل ظهر أيضا طرف جديد فى النزاع هو سعد الدين كمشتكين الخادم ، وهو أحد أمراء نور الدين . وقد نجح هذا الأمير فى نقل الملك الصالح اسماعيل من دمشق الى حلب بوصفها القاعدة الرئيسية للدولة (صيف ١١٧٤) . ثم قبض سعد الدين كمشتكين على شمس الدين ابن الداية واعتقله واثرد هو « بأتابكيه الملك الصالح اسماعيل واستبد بتدبير أموره » .

ولا شك فى أن ذلك الموقف الجديد أثار مخاوف ابن المقدم وبقية الأمراء فى دمشق ، فاستنجدوا بسيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل ، وعرضوا عليه تسليمه دمشق . وشاعت الأقذار أن يتراخى سيف الدين فى تلبية تلك الاستغاثة ، مما جعل ابن المقدم وشركاه يتخذون خطوة ذات أثر حاسم فى تاريخ الحروب الصليبية وفى تاريخ الشرق الأدنى فى ذلك العصر ، فدعوا صلاح الدين نفسه ليتسلم دمشق (١) .

(١) ابن الأثير : ١ : لكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

ملك مصر والشام :

ولن تكن تلك الدعوة في حد ذاتها غريبة على صلاح الدين أو مفاجئة له ، وهو الرجل الذي أخذ يعد نفسه منذ وفاة سيده نور الدين للقيام بالوصاية على دولته وسياسته ، وحجته في ذلك أن « الملك الصالح صبي لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك » . وقد أرسل صلاح الدين — عندما علم باختلال الأمور في الدولة النورية — الى أمراء نور الدين بالشام يقول لهم « لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته بى ، لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته . وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دونى ؛ وسوف أصل الى خدمته وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده !! » .

وكان أن خرج صلاح الدين الى الشام على رأس سبعمائة فارس ، بعد أن استخلف على ديار مصر أخاه الملك العادل ؛ فوصل دمشق فى أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤ دون أن يصطدم — لحسن حظه — بالصليبيين أثناء الطريق . وهنا تؤكد أن خروج صلاح الدين الى الشام سنة ١١٧٤ لم يكن لمجرد الرغبة فى تحقيق أطماع ومكاسب شخصية ؛ وإنما ظهر الاتجاه واضحاً فى سياسته الخاصة بتحقيق الوحدة الاسلامية والقضاء على عوامل الفرقة التى ظهرت فى الدولة النورية ، بقصد مواجهة الصليبيين صفا واحدا متراسا . وتدل على ذلك التصريحات التى صرح بها صلاح الدين عند خروجه الى الشام ، اذ قال ما نصه « لو استمرت

ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمع الكفار في البلاد » . كذلك قال « انا لا تؤثر للاسلام وأهله الا ما جمع شملهم وألف كلمتهم » (١) .

ومهما يكن من أمر ، فان صلاح الدين استقبل في دمشق استقبالا طيبا ، وقضى ليلة وصوله في دار أيه ، المعروفة بدار العقيقى . وفي الصباح التالى فتح له ابن المقدم أبواب قلعة المدينة وسلمها اياه . ولكن يلاحظ أنه اذا كان صلاح الدين قد استولى على دمشق « من غير مدافع » ، واذا كان الدماشقة قد رحبوا بصلاح الدين كرها في الحلبيين ونكاية فيهم ، الا أن صلاح الدين ظل في ذلك الدور متظاهرا بولائه للصلاح اسماعيل بن نور الدين ، وقال « أنا مملوك الصالح ، وما جئت الا لأنصره وأخدمه وأعد البلاد التى أخذت منه اليه . وكان يخطب له في بلاده كلها .. والخطبة والسكة (النقود) باسمه » (٢) كذلك أعلن صلاح الدين أنه ما حضر الى الشام الا لحماية الصالح من خطر الصليبيين ، ولاسترداد أملاك الصالح التى استولى عليها أتابك الموصل في الجزيرة . وتحت هذا الستار — ستار رد حقوق الصالح اسماعيل والدفاع عنه « وتربيته وتدير دولته » — أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته في إعادة الجبهة الاسلامية الى سابق عهدها ، بحيث تمتد من شمال العراق الى الشام فمصر ، ليتمكن بعد ذلك من توجيه حركة الجهاد ضد الصليبيين ، والمسلمون أشد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٨ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

ما يكونون وحدة وتماسكا . ثم ان صلاح الدين استمال الدماشقة بتوزيع الأموال والهبات « فأنفق في الناس مالا جزيلا ، وأمر فتودى باطابة النفوس وازالة المكوس ، وابطال ما أحدث بعد نور الدين من القبائح والمنكرات والضرائب » (١) . وبعد أن عين صلاح الدين أخاه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب حاكما على دمشق باسم الصالح اسماعيل ، اتجه ليعاقب كمشتكين في حلب .

وقد بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على مدينة حمص في ١٠ ديسمبر سنة ١١٧٤ من حكمها النوريين ، ثم على مدينة حماه في ٢٨ من ذلك الشهر ؛ وبذلك لم ينته شهر ديسمبر الا وكان صلاح الدين واقفا على مشارف حلب نفسها . ولكن حلب قاومت ورفضت الاستسلام لصلاح الدين ؛ وفي الوقت نفسه لم يتردد أصحاب السلطان فيها في الاستعانة بالباطنية والصلبيين . ولم يلبث سنان — مقدم الاسماعيلية الباطنية — أن أرسل الى معسكر صلاح الدين جماعة من الفدائيين لقتله . وعندما اقترب أولئك الفداوية من صلاح الدين وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم ، انكشف أمرهم . وعندئذ أرسل الحلبيون الى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي يطلبون منه المساعدة ويعدونه بثمن مغر اذا هو نجح في تخليص حلب من حصار صلاح الدين . ويذكر ابن الأثير أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس الصليبي أن

(١) المقریزی : السلوك ؛ ج ١ ص ٥٨ .

يهاجم بعض المراكز التي بيد صلاح الدين حتى يضطروه الى رفع
الحصار عن حلب (١) .

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس — والوصى أيضا على
عرش مملكة بيت المقدس — يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين
مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة اسلامية تجمع بين القاهرة
ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث الى نجدة حلب ،
وتظاهر بالقيام بدور حامى الصالح اسماعيل بن نور الدين .
ويقول المؤرخ الصليبي وليم الصورى ان ريموند الثالث قام
بذلك الدور عندئذ لا حبا للصالح اسماعيل ولا خدمة لحلب
وأهلها ، وانما نكاية في صلاح الدين ولكى يسد طريق الوحدة
في وجهه . وبعبارة أخرى فان الصليبيين أدركوا أن استقلال حلب
وبقاءها في قبضة البيت الزنكى ، هو الضمان الوحيد لمنع قيام
وحدة اسلامية ، تمتد من النيل الى الفرات . ويروى صاحب
كتاب الروضتين أن ريموند الثالث حاول الالتجاء الى الوسائل
السياسية ومفاوضة صلاح الدين حول مسألة حلب ، فأرسل
اليه يرغبه في الصلح ، ويلوح له بأن « الفرنج قد تعاضدوا
وصاروا يدا واحدة » . ولكن صلاح الدين لم يخش التهديد
ورد قائلا « لست ممن يهرب بتأليب الفرنج » . ثم رد صلاح الدين

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢٤٠
ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٧٠ هـ .

على الأمير الصليبي ردا عمليا بأن أرسل قواته للاغارة على امارة أنطاكية الصليبية « فغنموا غنيمة حسنة وعادوا » (١) .

لذلك لم يجد ريموند وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص التي كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أمد قريب . وفعلا نجحت الخطة ، فاضطر صلاح الدين في أوائل فبراير سنة ١١٧٥ الى ترك حلب والاسراع لنجدة حمص ؛ وفي الحال انصرف ريموند الثالث الى حصن الأكراد بعد أن حقق غرضه . وقد عبر صلاح الدين عن ذلك الموقف في خطاب له أرسله الى أخيه العادل ، وجاء فيه ان الحلبيين « قد استنجدوا بصلبانهم واستصلوا على الاسلام بعدوانهم » . أما كمشتكين حاكم حلب فقد عبر عن اعترافه بالجميل للصليبيين باطلاق سراح من كان في قلعة حلب من أسرى الصليبيين وعلى رأسهم الفارس رينو دي شاتيون (أرناط) صاحب الدور الشهير مع صلاح الدين .

على أنه ثمة أهمية خاصة لهجوم صلاح الدين على حلب ، هي أن الزنكيين أدركوا أخيرا خطر صلاح الدين على كياناتهم ، وضرورة اتحادهم لمواجهة ذلك الخطر المشترك . لذلك أرسل سيف الدين غازي الثاني — أتابك الموصل — جيشا الى الشام في ربيع سنة ١١٧٥ بقيادة أخيه عز الدين . وبعد أن انضم الجيش الحلبي الى ذلك الجيش زحف الجميع على حماه ، وعندئذ عرض صلاح الدين على الزنكيين أن يترك لهم حمص وحماه

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ٢٣٩ .

على أن يقنع هو بدمشق « نائبا عن الملك الصالح منتبيا
اليه » (١) .

ولكن الزنكيين كانوا يأملون في استرداد دمشق عقب عودة
صلاح الدين الى مصر ، فرفضوا ذلك العرض . وهكذا دارت
معركة بين الجانبين عند قرون حماء في أواخر ابريل سنة ١١٧٥
انتهت بانتصار صلاح الدين « وغنم كل ما معهم » ولم يضع
صلاح الدين ثمرة انتصاره ، وانما زحف مباشرة على حلب حيث
قطع الخطبة للصالح اسماعيل وأزال اسمه عن السكة ، فبعث
أهل الصالح يلتمسون منه الصلح ، فأجابهم الى ذلك . أما شروط
الصلح فقد قضت بأن « يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم
ما بأيديهم منها » ؛ ثم استزاد صلاح الدين منهم المعرة وكفر
طاب ، كما استولى على بعرين بعد ذلك . ولم يلبث أن ساعد
الاتتصار الذي أحرزه صلاح الدين في قرون حماء على كشف
النقاب عن حقيقة موقفه ، فلم يكتف بقطع الخطبة للصالح
اسماعيل وازالة اسمه عن السكة ، وانما تلقب صلاح الدين
أيضا بلقب مصر والشام . وهنا نلاحظ أن صلاح الدين لم يتخذ
مطلقا في حياته لقب « سلطان » ، هذا وان كان بعض المؤرخين مثل
ابن شداد وابن واصل قد حرصوا على اضافة هذا اللقب عليه (٢) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٢

(٢) انظر :

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢

ص ٧٤٦ .

ومهما يكن من أمر ، فإن وضع صلاح الدين ازداد رسوخا بعد أن أقر الخليفة العباسي في بغداد ذلك الوضع الجديد ، وأرسل إليه الخلع فرصته في شهر مايو وهو بحماه .

* * *

صلاح الدين بين ثلاث قوى :

على أنه إذا كان الصالح اسماعيل قد قبل — بحكم صغر سنه — سياسة الأمر الواقع ؛ فإن ابن عمه سيف الدين غازي ابن مودود — أتابك الموصل — لم يستطع السكوت عما فعله صلاح الدين . لذلك أرسل غازي الى الحلبيين يعتب عليهم « ووبخهم ونسبهم الى العجلة في ذلك (الصلح مع صلاح الدين) والى الضعف » ؛ كما حرضهم على نقض الصلح ومحاربة صلاح الدين . كذلك أرسل غازي سفارة الى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصي على مملكة بيت المقدس ، يطلب محالفته ومساعدته في الخطوة التالية التي سيقوم بها الزنكيون ضد صلاح الدين . ولكي يثبت سيف الدين غازي حسن نواياه أرسل الى ريموند جميع من لديه من أسرى الصليبيين (مايو ١١٧٥) ، وبذلك عادت سياسة أنر الخاصة بالتحالف مع الصليبيين — الى الظهور ، مما هدد الجبهة الاسلامية تهديدا خطيرا .

والواقع ان الصليبيين لم يكفوا من جانبهم عن مهاجمة صلاح الدين في ذلك الدور ، وان كانت هجماتهم ضعيفة الأثر

محدودة النطاق بسبب اضطراب أحوالهم الداخلية . من ذلك ما قام به بلدوين الرابع — ملك بيت المقدس الصغير — من غزو اقليم دمشق سنة ١١٧٥ ، مستغلا فرصة انشغال صلاح الدين في شمال الشام . ومع ذلك فقد تذرع صلاح الدين بالصبر تجاه الصليبيين ، وجدد في أغسطس سنة ١١٧٥ الهدنة التي عقدها مع مملكة بيت المقدس ، وذلك حتى لا يحارب في جبهتين في وقت واحد ، الزنكيين في الشمال والشرق والصليبيين في الجنوب والغرب .

وفي تلك الأثناء كان الزنكيون قد استعدوا وحشدوا كل قواهم للقيام بمحاولة أخيرة لطرد صلاح الدين من دمشق . ولم يلبث سيف الدين غازي أن جمع في ربيع سنة ١١٧٦ أمراء الجزيرة وديار بكر ، ثم انضم اليهم كمشتكين على رأس القوات الحلبية ، وزحف الجميع على دمشق . ومع أن الأخبار بلغت صلاح الدين أن الحلبيين والمواصلة وحلفاءهم يبلغون عشرين ألف فارس ، إلا أن صلاح الدين لم ييأس واستدعى في الحال عسكره من مصر ؛ ثم تمكن من انزال هزيمة ساحقة بالحلفاء عند تل السلطان — على الطريق بين حلب وحماه — في أواخر أبريل سنة ١١٧٦ (١) . وفي تلك الموقعة هلك من الحلبيين والمواصلة جماعة كثيرة ؛ واستولى صلاح الدين على « أموال وذخائر وفرش وأطعمة وتحف تجل عن الوصف » . ثم أتبع صلاح الدين

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٥ — ٨٦ .

ذلك النصر بقطع طريق المواصلات بين حلب والموصل ، فاستولى على قلعتى بزاعه ومنبج الى الشمال الشرقى من حلب . ولكى يحكم صلاح الدين حصاره حول حلب استولى أيضا على قلعة عزاز فى يونية سنة ١١٧٦ ، ثم شرع فى حصار حلب مرة أخرى . على أن صلاح الدين لم يلبث أن قبل الصلح أمام عناد حلب واصرار أهلها على عدم التسليم له . وتروى المراجع أنه عقب عقد الصلح ، جاءت أخت الصالح اسماعيل — وهى طفلة — لتزور صلاح الدين فى معسكره ، فتلطف معها وسألها عن الهدية التى تطلبها فأجابته « قلعة عزاز » ؛ وعندئذ رد صلاح الدين القلعة فوراً لأخيها الصالح اسماعيل بن نور الدين .

أما الباطنية فلم يكونوا أقل من الصليبيين ذعرا لوحدة بلاد الشام ، وأخذوا يحاولون المرة تلو المرة قتل صلاح الدين . وإذا كانت محاولتهم الأولى فى هذا الصدد قد باءت بالفشل ، فإنهم لم يلبثوا أن أعادوا الكرة فى صيف سنة ١١٧٦ ، إذ تسلل أحد الفدائيين من الحشيشية الى معسكر صلاح الدين أثناء حصاره عزاز ، وطعنه بسكين فى رأسه فجرحه ؛ ولكن شاء حسن الحظ أن تكون الطعنات غير قاتلة ، وقتل الفدائى وزميله . وكان لابد لصلاح الدين من أن يثار لنفسه من تلك الطائفة الهدامة ، فلم يكده يفرغ من عقد الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار مصياف « بلد الباطنية ، ليقابلهم على ما فعلوه من الوثوب عليه » . وكان أن نصب صلاح الدين المجانيق على حصن

مصياف (مصياب) « وأوسعهم قتلا وأسرا ، وساق أبقارهم
وخرب ديارهم » ؛ حتى شفع فيهم صاحب حماه وهو شهاب
الدين محمود الحارمي ، خال صلاح الدين . وقد فسر ابن واصل
هذه الشفاعة في ضوء رباط الجيرة بين شهاب الدين والباطنية ،
في حين يروي ابن الأثير أن راشد الدين سنان مقدم الباطنية
أرسل الى شهاب الدين الحارمي يطلب منه أن يشفع فيهم ، ويقول
له « ان لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين ! » . ويبدو
أن هذه الرسالة أثارت الرعب في قلب شهاب الدين ، الذي أسرع
الى صلاح الدين وأقنعه برفع الحصار عن حصن مصياف (١) .

وفي تلك الأثناء لم يتقاعس الصليبيون عن مهاجمة
صلاح الدين . فعندما شرع صلاح الدين في حصار حلب عقب
انتصاره على الزنكيين في موقعة تل السلطان في صيف
سنة ١١٧٦ ، قام بلدوين الرابع — رغم صغر سنه ومرضه —
بمحاولة لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب ؛ فأغار
— بالاشتراك مع ريموند الثالث — على اقليم البقاع . وقد خرج
شمس الدولة توران شاه — أخو صلاح الدين ونائبه في
دمشق — لرد الصليبيين عن بعلبك ، فأوقع بهم الهزيمة عند
عين الجر . ولم يلبث أن ارتد الصليبيون بعد ذلك بسرعة عندما
علموا باقتراب صلاح الدين . على أن صلاح الدين لم يشأ

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٤٧
ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

أن يتعقبهم ، واثما فضل العودة الى مصر ، تاركا أخاه توران شاه في دمشق ، فوصل القاهرة في نهاية ديسمبر سنة ١١٧٦ .

وجدير بالذكر أنه قبل أن يعود صلاح الدين الى مصر في تلك السنة ، لجأ الى الزواج من عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر وأرملة نور الدين محمود . وقد أشارت المراجع الى أن صلاح الدين اتخذ هذه الخطوة « حفظا لحرمتها وصيانتها وعصمتها » (١) . غير أننا نرى أن صلاح الدين انما قصد من الزواج من أرملة سيده نور الدين أن يمكن لنفسه ، حتى يظهر في صورة وريث نور الدين محمود من ناحية ، وليقوى الرابطة بين شخصه وبيت نور الدين من ناحية أخرى ، مما يدعم مركزه ويمكنه من تحقيق مشاريعه في المستقبل . ولم يكن صلاح الدين مبتدعا في ذلك الزواج السياسي ، اذ سبق أن تزوج عماد الدين زنكي من صفوة الملك زمرد خاتون أرملة بوري أتابك دمشق سنة ١١٣٨ ، لأنه « ظن أنه يملك البلاد بالاتصال بها » (٢) .

وخلاصة القول ، ان صلاح الدين أخذ في ذلك الدور يبذل كل ما في وسعه لمقاومة الزنكيين والباطنية والصليبيين ، وهي القوى الثلاث التي تحالفت ضده لتحول دون تحقيق الوحدة الإسلامية بين العراق والشام ومصر ، مما يهدد الحلفاء الثلاثة جميعا .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٣ - ٢٦٤
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٧٥٠ .

صلاح الدين في مصر :

عاد صلاح الدين الى القاهرة في أواخر سنة ١١٧٦ ليقتضى في مصر بضعة أشهر قبل أن يعود الى الشام لمواجهة أخطار الصليبيين من ناحية واستئناف بناء الجبهة الاسلامية من ناحية أخرى . وتدل أعمال صلاح الدين في ذلك الدور على أنه كان يتوقع خطرا جسيما ، مما جعله يمعن في اتخاذ الاجراءات الدفاعية لحماية مصر والقاهرة مما يهددهما من أخطار . وقد فسر بعض الكتاب اهتمام صلاح الدين بتحصين القاهرة بوجه خاص ومصر بوجه عام في ذلك الدور في ضوء تخوف صلاح الدين من ثورة جديدة يقوم بها أتباع الفاطميين وشيعتهم في مصر . ولكن يبدو لنا أن هذا الرأي بعيد عن الحقيقة ، وأن الرأي الأصح والأسلم هو أن صلاح الدين كان يتوقع خطرا خارجيا على مصر من جانب الصليبيين على وجه الخصوص .

والواقع ان صلاح الدين لم يكن مبالغا في مخاوفه وظنونه ، لأن أنباء انتصارات صلاح الدين في الشام في الميدانين الاسلامي والصليبي ، وأخبار جهوده في توحيد الجبهة الاسلامية وربط مصر والشام برباط قوى متين ؛ هذه الأخبار كلها أثارت مخاوف الصليبيين في الشرق ودعاة الحروب الصليبية في الغرب . وكان ان قدمت الى الشام سنة ١١٧٧ حملة صليبية صغيرة على رأسها نيلب الألزاسي كونت فلاندرز ، كما أرسل الامبراطور البيزنطي سفارة الى بيت المقدس تعرض على ملكها بلدوين الرابع احياء فكرة القيام بحملة صليبية مشتركة لغزو مصر . ولكن يكسب

الامبراطور البيزنطى ماثوئل كومنن عرضه صفة جدية ، أرسل الى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعدادا لغزو مصر .

ومهما يقال من أن الحملة الصليبية الفلمنكية باءت بالفشل وأن مشروع الحملة الصليبية البيزنطية على مصر سنة ١١٧٧ انتهى الى لا شيء ، فإن الحقيقة التى تهمنا هى أن أخبار تلك المشاريع الصليبية ضد مصر كانت تصل من قريب أو بعيد الى صلاح الدين الذى أحس بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقه ، وبأنه مطالب باتخاذ الاجراءات الوقائية للدفاع عن مصر عند تعرضها للخطر الصليبي المنتظر . وهذا هو السر فى سلسلة التحصينات التى نهض بها صلاح الدين فى ذلك الدور والتى تعبر عن مخاوفه من ناحية وعبقريته الحربية من ناحية أخرى .

ومن ناحية أخرى فانه لا يخفى علينا أن صلاح الدين كان يصدد القيام بعملية جهاد واسعة ضد الصليبيين بالشام ، وكان عندما عاد الى مصر فى أواخر سنة ١١٧٦ يعلم تماما أن المعركة المقبلة بينه وبين الصليبيين بالشام قد تطول ويطول معها بقاؤه بأرض الشام . فكيف يكون الحال لو تعرضت مصر فى تلك الأثناء لخطر حملة صليبية تأتى من غرب أوروبا أو من القسطنطينية ؟ اذا لابد من أن يطمئن صلاح الدين على مصير مصر قبل أن يلقى بكل قواه فى معركة الجهاد ضد الصليبيين بالشام ، ولا أقل من أن يقوم بعمل بعض التحصينات فى مصر من نوع تلك التحصينات

التي شاهد صلاح الدين نماذج طيبة منها بالشام . ذلك أن صلاح الدين لا بد وأن استرعت اقتباهه أثناء عملياته الحربية بالشام ضد القوى الإسلامية والمسيحية سواء ، أنه كل مدينة وبلدة لها قلعتها المحكمة القوية التحصين ، التي تصمد في وجه الأعداء فيكون صمودها سببا لا تقاذا المدينة أو البلدة من السقوط . وكان السؤال الطبيعي الذي لا بد وأن راود تفكير صلاح الدين هو : ألا تستحق القاهرة وهي عاصمة البلاد المصرية ، أن تكون لها قلعة تصبح مركزا للدفاع عن البلاد والعباد ؟

وكان أن شرع صلاح الدين فورا في بناء قلعة حصينة على جبل المقطم ، وهي القلعة التي عرفت باسم قلعة الجبل . وتتضح عبقرية صلاح الدين في اختيار المكان الاستراتيجي الممتاز لتلك القلعة ، فهي تقع على أبرز صخور جبل المقطم عند القاهرة بحيث تهيمن على القاهرة هيمنة كاملة وتشرف عليها اشرافا تاما ، مما يمكنها من صد أي عدوان داخلي أو خارجي يقع عليها . وقد وضع صلاح الدين تصميم القلعة بحيث يكون البئر الخاص بها داخل أسوارها ليضمن لمن بداخل القلعة موردا ثابتا من المياه في حالة تعرضها لحصار طويل ، ووصف ابن عبد الظاهر هذه البئر بأنها « من عجائب الأبنية تدور بالبقر من أعلاها فتقل الماء من نقالة في وسطها ، وتدور أبقار في وسطها تنقل الماء من أسفلها ، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها في مجاز ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء ، وقيل إن أرضها مسامته أرض

بركة الفيل وماؤها عذب » (١) ثم ان صلاح الدين أحاط قلعته بخندق عميق ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير القلعة والخندق عندما زار مصر سنة ١١٨٣ فوصف القلعة بأنها « حصن حصين المنعة » ووصف الخندق بأنه « ينقر بالمعاول تقرا في الصخر ، عجبا من العجائب الباقية الآثار » وقال ان المستخرين في تلك الأعمال انما هم من أسارى الروم ، وربما قصد بالروم الصليبيين (٢) .

ولم يكتف صلاح الدين بذلك ، وانما شرع في بناء سور ضخيم حول القاهرة ومصر ، واستعمل في بنائه الحجر الجيري المأخوذ من الأهرام ، و قيل ان بهاء الدين قراقوش الذى وكل اليه الاشراف على بناء القلعة والسور هدم بعض الأهرام الصغيرة في منطقة الجيزة لاستغلال أحجارها في تنفيذ مشاريعه ، ولكن يغلب على الظن أنه جمع الأحجار المتساقطة في منطقة الأهرام واستغلها في بناء السور . وقد استمر بهاء الدين قراقوش في تلك الأعمال التحصينية حتى أتمها بعد سنوات طويلة ؛ وكان آخر ما قام به بناء حائط كبير خارج القاهرة على طريق الاسكندرية الصحراوى ، بقصد حماية العاصمة من أى هجوم صليبي يأتى عن طريق الاسكندرية . على أن بهاء الدين قراقوش راعى في تصميم هذا الحائط أن يضم نحو من أربعين قنطرة ،

(١) عن قلعة الجبل بالتفصيل انظر : -

نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ص ٨٦ وما بعدها .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠ .

مما أتاح فرصة لاستغلال الماء المحجوز أمام الحائط في رى أراضى
الجزيرة . هذا وان كان الرحالة ابن جبير يقول انه صلاح الدين
بنى الحائط والقناطر « اعدادا لحادثة تطراً من عدو يدهم جهة
نهر (الاسكندرية) عند فيض النيل وانغمار الأرض به ، وامتناع
سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا في كل وقت ان احتيج
الى ذلك » (١) .

ومما يؤيد تخوف صلاح الدين في ذلك الدور من تعرض
مصر لهجوم صليبي من ناحية البحر أنه غادر القاهرة في شعبان
سنة ٥٧٢ هـ (فبراير ١١٧٧) لتفقد تحصينات دمياط
والاسكندرية . وقد قصد صلاح الدين دمياط أولا حيث قضى
يومين استعرض خلالها ما جلبه أسطوله من غنائم الشام ؛ ثم
واصل سيره بعد ذلك قاصدا الاسكندرية . وهناك في الاسكندرية
صام صلاح الدين بعض أيام رمضان وتفقد الأسطول وأمر
باصلاح سفنه المتأكلة وخصص لذلك كل ما يلزم من أخشاب
وحدايد وموّن ، فضلا عن الرجال والمقاتلين .

* * *

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس :

ولكن يبدو أن صلاح الدين أدرك في ذلك الوقت فشل
المشروع الصليبي للهجوم على مصر ، فأثر أن يتجه هو الى الشام
ليهاجم مملكة بيت المقدس في الوقت الذي كان جيش تلك

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢ .

المملكة موجودا في شمال الشام ليشارك فيلب الألباني في هجماته الفاشلة على حماه وحارم .

وكانت حركة صلاح الدين خاطفة سريعة ، ليكسب الوقت قبل عودة الجيوش الصليبية من الشمال ، فعادر العرش لينقض في أواخر نوفمبر سنة ١١٧٧ على المراكز الصليبية على شاطئ فلسطين الجنوبي مثل الداروم وغزة . ولما وجد أن الداوية في غزة استعدوا لهجومه وحصنوا قلعتهم ، اتجه بسرعة نحو عسقلان . ولم يلبث أن تخرج موقف مملكة بيت المقدس الصليبية بشكل واضح ، إذ لم يكن فيها عندئذ إلا خمسمائة فارس . ومع ذلك ، فقد أظهر ملكها بلدوين الرابع همة كبيرة — رغم ظروفه الخاصة والعامة — ، فخرج إلى عسقلان ومعه ما أمكنه جمعه من القادرين على حمل السلاح ، فضلا عن رجال الدين يحملون صليب الصليبوت . ولكن بلدوين الرابع ارتكب غلطة كبرى عندما تسرع في دخول عسقلان ، لأن صلاح الدين حصره هو وقواته داخل أسوار المدينة ، ومن ثم أصبحت بقية مملكة بيت المقدس الصليبية دون ملك أو جيش . وهكذا أخذت جيوش صلاح الدين تغير على المدن والمعقل الصليبية القريبة « ولما رأوا أن الفرنج خامدون انبسطوا واسترسلوا وتوسط السلطان البلاد » ، فأحرق المسلمون الرملة وهاجموا اللد ، حتى وصل الجيش الأيوبي إلى الجهات الواقعة بين أرسوف ونابلس (١) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٥٩
ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٥٩ هـ

وفي الوقت الذي شغل المسلمون بالغنائم « وانبطوا
وساحوا في الأرض آمنين مطمئنين » استطاع بلدوين الرابع أن
يشق طريقه الى خارج عسقلان بعد أن تأكد من ابتعاد
صلاح الدين . وسرعان ما اجتمعت حول ملك بيت المقدس
فلول الصليبيين وحاميات المدن الصليبية القريبة ، وباغتوا قوات
صلاح الدين . ولم تلبث أن حلت الهزيمة بالمسلمين عند تل
الصابية ، واستطاع صلاح الدين نفسه النجاة بصعوبة وعاد
الى مصر في حالة سيئة ، فوصل القاهرة في ٨ ديسمبر سنة ١١٧٧
« وحلف لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج » (١) . أما بلدوين
الرابع ملك بيت المقدس ، فانه بعد أن وزع الغنائم على رجاله
قام بمطاردة بقايا القوات الاسلامية حتى عسقلان ، ثم قفل راجعا
الى بيت المقدس حيث استقبل استقبال الأبطال .

ولا شك في أن انتصار الصليبيين في موقعة تل الصافية دعم
مركزهم وأعاد الثقة الى نفوسهم ، فأخذوا يهاجمون المسلمين
في شمال الشام ، ويدعمون مراكزهم في جنوبه . من ذلك ما يرويهِ
ابن الأثير من هجوم الصليبيين على اقليم حماه ثم على منطقة
شيزر في صيف سنة ١١٧٨ ، حيث « نهبوا وخربوا القرى
وأحرقوا وأسروا وقتلوا » . أما في الجنوب فقد شرع بلدوين
الرابع في تحصين مملكته ضد أى هجوم منتظر عن طريق دمشق ،
فشيّد قلعة جديدة قرب بانياس عند بيت يعقوب بمكان يعرف

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ٥٧٣ .

بمخاضة الأحزان ، وهى القلعة التى صار اسمها فى نهاية القرن الثالث عشر حصن جسر بنات يعقوب ^(١) ، والتى تمتعت بأهمية كبرى لوقوعها على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى . وقد بدأ فى تشييد ذلك الحصن فى أكتوبر سنة ١١٧٨ ، ووصف أبو شامة عرض حائطه بأنه زاد على عشر أذرع « وقطعت له عظام الحجارة كل قص منها من سبع أذرع الى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر » . وقد تخوف أمراء صلاح الدين من بناء ذلك الحصن وذكروا له أنه « متى أحكم ذلك الحصن تحكم من الثغر الاسلامى الوهن وغلق الرهن » ^(٢) .

ولكن صلاح الدين — الذى عاد الى الشام فى ربيع سنة ١١٧٨ — لم يحاول وقف بناء الحصن المذكور ، وقال « اذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه الى الأساس » . وربما شغل صلاح الدين عندئذ بحصار بعلبك التى أراد أخذها من ابن المقدم لاعطائها لأخيه توران شاه . وهكذا تمكن الصليبيون من تشييد حصن بيت الأحزان ، وعهد بلدوين الرابع الى فرسان الداوية بالدفاع عنه ، ليتخذونه مركزا « لقطع الطرقات على قوافل المسلمين » . وعندما أدرك صلاح الدين مدى الخطر الذى

(١) سمي ذلك الموضع عند بيت يعقوب باسم بيت الأحزان أو مخاضة الأحزان لاعتقاد الناس أن يعقوب اعتاد الانفراد فيه والبكاء على يوسف .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١ — ١٣ .

حاق بالمسلمين نتيجة لبناء ذلك الحصن ، طلب من الصليبيين هدمه ولكنهم طلبوا النفقات التي بذلوها في تشييده ؛ فعرض صلاح الدين عليهم ستين ألف دينار مقابل هدمه ، ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف دينار ، ولكنهم رفضوا ذلك .

ثم حدث أن اعتدى الصليبيون على بعض الدماشقة الذين خرجوا في أبريل سنة ١١٧٩ لرعى مواشيهم في المراعى القريبة من بانياس ، مما أدى إلى اشتباك بين الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع وهمفري صاحب حصن بانياس من ناحية ، والقوات الإسلامية بقيادة عز الدين فرخ شاه (فرخشاه) ابن أخى صلاح الدين من ناحية أخرى . وكان أن خرج صلاح الدين — الذى كان بدمشق عندئذ — لمساعدة ابن أخيه ، فدارت معركة انتصرت فيها قوات صلاح الدين ، ونجا الملك الصليبي بصعوبة بعد أن أصيب أصابات خطيرة ، فى حين أصيب الأمير همفري إصابة أدت إلى وفاته بعد عدة أيام فى حصن هوفين . ويقول ابن الأثير عن مقتل همفري هذا « وقتل من مقدميهم جماعة منهم هنفري ، وما أدراك ما هنفري ، به كان يضرب المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب ، وكان بلاء صبه الله على المسلمين فأراحهم الله من شره » (١) .

ولم يلبث صلاح الدين عقب ذلك النصر أن شرع مباشرة فى حصار حصن بيت الأحزان فى أواخر مايو سنة ١١٧٩ ، ثم

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٤ هـ .

انصرف عنه بعد قليل « وعاد بالغنائم والأسرى » . وقد اتخذ صلاح الدين معسكره عند تل القاضي غربى بانياس ، وعهد الى ابن أخيه تقي الدين عمر بمراقبة الصليبيين عند حماة خوفا من اعتداء بوهيموند الثالث أمير أنطاكية . كذلك عهد الى ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بالدفاع عن جبهة حمص ضد ريموند الثالث أمير طرابلس ، في حين أرسل صلاح الدين الى أخيه العادل في مصر يطلب منه ارسال المدد . وكان صلاح الدين « يركب كل يوم بحجة الصيد ويجرد العساكر وقبائل العرب الى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو » (١) .

وأخيرا وجد بلدوين الرابع أنه لابد من وضع حد لاغارات صلاح الدين ، فجمع قواته وخرج لمنازلته . وفي ١٠ يونية سنة ١١٧٩ دارت موقعة قرب تل القاضي في سهل مرج العيون بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والصليبيين بقيادة الملك بلدوين الرابع ، فانتصر صلاح الدين انتصارا حاسما ، وأسر كثيرا من أعيان الصليبيين ، ولم ينج الملك بلدوين نفسه الا بصعوبة . وكان في وسع صلاح الدين أن يتبع انتصاره في مرج العيون بمهاجمة طبرية وبيت المقدس ، كما فعل فيما بعد عقب انتصاره في حطين . ولكن يلاحظ أن ملك بيت المقدس نجا من الأسر في موقعة مرج العيون ، وما دام الملك طليقا في مملكته ، فإن عناصر المقاومة لن تلبث أن تتجمع حوله ، مما يجعل مهمة صلاح الدين

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٧٤ .

عسيرة . هذا في الوقت الذي وصلت الى مملكة بيت المقدس سنة ١١٧٩ مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج ، وعلى رأسهم هنري الثاني دى شامبني ، مما بث في الصليبيين بالشام عزيمة جديدة وأحیی روحهم المعنوية . لذلك اكتفى صلاح الدين عقب انتصاره بمهاجمة حصن الأحزان ، ونجح في فتحه في أواخر أغسطس سنة ١١٧٩ ، وذلك « بعد قتال وحصار ، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها ، وأسر نحو السبعمئة وضرب الحصن حتى سوى به الأرض » (١) . وروى أبو شامة أن صلاح الدين أشعل النيران في حطام حصن بيت الأحزان ، وأن الصليبيين في طبرية شاهدوا السنة اللهب والدخان المتصاعدة منه .

ولم يلبث أن أخذ صلاح الدين يتابع انتصاراته في سرعة مذهلة ؛ بحيث لم يستطع الصليبيون ملاحقته . ذلك أنه لم يكتف بعد تدميره حصن الأحزان بالاغارة على مناطق صور وصيدا وبيروت ؛ بل استطاع أسطوله أن يخرج من الموانئ المصرية في أكتوبر سنة ١١٧٩ ليهاجم عكا ذاتها ، وهي المدينة التي أطلق عليها أبو شامة اسم « قسطنطينة الفرنج » (٢) . ولم يسع الملك بلدوين الرابع ازاء الضربات القوية التي أخذ صلاح الدين يوجهها ضد الصليبيين سوى أن يطلب عقد الهدنة ، فوافق

(١) المقریزی : السلوك ؛ ج ١ ص ٦٧ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٤ .

صلاح الدين على ذلك في مايو سنة ١١٨٠ . على أنه يلاحظ أن هذه الهدنة عقدت بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وحدها ، مما جعل صلاح الدين في حل من مهاجمة الصليبيين في شمال الشام ، وبخاصة إمارة طرابلس . وفي الوقت نفسه عاد الأسطول المصري الى مياه الشام في يونيو سنة ١١٨٠ ، فهاجم أنطربوس وأنزل بها كثيرا من الخسائر ، مما اضطر ريموند الثالث أمير طرابلس الى عقد هدنة مشابهة مع صلاح الدين .

وبعد ذلك رأى صلاح الدين أن يوقف هجماته مؤقتا ضد الصليبيين ، ولا سيما بعدما أشيع من أخبار عن محاولات لتجديد التحالف بينهم وبين البيزنطيين . هذا بالإضافة الى أن صلاح الدين نفسه كان في حاجة الى فترة هدوء مع الصليبيين ليقوم بحملة ضد قلج أرسلان صاحب قونية وحملة أخرى ضد أرمينيا الصغرى . على أن المتأمل في تلك الحروب يستطيع أن يدرك في سهولة أن صلاح الدين لم يشأ أن يضع فيها كثيرا من الجهد ، وربما ادخر طاقته في ذلك الدور ليستغلها في توحيد القوى الإسلامية في شمال الشام والعراق . وهنا تبدو لنا حكمة صلاح الدين وبعد فطره ، اذ رأى أن الاستيلاء على حلب يجب أن يسبق أية محاولة للاستيلاء على بيت المقدس ، وأنه من الخطأ أن يعرض نفسه لهجوم الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب ، ولذلك أتاحت له الهدنة التي عقدها مع مملكة بيت المقدس وطرابلس فرصة طيبة لتحقيق سياسته تجاه حلب والموصل ، فضلا عن رعاية أمور مصر ، مع عدم اغفال جانب الصليبيين .

صلاح الدين وتحصين مصر : (١١٨١ - ١١٨٢) :

وبعد أن شغل صلاح الدين لفترة قصيرة بثئون الجزيرة وأرمينيا الصغرى ، عاد الى دمشق حيث سمع بوفاة أخيه تورانشاه بالاسكندرية ؛ فاستتاب ابن أخيه عز الدين فرخشاه على الشام ؛ وأسرع الى القاهرة حيث تلقاه الجيش والأمراء والأعيان في يناير سنة ١١٨١ . وكان صلاح الدين يعلم تماما أن مشاكل الوحدة الاسلامية من ناحية ومشاكل الجهاد من ناحية أخرى لن تمكنه من البقاء طويلا في مصر ؛ ولذلك حاول أن ينجز أكبر قدر من الأعمال خلال المدة القصيرة التي قضاها في مصر ، وكأنه في سباق مع الزمن .

ويبدو أن صلاح الدين عاد الى مصر في تلك المرة — في أوائل سنة ١١٨١ — وقد أحس بمكانته وأهمية مركزه ، فأخذ ينظم مراسيم الحكم وشعاراته حتى لقد وصفه المقرئى بأنه أخذ يستبد بالسلطنة ^(١) . من ذلك أن صلاح الدين رتب نوب الطبلخاناه بدار الوزارة التي أقام بها ، بحيث أصبحت في كل يوم ثلاث مرات . ومن ناحية أخرى فقد اهتم صلاح الدين بتقوية جبهته الداخلية عن طريق القضاء على الخونة — وبخاصة من العربان — الذين بلغه أنهم يتعاملون مع الصليبيين ويصدرون اليهم الغلال . ومن هؤلاء عربان الشرقية الذين أصدر صلاح الدين أوامره بالحوطة على ممتلكاتهم ، كما أصدر أمره بالحوطة على اقطاع جذام وثلعبه في شمال الدلتا .

(١) المقرئى : المواعظ ؛ ج ٣ ص ٣٧٩ .

وكان صلاح الدين في تلك الأثناء يباشر نشاطه الدبلوماسي على أوسع نطاق ويستعد للمستقبل القريب عن طريق عقد الاتفاقيات مع القوى العديدة في الشرق الأدنى التي يمكن أن تؤثر في مصائر معاركه المقبلة ضد خصومه بالشام . من ذلك أن صلاح الدين استقبل في خريف سنة ١١٨١ سفارة من قبل ألكسيوس الثاني كومنين امبراطور الدولة البيزنطية ، وانهت مهمة هذه السفارة بتوقيع صلح بين الطرفين أطلق البيزنطيون بمقتضاه مائة وثمانين أسيراً من المسلمين . وقد استطاع صلاح الدين بتلك المعاهدة أن يضمن عدم مساعدة الصليبيين اذا قام بهجوم ضدهم بالشام ، أو عدم اشتراك الأسطول البيزنطي مع الصليبيين بالشام في أى مشروع هجومي على مصر ، مثلما حدث من قبل . وفي الوقت نفسه لم يغب عن بال صلاح الدين وهو في مصر أن يكتب للخليفة العباسي في بغداد يسأله ولاية حلب ؛ وذلك ليكسب مشروعه المقبل بخصوص ضم حلب وتوحيد الجبهة الاسلامية صفة شرعية (١) .

على أنه من الواضح أن صلاح الدين كان يخشى في ذلك الدور هجوم جديد على مصر من جانب الصليبيين . وزاد من شكوك صلاح الدين ما سمعه من تحركات أرقاط صاحب حصن الكرك في البحر الأحمر ، وما قامت به السفن الصليبية عندئذ

(١) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٧٢ ، ٧٧ .

من عدوان مكشوف على شواطئ مصر الشمالية وأسرها بعض
سفن التجار المسلمين . لذلك أسرع صلاح الدين في استكمال
الانشاءات الدفاعية والتحصينات التي بدأها والتي سبق أن
أشرنا إليها . ولم يكد صلاح الدين يعلم أن السفن الصليبية
اعتدت على ميناء تنيس في صيف سنة ١١٨١ ، حتى انتدب أحد
رجالها لعمارة قلعتها وتجديد حصونها وآلاتها ، وقرر لتجديد
سورها القديم مبلغ ثلاثة آلاف دينار . أما دمياط فقد أمر
صلاح الدين بترميم سورها واصلاح ما تهدم منه وترتيب المقاتلة
على برجها واصلاح المآصر أو السلاسل الحديدية التي كانت
تسد مدخل النيل من ناحية دمياط . وقد بلغ سور دمياط بعد
ترميمه أربعة آلاف وستمئة وثلاثين ذراعا ، وصار عرضه من
السعة بحيث يمشى عليه خمسة من الخيل . ويذكر المقرئ
ان صلاح أثنى على تحصين دمياط ألف ألف دينار .

وكذلك كانت الاسكندرية موضع عناية صلاح الدين في ذلك
الدور ، فزارها للمرة الثالثة في فبراير سنة ١١٨٢ وسلك في
الوصول إليها طريق البحيرة ، حتى اذا ما وصلها خيم بظاهرها
عند عامود السوارى . وكان ذلك العامود قبيل مجيء
صلاح الدين محوطا بنحو أربعمئة عامود ، فأمر صلاح الدين
واليه قراجا بكسرهما ورميها في البحر لتسد الطريق في وجه
سفن العدو اذا حاول الاغارة على الاسكندرية . وقد زار الرحالة
ابن جبير الاسكندرية في العام التالي مباشرة ، فشهد بعناية

صلاح الدين بالثغر ، ووصف منار الاسكندرية وصفا جليلا .
وأشار ابن جبير كذلك الى ادارة الجمر ك بالاسكندرية فقال
ان المركب الذى كان به لم يكد يرسو بالميناء حتى « طلع أمنا »
على المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه .
فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا ، وكتبت
أسماءهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئلت كل واحد عما لديه
من سلع أو ناض (تقود) ، ليؤدى زكاة ذلك كله ، دون أن
يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل .. وأمر المسلمون
بإتذليل أسبابهم وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر
أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان .
فاستدعوا واحدا واحدا ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ،
والديوان قد غص بالزحام . فوقع التفتيش لجميع الأسباب
ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدي
الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها . ثم استحلفوا بعد
ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا .. « (١) .

وإذا كان صلاح الدين قد اهتم بتحسين البلاد المصرية على
ذلك النحو ، فإن اهتمامه كان أكبر بتنظيم جيشه وترتيب
أقطاعات الجند . وقد نقل المقرئ عن القاضي الفاضل في
متجددات شهر رجب سنة ٥٧٧ هـ (أواخر سنة ١١٨١) أن عدة

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٧ - ٨ .

جيش صلاح الدين استقرت على ثمانية آلاف وستمئة وأربعين فارساً ، وأمراء مائة أحد عشر ، وطواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين ، وقرى غلامية ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين ؛ وهؤلاء جميعاً خصص لهم من المال ثلاثة آلاف وستمئة وسبعون ألف وخمسمائة دينار . وهذا المبلغ الكبير يشهد على ضخامة ميزانية الجيش على أيام صلاح الدين ، وعلى أن صلاح الدين لم يضمن على قواته المسلحة بالمال في وقت كان الوطن الاسلامي في الشرق الأدنى أحوج ما يكون الى جهود أبنائه من المقاتلين .

* * *

صلاح الدين وأرناط :

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين في مصر يستعد سياسياً وحربياً للمعركة الفاصلة الكبرى بينه وبين الصليبيين ، كانت أحوال الصليبيين الداخلية تزداد سوءاً يوماً بعد آخر . ففي مملكة بيت المقدس تفاقم مرض الملك بلدوين الرابع وأخذ يتشكك في كل من حوله ، في الوقت الذي عجز هو عن تصريف أمور المملكة مما أدى الى تدهور أحوال تلك المملكة الصليبية تدهوراً سريعاً (١) . أما في شمال

(١) للوقوف على التفاصيل انظر : -

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ؛ ص ٧٦٥

وما بعدها .

الشام فان امارة انطاكية ، لم تكن أقل اضطرابا بسبب استسلام أميرها بوهيموند الثالث لشهواته وخلافه مع بطرق أنطاكية . وقد عاشر الأمير بوهيموند امرأة اسمها سيبيل عرفت بسوء السيرة والخلق ، ولم تحجم عن خيانة بوهيموند والصليبيين ، فيروي كل من ابن الأثير وأبو شامة أنها كانت تتصل بصلاح الدين سرا وتخبره بتحركات جيوش الصليبيين . فيقول ابن الأثير انها « كانت ترسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال التي يؤثر علمها » ؛ أما أبو شامة فيقول عبارة أكثر صراحة وتفصيلا ، نصها « وكانت امرأة ابرنس أنطاكية ، وتعرف بدم (مدام) سبيل في موالاة السلطان ، عينا له على العدو ، وتهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم » والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا !! » (١) .

وفي الوقت الذي تعرض الصليبيون في شمال الشام وبيت المقدس لتلك الأزمات ، اذا بهم يفقدون حليفا قويا في شخص الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين الذي توفي سنة ١١٨٠ . وكان مانويل كومنين قد حاول أن يقضى نهائيا على الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ ، ولكن السلطان قليج أرسلان الثاني أنزل به هزيمة ساحقة في تلك السنة ، فمات الامبراطور مانويل متأثرا بهزيمته بعد ذلك بأربع سنوات ،

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٤ هـ
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣١

وبموته خسر الصليبيون دعامة كبرى طالما اعتمدوا عليها كلما ألت بهم أزمة أو حاق بهم خطر . ولم يلبث الامبراطور ألكسيوس كومنين الثانى أن أرسل سفارة الى القاهرة سنة ١١٨١ — كما سبق أذا أشرنا — لعقد صلح بين الدولة البيزنطية وصلاح الدين .

وبينما بلدوين الرابع — ملك بيت المقدس المريض — يتأهب لتوديع الحياة ، اذا بزمام النشاط الصليبي ينتقل الى رينو دى شاتيون (ريجنالد) الذى عرفه العرب باسم أرناط . وكان أرناط هذا فارسا فرنسيا لا يختلف فى أصله عن كثير من الفرسان المغمورين الذين لفظهم الغرب الأوربي الى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، ولكن شاء حسن حظه أن تقع فى حبه الأميرة كونستانس الوصية على امارة انطاكية ، فتزوجته سنة ١١٥٣ ، وبذلك وصل أرناط الى مركز قيادى فى المجتمع الصليبي بشمال الشام ، مكنه من أن يقوم بدور بارز فى محاربة المسلمين وغير المسلمين من القوى المتباينة فى الشرق الأدنى . على أن تصرفات أرناط اتصفت دائما بالتهور والحماسة وعدم مراعاة العهود والجهل بأحكام السياسة وأصولها ، مما سبب متاعب لا حد لها للصليبيين بالشام ، فهو تارة يستثير عداء المسلمين فى وقت يحس الصليبيون أنفسهم أنهم أحوج ما يكونون الى مسالمة القوى الاسلامية المجاورة ، وتارة أخرى يعادى الأرمن فى مملكة أرمينيا الصغرى ، وتارة ثالثة يشن غارة على جزيرة قبرس التابعة

عندئذ للدولة البيزنطية فيستثير حنق الامبراطور البيزنطى
وغضبه .

ولم يلبث أرناط أن وقع فى أسر المسلمين سنة ١١٦٠ عندما
قام باغارة فاشلة على بعض الجهات فى اقليم الجزيرة لمجرد الرغبة
فى السلب والنهب . وقد ظل أرناط أسيرا فى قلعة حلب حوالى ستة
عشر سنة (١١٦٠—١١٧٧) دون أن يظهر ملك بيت المقدس أو حتى
أهل أنطاكية أنفسهم أسفا على أسره ، أو يقومون بمجرد محاولة
لاطلاق سراحه . وأخيرا أطلق سراح أرناط وخرج من الأسر
سنة ١١٧٧ ، وعندئذ أسرع الى الزواج من وريثة صاحب
الأردن . ويبدو أن أرناط لم يتزوج هذه الأميرة لشبابها
أو جمالها ، فقد كانت أرملًا سبق أن تزوجت من رجلين ثالثهما
أرناط نفسه ؛ وإنما تزوجها لاقطاعها اذ ورثت عن أبيها الأردن
وحصنى الكرك والشوبك (١) .

ويهمنا فى هذا الموضع أن نشير الى أن السنوات الطويلة
التي قضاها أرناط فى أسر المسلمين لم تغير من روحه ولم تقلل
من حدة تهوره ، فأراد عندما خرج من محبسه سنة ١١٧٧ وتولى
مقاليد الأردن ، أن يتبع سياسته القديمة تجاه جيرانه من المسلمين
والمسيحيين سواء . وهكذا نسي أرناط أن السنوات الطويلة التي
قضاها فى الأسر غيرت من أوضاع الفريقين ، ولم يدرك أنه دمشق

(١) سعد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٧٦٨
وما بعدها .

والقاهرة باتت توحد بينهما حكومة واحدة تخفق فوقها راية صلاح الدين ، في حين فترت حماسة الصليبيين وأخذت أوضاعهم في بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس تنحل انحلالا تدريجيا بطيئا ولكنه ملموسا .

وفي مثل تلك الأوضاع الجديدة ، كان تطبيق سياسة أرناط ذات الطابع الحماسي المتطرف ، من شأنه أن يسبب كارثة عامة للصليبيين ؛ لأن حصنى الكرك والشوبك — اللذين امتلكهما أرناط — كانا لا يتحكما في طريق حجاج المسلمين الى الحرمين فحسب ، بل أيضا في الطريق البري الرئيسى بين شطرى دولة صلاح الدين ، أعنى مصر والشام . ولم يكن صلاح الدين الرجل الذى يقبل السكوت عن اعتداءات وهجمات يقوم بها أمير صليبي متهوس — مثل أرناط — ضد قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز . وإذا غضب صلاح الدين في ذلك الوقت — أعنى في الربع الأخير من القرن الثانى عشر — فان غضبه تعنى ثورة رجل قوى جمع في قبضته بين دمشق والقاهرة بمواردهما المالية والبشرية ، ليوجه تلك الطاقة الضخمة ضد شراذم من الصليبيين أخذوا في الانحلال والتفكك بعد أن فترت حماستهم الدينية واضطربت أوضاعهم الداخلية .

ولكن هل أدرك أرناط جميع هذه الاعتبارات عندما تزوج وريثة الأردن وصاحبة حصنى الكرك والشوبك سنة ١١٧٧ ؟
الجواب : لا .. وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن سياسته في تلك المنطقة الحساسة في جنوب فلسطين لم تلبث أن أنزلت كارثة

ليست أضخم منها كارثة بأرناط نفسه وبمملكة بيت المقدس الصليبية ثم بالصليبيين عامة . ففي سنة ١١٨١ نسي أرناط — أبو تناسى — أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس ، وخرج على رأس قوة من رجاله ليوغل في صحراء العرب حتى تيماء . وكانت تيماء هذه واحة لها أهميتها لوقوعها في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة ؛ حتى وصفها صلاح الدين نفسه في رسالته الى الخليفة العباسى بأنها « دهلز المدينة » (١) . وأراد أرناط من مشروعه أن يزحف من تيماء الى المدينة المنورة ذاتها « للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة » . ولكن فرخ شاه — ابن أخى صلاح الدين ونائبه في دمشق — أسرع الى غزو الأردن ؛ مما جعل أرناط يعجل بالعودة الى امارته للدفاع عنها ، بعد أن تهب قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق الى مكة وسلب منها ثروة ضخمة .

وقد أفزعت تلك الغارة الغاشمة التى قام بها أرناط بلاط بيت المقدس ، لأنها عكرت صفو السلم مع صلاح الدين ، في وقت كانت مملكة بيت المقدس الصليبية أحوج ما تكون الى هذا السلم . هذا الى أن العمل الذى قام به أرناط أفزع المسلمين جميعا ، لأنهم اذا كانوا قد صبروا على تهديد الصليبيين لبعض البلدان والأراضى الاسلامية فى العراق والشام ومصر ، فانهم لا يمكن أن يصبروا بأى حال على تهديد قبلتهم التى يتجهون اليها

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣ .

بقلوبهم وأبصارهم آناء الليل وأطراف النهار . لذلك غضب صلاح الدين لما حدث من أرناط ، وأرسل الى ملك بيت المقدس يلومه على ما حدث ، ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين ، ويطلب منه أن يأمر فصله أرناط برد المسلوبات . والواقع ان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس كان لا يقل استياء من أرناط عن صلاح الدين ، فأرسل الى أرناط يلومه على فعلته ، وأمره بأن يسرع برد كل ما استولى عليه من أسرى المسلمين وأموالهم الى صلاح الدين . ولكن أرناط هزأ من بلدوين الرابع — الملك المريض — ورفض الاصغاء لأوامره ونصحه ، وأعلن أنه لن يرد شيئاً من أسرى المسلمين وأموالهم .

وكان بأن رد بلدوين الرابع على صلاح الدين يعلمه بعجزه عن اخضاع فصله والزامه باحترام الهدنة المعقودة بين الطرفين ، الأمر الذى كان يعنى نشوب الحرب بين صلاح الدين والصليبيين . بوثمة معنى آخر لعدم انصياع أرناط لبلدوين الرابع ، هو سقوط هبة ملكية بيت المقدس ، وخروج الأفضال الاقطاعيين فى المملكة عن طاعة ملكهم ، وهذا مظهر جديد آخر من مظاهر انحلال أحوال الصليبيين بوجه عام ومملكة بيت المقدس بوجه خاص فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر .

ثم صادف أن قذفت أمواج البحر ببضعة سفن مسيحية تحمل نحواً من ألفين وخمسمائة نفس كانوا فى طريقهم الى بيت المقدس ، فغرق منهم من غرق ، ووجد الباقيون — وعددهم نحواً من ألف وستمائة وتسعين نفساً — أنفسهم على شاطئ دمياط . وعندئذ

انتهم صلاح الدين. الفرصة وأعلن أنه لن يطلق سراح أولئك
الحجاج الا اذا أطلق أرناط من عنده من أسرى المسلمين .
ولما رفض أرناط أن يتخلى عن أسرى قافلة الحجاز ؛ احتفظ
صلاح الدين بالحجاج المسيحيين (١) .

* * *

انتصار الوحدة :

وأخيرا غادر صلاح الدين مصر في مايو سنة ١١٨٢ ليقوم
ببعض الأعمال الحربية ضد الصليبيين ، كما سنذكر بعد قليل .
ولكن أعمال صلاح الدين ضد الصليبيين لم تلبث أن توقفت
بعد قليل ، وكأنه أدرك أنه لا بد أولا من الاطمئنان الى جانب
الوحدة الاسلامية قبل القيام بحركة جهاد شاملة ضد الصليبيين .
والواقع ان التطورات التي تمت في الموصل وحلب
سنة ١١٨٠ — ١١٨١ ، كانت لا بد وأن تسترعى انتباه
صلاح الدين . ذلك أن سيف الدين غازي الثاني أتابك الموصل
توفي في أواخر يونيه سنة ١١٨٠ ، ثم لحق به الصالح
نور الدين اسماعيل بن محمود أتابك حلب في أوائل
ديسمبر سنة ١١٨١ . وقد أدى تخوف أمراء الموصل
من أطماع صلاح الدين الى حرمانهم أبناء سيف الدين
غازي من ملك أيهم لصغر سنهم ، واستدعوا عز الدين مسعود
الأول — أخا سيف الدين — لتولي أتابكية الموصل ، نظرا

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١١٤ .

« لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس » (١) :
وكان الصالح اسماعيل قد أوصى وهو على فراش الموت بأن
يخلفه ابن عمه الأمير عز الدين مسعود في حلب أيضا ، وذلك
حتى تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة لمواجهة صلاح الدين ،
وفعلا ذهب عز الدين الى حلب حيث نودي به ملكا عليها في أواخر
ديسمبر سنة ١١٨١ . ومن الواضح أن هذه التطورات لم تكن
في جانب صلاح الدين ومشاريعه الضخمة الخاصة بالجبهة
الإسلامية المتحدة ومحاربة الصليبيين . ولكن صلاح الدين
« كان حينئذ بمصر » ، ولولا ذلك لراحهم عليها (على حلب)
وقاتلهم .

ويبدو أن الاتفاق على اختيار عز الدين مسعود الأول ملكا
على حلب والموصل لم يكن وليد الرغبة في مقاومة صلاح الدين
فحسب ، وإنما أيضا بدافع الولاء والاختلاص للزنكيين . وقد ظهر
هذا الشعور واضحا في حماء التي لم تلبث أن ثار أهلها « ونادوا
بشعار عز الدين » على الرغم من قيام المظفر تقي الدين عمر
— ابن أخى صلاح الدين — في حكمهم (٢) . ولو كان عز الدين
مسعود قد استجاب للحليين في ذلك الوقت وزحف على دمشق
— حيث كان شعور الولاء للزنكيين لا يزال ظاهرا — لأمكن أن
يضع بلاد الشام تحت حكمه قبل أن يتمكن صلاح الدين من

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٦ هـ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، سنة ٥٧٧ هـ (مخطوط) .

الحضور من مصر . ولكن يبدو أن صلاح الدين كان مضطرا للبقاء في مصر عندئذ لتخوفه من وقوع هجوم صليبي عليها ؛ وفي الوقت نفسه لم يحاول عز الدين مسعود أن يغتتم فرصة غياب صلاح الدين في مصر لمهاجمة دمشق ، وقال « بيننا يمين لا نغدر به » ؛ بل انه أعطى حلب لأخيه عماد الدين صاحب سنجار ، وبذلك حطم وحدة الدولة الزنكية .

وقد أدرك صلاح الدين أن تلك الأوضاع التي سادت المسلمين في شمال الشام بوجه خاص ستكون عقبة في طريق حركة الجهاد الشاملة التي أزمع القيام بها ضد الصليبيين . وأورد ابن واصل نص خطاب أرسله صلاح الدين الى ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر نائبه في حماه ، يفهم منه أن أمراء حلب دخلوا عندئذ في مفاوضات مع الصليبيين وراسلوا الباطنية لعمل تحالف ضد صلاح الدين . كذلك ذكر ابن واصل في موضع آخر أنه نعى الى علم صلاح الدين « أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم في قصد الثغور الاسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم » (١) . ولهذا كله آمن صلاح الدين ايمانا قويا بأن توحيد القوى الاسلامية في شمال الشام والعراق يجب أن يسبق أية خطوة جدية ضد الصليبيين .

وكان أن اتجه صلاح الدين أولا ضد حلب ونازلها ثلاثة أيام ؛ ثم رأى أن يبدأ بمهاجمة الموصل ، فغزا اقليم الجزيرة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٠ ، ص ١١٥ .

واستولى على الرها وحران والرقّة وسروج ونصيبين (سبتمبر — أكتوبر ١١٨٢) ؛ حتى شرع في حصار الموصل نفسها في أوائل ديسمبر . ويبدو أن صلاح الدين « ألح في القتال فلم ينل غرضا » لأن عز الدين صاحب الموصل كان قد أعد عدته للحصار ، وحشد فيها عددا ضخما من العساكر « ما بين فارس وراجل .. ومن السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار » ؛ وعندئذ حاول صلاح الدين أن يستولى على الموصل عن طريق الحيلة ، فعرض على صاحبها الصلح مقابل أن يتركه يستولى على حلب دون تدخل منه . ولكن عز الدين مسعود رفض خيانة أخيه في حلب ، وقال : « هو أخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى نكثها » (١) .

ولم يلبث أن أحس صلاح الدين بالخرج لفشله في الاستيلاء على الموصل من جهة ، ثم لمهاجمته الزنكيين — وهم مسلمون — مما لا يتفق ودعوى الجهاد ، من جهة أخرى . لذلك حاول صلاح الدين أن يدعم مركزه بطلب تأييد الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، فأرسل الى الخليفة رسالة يتهم فيها أتابك الموصل بأنه عقد تحالفا ضده مع الصليبيين . وربما استهدف صلاح الدين الحصول من الخليفة على تفويض بتخويله سلطة عليا على بقية الأمراء المسلمين في اقليم الجزيرة ، مثلما كان لسلطين السلاجقة في القرن الحادى عشر . على أن أتابك الموصل

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

لم يهتز لجميع تلك المناورات ؛ بل لجأ الى الاستعانة بالأمرء المسلمين المجاورين ، مثل قزل أرسلان صاحب أذربيجان وشاه أرمن سقمان صاحب أخلاط (خلاط) . أما الخليفة العباسي الناصر فقد اكتفى بأن فوض الشيخ صدر الدين للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين . وهكذا أدرك صلاح الدين أنه لا فائدة من البقاء طويلاً أمام الموصل ؛ « وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحصرة على هذا الوجه » (١) ، فأنصرف عنها في منتصف ديسمبر ليستولى على سنجار . ثم عاد صلاح الدين الى الشام بعد أن اشتبك مع القوات التي أرسلها أمرء خلاط وماردين لنجدة عز الدين صاحب الموصل .

ويهمنا من هذه الأحداث ما يؤكد المؤرخون المعاصرون — أمثال ابن شداد وأبى شامة — من أن صلاح الدين سمع في ذلك الدور بما دار من اتصالات سرية بين الصليبيين من جهة والزنكيين في حلب والموصل من جهة أخرى للقيام بعمل مشترك ضد صلاح الدين ؛ وأنه « بلغه أن المواصله كاتبوا الفرنج ورغبوهم في الخروج الى الثغور ليشغلوا لسلطان عن قصدهم » ؛ وأن المواصله « قد واصلوا الفرنج مواصله أخلصوا فيها الضمائر ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر » « وبلغه أن رسل الموصل وصلوا الى الفرنج يحثونهم على قتال السلطان » (٢) ولم تكن

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٧٠

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤

ابن شداد : النوادر ، ص ٦٨

هذه الأخبار التي ترامت الى مسامع صلاح الدين عندئذ مبالغا فيها ، اذ تشير المراجع الصليبية ذاتها الى أن ملك بيت المقدس الصليبي استقبل سفارة من الموصل تعرض عليه دفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار ، وتسليم بانياس وحييس جلدك للصليبيين ، فضلا عن طلاق سراح جميع من لدى المسلمين من أسرى ، اذا نجح الصليبيون في طرد صلاح الدين من دمشق !! وكان الوقت مناسباً للصليبيين ليقوموا بهجوم على دمشق ، لا سيما بعد أن مات فرخشاه نائب صلاح الدين في دمشق . لذلك جمع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس جيوشه وخرج ومعه البطرق و صليب الصليبوت ، وأغاروا على الجهات الواقعة جنوبى دمشق ، كما أغاروا في سبتمبر سنة ١١٨٢ على منطقة بصرى في اقليم حوران . وقد اتصفت اغارات الصليبيين على تلك الجهات عندئذ بالعنف والوحشية ، فدمروا كل ما صادفوه من زرع وضرع .

ثم انتقل الصليبيون بعد ذلك الى السواد على الضفة الشرقية لبحيرة طبرية ، حيث استردوا قلعة حبيس جلدك التي كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ بضعة شهور مضت . وفي ديسمبر سنة ١١٨٢ عقد الصليبيون مجلسا للحرب في قيسارية وقرروا الاغارة مرة أخرى على اقليم حوران ، فخرج ريموند الثالث أمير طرابلس على رأس جموعهم صوب طبرية ، وأوغلوا حتى وصلوا الى بصرى ، ثم عادوا محملين بالغنائم . ولم يكد يمضى على تلك الاغارة خمسة عشر يوما حتى خرجت

غزوة أخرى بقيادة الملك بلدوين الرابع ، وأغار الصليبيون على إقليم دمشق حتى وصلوا الى داريا على بعد ستة كيلومترات فقط من دمشق ، مما أثار الذعر في نفوس أهل دمشق (١) .

وفي ذلك الوقت كان صلاح الدين يحاصر نصيبين في الجزيرة ، فأشار عليه بعض « من يتعصب لعز الدين » بالعودة الى الشام لانقاذ دمشق ، ولكنه أجاب عليهم بأن الفرنج « يخبون قرى ونملك عوضها بالأدبا ، ونعود ونعمرها وتقوى على قصد بلادهم » . ومن هذا يبدو كيف قام الصليبيون بدورهم كاملا لاجبار صلاح الدين على ترك حصار الموصل ؛ حتى تم لهم ما أرادوا — كما سبق أن رأينا — واضطر صلاح الدين الى العودة الى الشام في مايو سنة ١١٨٣ .

على أن صلاح الدين عاد من العراق لياشر نشاطه في شمال الشام ، وترك حصار الموصل ليبدأ حصار حلب ، وذلك بعد أن استولى على عين تاب في طريقه . وهنا نجد أن عماد الدين زكي الثاني أتابك حلب كان مفتقرا الى ما لأخيه عز الدين أتابك الموصل من شجاعة ودهاء سياسى . ذلك أن صلاح الدين لم يكده يحاصر حلب ، حتى ارتبك عماد الدين وخشى الاستنجاد بأخيه عز الدين أو بالصليبيين . واذا كان الحلبيون أنفسهم قد أبدوا مقاومة عنيدة في ذلك الدور ضد صلاح الدين ؛ الا أن حاكمهم عماد الدين أسقط في يده وبدأ يفكر في ترك حلب ، وأرسل الى صلاح الدين

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٧٨ هـ .

سرا يعرض عليه ذلك ، مقابل اعطائه « منجار — بلدة — ، فأجابه السلطان (صلاح الدين) الى ذلك « وزاده الخابور ونصيبين والرقّة وسروج » . وهكذا تمت الصفقة ، واستولى صلاح الدين على حلب في ١٢ يولية سنة ١١٨٣ (١) . ولم تلبث حامية حارم — التابعة لحلب — أن استسلمت مختصرة لصلاح الدين وسلمته القلعة في ٢٤ يولية سنة ١١٨٣ ، وبذلك سيطر صلاح الدين على حلب وحارم في مدى شهر واحد .

ولا شك في أن استيلاء صلاح الدين على امارّة حلب وتوابعها جاء ضربة خطيرة وجهت ضد الصليبيين ، حتى اعترف المؤرخ الصليبي وليم الصوري بأن ذلك كان أسوأ حدث يمكن أن يحدث للفرنجة . ذلك أن حصول صلاح الدين على حلب جعله أقوى حاكم معاصر في الشرق الأدنى ، وجعل الجبهة الاسلامية المتحدة تمتد تحت زعامته من جبال طوروس شمالا حتى النوبة جنوبا . وكانت امارّة أنطاكية بالذات أكثر الامارات الصليبية تأثرا باستيلاء صلاح الدين على حلب وحارم ، لأنها أدركت أنه سيستغل هذه القواعد الجديدة في الاغارة عليها .

ويروى أبو شامة أنه عندما عرف خبر استيلاء صلاح الدين على حلب وحارم « رجفت أنطاكية بعد ذلك رعبا » وأن أميرها بادر باسترضاء صلاح الدين ، فأرسل اليه جماعة من أسارى المسلمين

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٤٢
ابن شداد : النوادر ، ص ٩٨ .

« وسارع الى أمان السلطان » (١) . وكان أن ذهب بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وصحبته ريموند الثالث أمير طرابلس الى بيت المقدس لمداولة الملك بلدوين الرابع في الموقف . وكل ما استطاع ملك بيت المقدس أن يفعله عندئذ ، كان عقد هدنة مع صلاح الدين ، حتى تتمكن إمارة أنطاكية من احكام اجراءاتها الدفاعية .

أما صلاح الدين فقد عاد الى دمشق في أواخر أغسطس سنة ١١٨٣ بعد أن ثبت سلطانه في حلب وعين ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي نائبا عنه في حكمها . ومنذئذ أخذ الصليبيون يعملون حسابا للخطوة التالية التي سيتخذها ذلك المارد الذي جمع في قبضته القوية بين القاهرة ودمشق وحلب . وساعد صلاح الدين على الربط بين أطراف تلك الدولة الواسعة عنايته بشبكة البريد الجوى التي هيات له اتصالا سهلا سريعا مع مختلف المدن والقلع والحصون التابعة له . ذلك أن صلاح الدين عنى بأبراج الحمام الزاجل ، وجعل تلك الأبراج على مراحل متقاربة بحيث يكون حمام حماه في حلب وحمام دمشق في حماه وحمص ، وحمام حمص في حلب وحمام بصرى في دمشق .. أما أنحاء البلاد المصرية فقد ارتبطت بقلعة الجبل في القاهرة بخطوط بعضها يتجه الى الوجه القبلى — أى الى قوص وأسوان وعنداب — والبعض الآخر الى الاسكندرية

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٤٧ .

أو دمياط . وبذلك ارتبطت مدن بلاد الشام بعضها ببعض من ناحية وارتبطت مدن مصر بعضها ببعض من ناحية أخرى ؛ ثم ارتبطت مدن مصر بالشام عن طريق خط جوى منتظم ، أعدت له مطارات ذات أبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من ثلاثة عشر ميلا تقريبا ، ولها لظار وحراس يراقبون وصول الحمام ليلا ونهارا . ولزيادة الاطمئنان كانت الرسائل الهامة تكتب من صورتين ترسل كل صورة مع حمامة ، وتطلق إحدى الحمامتين بعد زميلتها بفترة من الزمن ، حتى اذا ضلت احدهما أو قتلت أو افترستها الجوارح أمكن الاعتماد على الحمامة الأخرى (١) . وهكذا اذا كانت دولة صلاح الدين قد اتسعت ؛ فانه كان مطمئنا الى سهولة الاتصال والاشراف على أنحاء دولته الواسعة وكانت أخبار مصر تأتيه وهو في دمشق ، ويستطيع وهو في أية جهة من جهات دولته أن يصدر أوامره وتعليماته فتنفذ على جناح السرعة في بقية أنحاء الدولة .

والواقع ان صلاح الدين غدا في صيف سنة ١١٨٣ في مركز قوى يمكنه من انزال ضربة قاصمة بالصلبيين : فموارد مصر الضخمة تحت تصرفه ، ودمشق وحلب في قبضته ؛ ومن حوله لا يوجد عدو خطير يخشى تهديده اذا هو هاجم الصليبيين .

(١) نظير حسان سعداوى : نظام البريد في الدولة الاسلامية ص ١٣٩ وما بعدها .

فالخليفة العباسي في بغداد يؤيده ، وعز الدين أتابك الموصل
يرهب جانبه ، وسلطان سلاجقه الروم يخطب وده ، والامبراطورية
البيزنطية صالحته ولم تعد مصدر خطر عليه . وهكذا صار في
استطاعة صلاح الدين أن يخطو بقدم ثابته في طريق الجهاد
ليطهر الوطن العربي من الدخلاء الغريبيين .

الفصل الرابع الجهاد الأكبر

صلاح الدين يعجم عود الصليبيين :

ذكرنا أن صلاح الدين غادر مصر الى الشام في مايو سنة ١١٨٢ . وترجع أهمية هذه الرحلة في التاريخ الى أنها كانت آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه القاهرة ، اذ قدر له أن يظل ببلاد الشام « ولم يعد بعدها الى مصر حتى أدركه الحمام » . وقد اتجه صلاح الدين عقب خروجه من مصر الى أيله على خليج العقبة ، وهناك علم أن الصليبيين جمعوا حشودهم في حصن الكرك لسد الطريق في وجهه والحيلولة دون دخوله بلاد الشام ، أو على الأقل الاعتداء على قافلته « لعلهم ينتهزون فرصة فيقتطفون من القافلة قطعة » (١) .

والواقع ان بلدوين الرابع كان قد جمع فعلا مجلس الحرب عندما علم بخروج صلاح الدين من مصر ، واستقر الرأي على أن يقيم الصليبيون خطهم الدفاعي عند حصن الكرك ليحولوا دون وصول صلاح الدين الى دمشق . ويبدو — كما ذكر

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٨ .

المؤرخ الصليبي وليم الصوري — أن خطة بلدوين الرابع استهدفت حشد جيوشه في الأردن لمعاقبة أرناط وتأديبه على مخالفته ملك بيت المقدس ، على أن تتظاهر تلك الجيوش بأنها إنما تبغى سد الطريق في وجه صلاح الدين . ولكن تلك الخطة لم تنجح ، إذ علم أرناط بها مقدما ، واتخذ احتياطاته ، في الوقت الذي نجح صلاح الدين في الاتجاه من أيله الى اقليم الشوبك حيث دمر مزارع القمح التابعة للصليبيين هناك .

وفي تلك الأثناء انتهز فرخشاه — ابن أخى صلاح الدين ونائبه في دمشق — فرصة انتقال الجيوش الصليبية الى الأردن ، وأغار على طبرية وعكا ، واستولى على الشقيف أرنون « واعد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم » . وبعد ذلك انتقل فرخشاه الى الضفة الشرقية للأردن — شرق بحيرة طبرية — فأغار على السواد حيث كان يوجد للصليبيين حصن حيس جلدك ، فاستولى عليه فرخشاه بعد حصار خمسة أيام رغم حصاته ، « وأسكنه المسلمين فبقى عينا على الفرنج بعدما كان لهم » .

وعندما بلغت هذه الأخبار بلدوين الرابع وأمرائه — وهم بعيدون عند الكرك — أدركوا مدى خطأهم لأنهم تركوا اقليم الجليل مكشوفاً . وكان أن رأى بلدوين الرابع سرعة العودة بعد تتبع صلاح الدين في وادي عربة . ولكن صلاح الدين احتاط في سيره والتزم « الأطراف » ، حتى دخل دمشق في ٢٢ يولية . أما الجيش الصليبي فاتجه الى صفورية في اقليم الجليل ، حيث

أخذ يتربص ما عسى أن يقوم به صلاح الدين من أعمال انتقامية . ولم يطل انتظار الصليبيين ، إذ تحرك صلاح الدين في ١١ يوليو سنة ١١٨٢ حيث نصب معسكره في سهل الأقحوانة ، عند خروج نهر الأردن من بحيرة طبرية . وفي الوقت نفسه أرسل صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه للاغارة على اقليم الغور حول بيسان ، فدخل بيسان « قهرا » ، وغنم ما فيها وقتل وسبى « ؛ في حين أغارت قبائل الاعراب على جينين واللجون وسهول يافا « حتى قاربوا مرج عكا » (١) .

وبعد أن قام صلاح الدين بحركة سريعة مكنته من الانضمام الى ابن أخيه فرخشاه ، شرع الاثنان في مهاجمة حصن كوكب الذي يشرف على اقليم الغور والطريق المؤدى الى الناصرة . وكان أن أسرع الصليبيون اليه حيث شنوا عليه هجوما عند كفر بلا . وهناك اشتد القتال بين صلاح الدين والصليبيين « واستشهد جماعة من المسلمين ، وكان النصر لأهل الاسلام » . على أنه يبدو أن صلاح الدين أدرك عدم جدوى تلك المعارك المحلية ضد الصليبيين ، وآثر أن يحتفظ بقواته سليمة للمعركة الفاصلة الكبرى « فانسحب الى دمشق » .

ثم كان أن فكر صلاح الدين في مشروع يفصل به امارتى طرابلس وأنطاكية عن مملكة بيت المقدس ، وذلك عن طريق الاستيلاء على بيروت . ولتحقيق هذا الغرض جمع صلاح الدين

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

لواته سنة ١١٨٢ جنوبى اقليم البقاع لمهاجمة بيروت ، فى الوقت الذى أعد أخوه العادل فى دمياط والاسكندرية أسطول من ثلاثين سفينة لمباغته المدينة من ناحية البحر . ولم يفت العادل أيضا أن يرسل بعض قواته من القاهرة لمهاجمة الداروم وعسقلان ، حتى يشغل مملكة بيت المقدس عن مساعدة بيروت . وقد أحاط صلاح الدين مشروعه بالسرية التامة ، بل أعلن أنه سيتجه ناحية حلب والموصل ، وذلك إمعانا منه فى تضليل الصليبيين . وفى أول أغسطس ظهر الأسطول المصرى فى مياه بيروت فى الوقت الذى هاجم صلاح الدين المدينة من ناحية البر بكامل قواته ، وبذلك تعرضت بيروت لحصار محكم من ناحيتى البر والبحر . وفى تلك الأثناء كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لا يزال معسكرا فى صفورية ، عندما وصلته أنباء هجوم صلاح الدين على بيروت وهجوم العسكر المصرى على مدن فلسطين الساحلية . وقد أدرك بلدوين الرابع أن بيروت هى بيت القصيد ، فأمر بإعداد الأسطول الصليبي فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من الحصار البحرى . أما صلاح الدين فقد أخذ يشدد هجماته على بيروت مرة بعد أخرى ، ولكن المدينة أظهرت عنادا شديدا « فرأى أن أمر بيروت يطول » ، ولذلك آثر الانصراف عنها وعاد الى دمشق . كذلك أمر صلاح الدين أسطوله بالعودة الى مصر ، فعاد بعد أن « كان قد سبى منها وسلب وظفر من غنيمتها بما طلب » (١) .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٢٩ .

وكان أن اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى الشمال ليعمل في ميدان الجبهة الاسلامية ، حتى تم له الاستيلاء على حلب في صيف سنة ١١٨٣ — كما سبق أن ذكرنا — وعندئذ اطمأن الى ناحية وحدة الصف وعاد لينصرف بكل قواه في جهاد الصليبيين بفلسطين . ذلك أن صلاح الدين غادر دمشق في سبتمبر سنة ١١٨٣ ليعبر نهر الأردن ويستولى على بيسان . ومن هناك اتجه صلاح الدين ليعسكر عند عين جالوت ، في حين أرسل بعض دوريات من جنده لمهاجمة المناطق القريبة ، فالتقت إحدى هذه الدوريات في نهاية سبتمبر بالامدادات الآتية من الأردن والكرك والشوبك لمساعدة جيوش المملكة ، وعندئذ قتل المسلمون وأسروا كثيرا من الصليبيين « وهرب الباقون في الجبال » .

وفي تلك الأوقات الحرجة التي ألت بالصليبيين ، عندما أخذ صلاح الدين يضيق الخناق على ممتلكاتهم في بلاد الشام ؛ اشتد المرض على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، حتى بلغ به حد العجز عن الحركة في فراشه . وقد وصف العماد الكاتب الملك بلدوين الرابع بأنه كان « ولدا مجذوما ومن الوجود معدوما ، قد أعزل دأؤه وأيس شفاؤه وسقطت أعضاؤه وطال بلاؤه » (١) . وكان أن أدرك رجال المملكة الصليبية أنه من الضروري اتخاذ اجراء سريع لحماية مصالح المملكة ومستقبلها ؛ فعقدوا مجلسا في

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١٤ .

الناصره حول فراش الملك المريض ؛ وفي ذلك المجلس فوض الملك صهره جاي لوزجنان في الوصاية على المملكة ؛ أى ينوب عنه في تدبير أمورها .

والواقع ان ذلك الاختيار لم يكن موفقا ، لما هو معروف عن جاي لوزجنان من ضعف الشخصية والبلادة ، حتى اتهمه المؤرخ الصليبي وليم الصوري بأنه لم يتحلى بشيء من صفات الفروسية أو الحكمة في معالجة الأمور . ومهما يكن من أمر ، فان جاي لوزجنان تولى قيادة الجيش الصليبي وفكر في مواجهة المسلمين فتحرك على رأس جيوش المملكة في أوائل أكتوبر ونصب الصليبيون معسكرهم عند الفولة ، وهي قرية معروفة بفلسطين قرب عين جالوت (١) . وعندما رأى الصليبيون ضخامة جيش صلاح الدين ، لم يجسروا على مهاجمة المسلمين . وهكذا ظل الجيشان وجها لوجه عدة أيام في أكتوبر سنة ١١٨٣ ، دون أن يحاول صلاح الدين حرمان الصليبيين من الاعتماد على موارد المياه القريبة ، وانما اكتفى بشن اغارات مركزة على المواقع الصليبية القريبة .

وربما قصد صلاح الدين من تلك الاغارات المحلية أن يوزع جهود الصليبيين ، أو أن يستدرجهم للدخول معه في معركة ، ولكنهم « لم يخرجوا الى المصاف خوفا من المسلمين » . وأخيرا لجأ صلاح الدين الى جبل الطور — وهو جبل قريب — حتى

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠١ .

يتحرك الصليبيون أيضا تبعا لذلك ، وعندئذ يفاجئهم بالهجوم ؛ ولكنهم فوتوا عليه تلك الخطة أيضا « ورحلوا راجعين على أعقابهم ناكسين » . وهكذا لم يجد صلاح الدين بدا من العودة الى دمشق بعد أن قتل وأسر كثيرا من الصليبيين « وخرب من حصونهم ييسان وكفر بلا وزرعين ؛ فضلا عن عدد من الأبراج والقرى . ولم يلبث أن وصل صلاح الدين الى دمشق في منتصف أكتوبر سنة ١١٨٣ ؛ في حين عاد الصليبيون الى مراكزهم عند صفورية .

وهنا نلاحظ أن صلاح الدين طبق في حملته هذه سنة ١١٨٣ نفس الخطط التي اتبعها بعد ذلك بأربع سنوات في حطين (١) .

* * *

أرناط يمهد ليوم حطين :

وفي تلك الأثناء أقدم أرناط صاحب حصن الكرك على مشروع خطير سنة ١١٨٢ ، استهدف به تحقيق سيادة الصليبيين على مياه البحر الأحمر ، وطعن الاسلام في قلبه بغزو الحرمين . وربما كان من الممكن تنفيذ هذا المشروع قبل أن تتم الوحدة الاسلامية عندما كانت كفة الصليبيين هي الراجحة في بلاد الشام . أما سنة ١١٨٢ بعد أن رجحت كفة المسلمين وصاروا يكونون

(١) للوقوف على التفاصيل ، انظر : -

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢

ص ٧٨٤ .

جبهة واحدة تمتد من حلب الى القاهرة ، فقد بات لزاما على الصليبيين أن يكرسوا جهودهم في حراسة حدودهم الطويلة ، جنوبا من ناحية مصر ، وشرقا من حدود امارة أنطاكية شمالا حتى الأردن والكرك جنوبا .

على أن أرناط لم يدرك جميع الاعتبارات السابقة ، وظن أن الأوضاع سنة ١١٧٧ عندما خرج من أسر المسلمين كانت لا تزال كما عهدتها سنة ١١٦٠ عندما دخل في أسرهم ؛ ولم يدرك أن تلك السنوات الطويلة التي قضاها في الأسر قلبت الأوضاع في الشرق الأدنى بالنسبة للمسلمين والصليبيين جميعا ؛ فانقلب المسلمون من التفكك والدفاع الى الوحدة والهجوم ، وتحول الصليبيون من قوة وتماسك الى ضعف وانحلال ، ومن حالة الهجوم الى حالة الدفاع . ثم ان أرناط حاكم حصن الكرك الصليبي لم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادئ الفروسية ، وانما كان لا يصلح الا للسلب والنهب وشن الاغارات على الأبرياء والمسلمين ، حتى لقد وصفه بعض المؤرخين الغربيين بأنه « نموذج للفارس اللص » ؛ في حين قال عنه أبو شامة أنه « أغدر الفرنجية وأخبثها وأفحصها عن الردي والرداءة ، وأبحثها وأتقضاها للمواثيق المحكمة والإيمان المبرمة » وأنكثها وأحنثها (١) .

ولا شك في أن مشروع أرناط لتدمير مكة والمدينة

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٧٥ .

سنة ١١٨٢ وضع الصليبيون في مأزق خطير وسبب لهم أزمة كانوا في غنى عنها . ذلك أن عمل أرناط أثار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؛ فضلا عن أن القوى الإسلامية التي فكرت في محاربة الصليبيين — مثل أتابك الموصل — استنكروا ذلك الوضع وخشوا وضع أيديهم في أيدي أناس يخططون للاعتداء على الحرمين .

وكان أن بدأ أرناط بالاستيلاء على أيله ، ذلك المركز الهام على خليج العقبة الذي استولى عليه بلدوين الأول سنة ١١١٦ ، ثم استرده صلاح الدين سنة ١١٧٠ . ومن الواضح أن استيلاء صلاح الدين على أيله كان يمكنه من تهديد الشوبك والأراضي الصليبية في وادي عربة . ولما كان من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بأيله دون السيطرة على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) المواجهة لها في خليج العقبة ؛ فقد شرع أرناط في بناء عدة سفن ، حملت أجزاءها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة حيث ركبت .

ولم يكد يتم تركيب السفن الصليبية ، حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة ، في حين قام البعض الآخر بالانغارة على الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الأحمر ، الأمر الذي أثار رعب أهاليها ودهشتهم ، لأنهم لم يعتادوا رؤية سفن فرنجية قبل ذلك في البحر الأحمر . ومن الموانئ التي أغار عليها أسطول أرناط في ذلك البحر ميناء عيذاب — الميناء المصري الشهير ويقع في مواجهة جدة — وهناك نهب الصليبيون بضعة سفن تجارية وافدة من

جدة واليمن وعدن والهند « فقتلوا وأسروا ، وأحرقوا في بحر القلزم نحو ستة عشر مركبا ، وأخذوا بعيذاب مركبا يأتي بالحجاج من جدة ، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب ، وقتلوا الجميع . وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين وأحدثوا حوادث لم يسمع الاسلام بمثلها .. » (١) .

وبعد ذلك نقل الصليبيون نشاطهم الهدام الى الشاطئ المقابل للبحر الأحمر — أى شاطئ الحجاز — « فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم » (٢) وقد دهش المسلمون جميعا لتلك الجرأة ، اذ لم يسبق أن « وصل قبلهم رومى الى ذلك الموضع » ؛ بل ان ابن جبير والمقرئى يؤكدان ان الصليبيين صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة . أما أبو شامة فيؤكد هذه الرواية ويقول ان الصليبيين نزلوا على ساحل الحوراء قرب ينبع حيث أغاروا على القوافل ، وتعهد بعض الخونة من البدو وارشادهم الى داخلية البلاد « ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفرا وتفاقا .. » (٣) .

وفي رسالة للقاضى الفاضل أن الصليبيين استهدفوا من وراء تلك العملية الحربية الجريئة تحقيق هدفين خطيرين : أولهما قطع « طريق الحجاج عن حجه » وضرب المسلمين في قبلتهم ؛ وثانيهما

(١) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٧٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٣٧ .

أن الصليبيين كانوا يزعمون الاستيلاء على عدن في جنوب البحر الأحمر ، لأخذ « تجار اليمن وأكارم عدن » ، وبذلك يتمكنون بفضل السيطرة على أيلة في الشمال وعدن في الجنوب من اغلاق البحر الأحمر في وجه أعدائهم المسلمين ، واحتكار تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندي .

ومن الواضح أن مثل هذا المشروع الضخم كان لا يمكن تحقيقه بنجاح في ظل الأوضاع التي غدت فيها مملكة بيت المقدس في الربع الأخير من القرن الثاني عشر ، عندما اختلت أمورها الداخلية ووافق ملكها بلدوين الرابع على وضع مملكته تحت الوصاية . وكل ما هناك هو أن خسارة الصليبيين من وراء السعى لتحقيق ذلك المشروع فاقت مكاسبهم ، لأنه بعد أن كان أتابكة دمشق (١١٣٨ — ١١٥٤) ثم أتابكة حلب (١١٧٤ — ١١٨٣) وأتابكة الموصل بعد سنة ١١٧٤ يحرصون على مخالفة ملوك بيت المقدس كلما أحسوا بخطر من جانب زنكي أو نور الدين محمود أو صلاح الدين على التوالي ؛ مما أتاح للصليبيين فرصة للتنفيذ بين صفوف المسلمين وتعطيل الوحدة الإسلامية ؛ اذا بالصليبيين بعد محاولتهم الاعتداء على الحرمين يبدون على حقيقتهم في نظر المسلمين كافة ، مما أثار النفور منهم والكراهية لهم ، وحال دون تعاون أية قوة إسلامية — ضل حكامها وانحرفوا عن طريق الوحدة — معهم . وكفى ان المسلمين رأوا في تهديد الحرمين نذيرا بقيام الساعة وعلامة على « غضب الله لفناء بيته المحرم » .

ومهما يكن من أمر ، فإن صلاح الدين لم يسكت عن تهديد الصليبيين للحرمين ، وإنما أصدر تعليماته السريعة الى أخيه العادل فى مصر ، فأعد العادل أسطولاً قوياً فى البحر الأحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، متولى الأسطول بديار مصر . وقد بدأ حسام الدين لؤلؤ بحصار أيله « وظفر بمراكب الفرنج فحرقها وأسر من فيها » ثم أسرع بعد ذلك بتعقب بقية السفن الصليبية عند عيذاب فشواطئ الحجاز . وكان الجزء الأكبر من تلك السفن موجوداً على شاطئ الحوراء عندما دهمها حسام الدين لدمرها ويستولى عليها بعد أن أطلق من فيها من تجار المسلمين الأسرى . أما الصليبيون فيبدو أنهم أخذوا على غرة ، فترك بعضهم السفن ولانوا بالجبال ، وعندئذ حصل حسام الدين ورجاله على الخيل اللازمة من العربان ، وطاردوا الصليبيين بين الجبال حتى أسروهم جميعاً (فبراير ١١٨٣) (١) .

وكان موسم الحج قد أوف عندئذ ، فأرسل حسام الدين أسيرين الى منى ، حيث نحرُوا « كما تنحر البدن » ؛ فى حين عاد معه بقية الأسرى الى مصر . وقد أمر صلاح الدين بقتل أولئك الأسرى ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على « حرم الله وحرم رسوله » ؛ وتم قتلهم فعلاً بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المدن الكبرى . وكان الرحالة ابن جبير فى زيارة الاسكندرية عندئذ ، فذكر وصفاً

(١) ابن بطوطة ، شرح لكراب ؛ ج ٢ ص ١٢٨ .

طريفا لموكب أولئك الأسرى « راكين على الجمال ووجوههم الى
أذنانها وحولهم الطبول والأبواق ! » (١) . أما أرناط نفسه فقد
استطاع الإفلات في صعوبة ، ولكن صلاح الدين أقسم على
ألا يغفر له فعلته هذه ، « ونذر دمه » .

وهكذا باءت محاولة الصليبيين في البحر الأحمر للاعتداء
على الحرمين واحتكار تجارة المحيط الهندي بالفشل الذريع .
وإذا كانت هناك نتيجة لتلك المحاولة ، فإن هذه النتيجة كانت
استشارة نقمة صلاح الدين على أرناط ، ولفت نظره الى الخطر
الذى يهدد دولته من ناحية الكرك ووادي عربة ، وهى المنطقة
التي تقع بين شقى دولته في الشام ومصر ، فضلا عن الحجاز .
وكان حصن الكرك بالذات « على المسلمين منه ضرر عظيم ،
فانه يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج
الا مع العساكر الضخمة » . وقد ذكر القاضي ابن شداد مدى
اهتمام صلاح الدين بقلعة الكرك لأنها « كانت في الطريق تمنع
من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى
يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو » (٢) .

لذلك خرج صلاح الدين من دمشق في سبتمبر سنة ١١٨٣
لحصار الكرك ، وأتى اليه لمساعدته في تلك العملية أخوه العادل
من مصر . وكان ذلك في الوقت الذى اجتمع في حصن الكرك

(١) رحلة ابن جبير ؛ ص ٢٩ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٧٥ .

مجموعة كبيرة من امراء الصليبيين وأعيانهم للاحتفال بزواج
الأميرة ايزابلا أخت الملك بلدوين الرابع . وكان حصن الكرك
قوى التحصين ، فاستطاع الصمود والثبات ، حتى أن
صلاح الدين « لم ينل منه غرضاً » . ولم يلبث الملك عمورى
الأول أن خف — وهو فى حالة أقرب الى الموت منها الى الحياة —
لنجدة الكرك ، على رأس جيش مملكة بيت المقدس ؛ مما جعل
صلاح الدين ينسحب الى دمشق فى أوائل ديسمبر سنة ١١٨٣ ،
بعد أن « رأى أن أمر الكرك يطول » .

على أنه ليس معنى ذلك أن صلاح الدين صرف نظراً عن
حصن الكرك ، لا سيما وأن أرناط استمر يستغل ذلك الحصن
فى تهديد طرق القوافل بين مصر والشام والحجاز . لذلك خرج
صلاح الدين من دمشق مرة أخرى فى صيف سنة ١١٨٤ لمحاورة
الكرك ، وشاركه فى الحصار على رأس الجيش المصرى ابن أخيه
المظفر تقى الدين عمر ، الذى حل محل الملك العادل فى حكم
مصر . كذلك شارك صلاح الدين فى هجومه على الكرك تلك
المرّة نور الدين بن قرا أرسلان الأرتقى صاحب كيفا وآمد فى
ديار بكر ، فضلاً عن الملك العادل الذى أتى على رأس المعسكر
الحلبى . وكان صلاح الدين قد استعد تلك المرّة استعداداً قوياً ،
فأحضر المنجنيقات وآلات الحصار القوية ، حتى إذا ما أوشك
أن يحقق غرضه ، تدخلت مملكة بيت المقدس مرة أخرى لتفسد
عليه عمله . وللمرة الثانية اضطر صلاح الدين الى الانسحاب
واتتقم من مملكة بيت المقدس بالاغارة على نابلس وسبسطية

وحينئذ . وقد نهبت جيوشه نابلس وأحرقت قلعة حنين ، ولكن صلاح الدين منح الأمان لأهل ميسطية وأسقفها أكراما لمشهد زكريا عليه السلام ، الذي يوجد في ذلك المكان .

* * *

المسلمون والصليبيون قبيل حطين :

وكان أن أخذ صلاح الدين يستعد للهجوم الشامل الذي أزمع القيام به ضد الصليبيين . وقد بدأ صلاح الدين بإجراء حركة تنظيم داخلية في دولته ، فأخذ في إحلال أبنائه محل إخوته وأبناء عمومتهم في الأجزاء الرئيسية للدولة . من ذلك أن صلاح الدين نقل أخاه العادل من حكم مصر إلى حلب ، وأحل محله في مصر المظفر تقي الدين عمر ابن أخى صلاح الدين والأفضل على بن صلاح الدين . ولما دب النزاع بين هذين الاثنين تخوف صلاح الدين من أطماع ابن أخيه ، فاستدعاه في صيف سنة ١١٨٦ وأحل محله ابنه الثاني العزيز عثمان . وقد رفض تقي الدين عمر تنفيذ ذلك ، فاحتال عليه صلاح الدين حتى أحضره إلى الشام ، وعندئذ منعه من العودة إلى مصر وأعطاه عدة أقطاعات متفرقة في الشام ، مثل حماه ومنبج ومعرّة النعمان وكفر طاب . أما العادل أخو صلاح الدين — وأقوى شخصية في البيت الأيوبي بعد صلاح الدين نفسه — فقد حرّمه صلاح الدين من حلب نظرا لأهميتها ، وأعطاه لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي ، وأعطى العادل سنة ١١٩١ أقطاعات ثانوية في بلاد النهرين ،

يشمل الرها وحران وميافارقين ، وذلك « ليخرجه من الشام » (١).
 وفي الوقت الذي كان صلاح الدين يدعم جبهته الداخلية ،
 ويستعد للحركة الفاصلة ضد الصليبيين بالشام ، اذا بمملكة
 بيت المقدس الصليبية تسوء أحوالها في أواخر أيام ملكها المريض
 بلدوين الرابع . ولم يلبث الملك تحت تأثير بارونات المملكة أن
 أبعد جاي لوزجنان عن الوصاية على مملكة بيت المقدس ، كما
 عين بلدوين الخامس — ابن أخته — شريكا له في حكم المملكة
 ووريثا لبلدوين الرابع ، وذلك لتبديد أي أمل لجاي لوزجنان
 في وراثة العرش . ثم ان بلدوين الرابع لم يكتف بكل ذلك ،
 وانما سعى لطلاق أخته سيبيل من جاي لوزجنان ، الأمر الذي
 جعل الأخير يعتصم في امارته — يافا وعسقلان — ليعلن ثورته
 على الملك . وهكذا بدأ الصراع مكشوفاً بين الرجلين فزحف
 بلدوين الرابع على عسقلان ليجد أبواب المدينة موصدة في وجهه ،
 فاتجه الى يافا ليستولي عليها ويعلن عزل جاي لوزجنان . ثم عقد
 مجلس بعد ذلك قرر اختيار ريموند الثالث أمير طرابلس وصيا
 على بلدوين الرابع (مارس ١١٨٥) ، وبذلك انتهت أسرته في
 حكم مملكة بيت المقدس (٢) .

ولم يلبث أن أعلن بلدوين الخامس ملكاً تحت وصاية

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ

المقرنزي : السلوك ، ج ١ ص ٩١ - ٩٢

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢

ص ٧٩٢ - ٧٩٣ .

ريموند الثالث أمير طرابلس . وكان ريموند الثالث يدرك مدى حاجة الصليبيين عندئذ الى فترة من السلم والهدوء يدعمون فيها مركزهم ويصفنون خلافاتهم الداخلية لا سيما وأن بلاد الشام تعرضت لقحط شديد سنة ١١٨٥ . لذلك بادر ريموند بعقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات (١١٨٥ — ١١٨٩) .

أما صلاح الدين ، فلم يشأ أن يضع تلك السنوات الأربع في سكون ، وإنما وجه جهوده ضد الموصل ، واتجه لمهاجمتها مرة أخرى في أبريل سنة ١١٨٥ . وقد أشار بعض المهندسين على صلاح الدين عندئذ بتحويل مجرى نهر دجلة عن الموصل لكي « ينقطع الماء عنها فلا يبقى الا تسليمها » ولكن كان من المتعذر تنفيذ ذلك المشروع ، وحالت حرارة الجو دون الاستمرار في القتال ؛ فضلا عن أن صلاح الدين سمع عندئذ بوفاة صاحب خلاط دون أن يترك ولدا يرثه . لذلك ترك صلاح الدين حصار الموصل واتجه الى خلاط في صيف سنة ١١٨٥ لينازع أتابك أذربيجان الاستيلاء عليها ؛ ولما فشل في ذلك احتل ميفارقين . وفي طريق عودته مرض صلاح الدين « مرضا شديدا خاف من غائلته » ، فأوى الى حران ، ولم يستطع العودة الى الشام الا في يونيو سنة ١١٨٦ (١) .

ويهمنا من قصة ذلك المرض ما يرويهِ القاضي ابن شداد من أن المواصلَة انتهزوا فرصة مرض صلاح الدين « وعلموا سرعة

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ١١٢ .

اشياده ورقة قلبه في ذلك الوقت » ؛ فسعوا للصلح معه ، بعد
ان قنط عز الدين مسعود صاحب الموصل من مساعدة الخليفة
والسلاجقة . وكان أن نجحت الفكرة ، وتم الصلح بين
صلاح الدين من ناحية وعز الدين مسعود صاحب الموصل في
مارس سنة ١١٨٦ ، فرضى الأخير أن يكون تابعا لصلاح الدين
« وخطب في جميع بلاد الموصل للسلطان (صلاح الدين) وقطعت
خطبة السلاطين السلجوقية بها ، وخطب له في ديار بكر وجميع
البلاد الأرتقية وضربت السكة باسمه » (١) .

هذا عن جانب صلاح الدين والمسلمين ؛ أما الصليبيون فقد
تفاقت مشاكلهم ب وفاة الملك بلدوين الخامس الصغير في عكا
بعد بضعة أشهر من اعلانه ملكا . وكانت وفاة بلدوين الخامس
ايذانا بصراع حاد بين أمراء المملكة حول الفوز بالعرش ، حتى
انقسم الصليبيون الى معسكرين كبيرين ، أحدهما يؤيد جاي
لوزجنان والآخر يؤيد ريموند الثالث . وسرعان ما سيطرت
الأميرة سيبيل وزوجها جاي لوزجنان على بيت المقدس والموانئ
الساحلية ، وذلك بمساعدة هرقل بطرق بيت المقدس وأرناط
صاحب الكرك . أما ريموند فقد اتجه بسرعة الى نابلس ، والتف
حوله جمع من الأمراء الذين رفضوا الاعتراف بجاي لوزجنان .
ولكن هرقل بطرق بيت المقدس أسرع بتتويج سيبيل وزوجها
جاي لوزجنان في بيت المقدس ؛ وعندئذ أخذ الأمراء الملتفين

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٧٢

ابن شداد : النوادر ص ١٢٢ - ١١٣ .

حول ريموند الثالث في نابلس يتسربون واحدا بعد آخر الى بيت المقدس ليعلنوا ولاءهم للملك الجديد . ومع ذلك فقد أصر ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهيموند أمير أنطاكية على موقفهما العدائى من جاي لوزجنان ، مما أوجد انقساماً خطيراً في جبهة الصليبيين (١) .

ذلك أن تتويج جاي لوزجنان ملكاً على بيت المقدس جاء مخيباً لآمال ريموند أمير طرابلس ومطامعه ، فلم يجد وسيلة للانتقام سوى التقرب من صلاح الدين . وكان ريموند أثناء وصايته على مملكة بيت المقدس قد حسن علاقته بصلاح الدين « وصار يناصره » على قول المقرئى ؛ حتى إذا ما تتوج جاي لوزجنان ملكاً ، أرسل ريموند الى صلاح الدين يطلب معوته « وائتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ؛ ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصر » ، وذلك على قول ابن الأثير . وقد أشار أبو شامة وابن واصل الى ما دار بين ريموند أمير طرابلس وصلاح الدين من اتصالات في ذلك الدور ، فذكرا أنه « قويت مناصحته للمسلمين وباين أهل ملته » وبث السرايا في بلادهم . ولا شك في أن ذلك الانشقاق بين صفوف الصليبيين جاء عظيم الفائدة

(١) للوقوف على التفاصيل انظر : -

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص

٧٩٤ وما بعدها

بالنسبة لصالح الدين ، حتى اعتبره المؤرخون المسلمون « من أسباب نصره الاسلام » (١) .

* * *

موقعة حطين ١١٨٧

وربما كان من حسن حظ الصليبيين أن يحدث ذلك الانقسام الخطير بين صفوفهم في الوقت الذي كانت الهدنة لا تزال قائمة بينهم وبين صلاح الدين . على أن أرناط صاحب الكرك شاء بحماقته المعهودة ألا يترك الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ويحاولون تصفية خلافاتهم الداخلية أثناء الهدنة مع صلاح الدين ، فتعجل إثارة الحرب ضد المسلمين ؛ وهي الحرب التي جاءت كارثة على أرناط نفسه وعلى الصليبيين جميعا . أجل ، اختار أرناط في تلك الظروف العصبية التي كان يمر بها الصليبيون جميعا أن يخرق الهدنة مع صلاح الدين ، ولم يعدم — وهو الفارس اللص كما أسماه المؤرخون الأوربيون أنفسهم — وسيلة لتفكير صفو السلم بين المسلمين والصليبيين ؛ واستغل في ذلك موقع حصنه الكرك في الأردن بين مصر والشام والحجاز . وهنا تجدر الإشارة الى أن أرناط استخدم في أعماله العدوانية ، على المسلمين وقوافلهم طائفة من البدو الذين كانوا ينزلون في المناطق الصحراوية القريبة من حصن الكرك .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٩٢
ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ
أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٧٤ - ٧٥
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٨٥ .

والمعروف أن أرناط نفسه كان قد طلب الأمان من صلاح الدين عقب اغارته الفاشلة في البحر الأحمر . ووفقا للهدنة المعقودة بين صلاح الدين من جهة والصليبيين وأرناط من جهة أخرى ، أخذت القوافل الإسلامية — سواء للحج أو للتجارة — تمر بصحراء الأردن ، بعد أن « أمنت الطريق بين مصر والشام وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذهاب والجائي » على قول ابن واصل . ولا شك في أن هذا السلام عاد بالخير العميم على أرناط نفسه ، نظرا لما كان يفرضه على تلك القوافل من مكوس وضرائب . « ولكن ذلك الفارس اللص كان لا يستطيع الحياة دون أن ينهب ويسرق » كما يقول المؤرخ الفرنسي جروسيه ؛ فانقض فجأة على قافلة « ثقيلة معها نعم جليلة » للمسلمين ، متجهة من القاهرة الى دمشق في أواخر سنة ١١٨٦ وأوائل سنة ١١٨٧ .

ويبدو أن ما كانت تحمله تلك القافلة بالذات من ثنائس وثروة طائلة أسال لعاب « الفارس اللص » ، وجعله لا يبالي بالعهود والمواثيق . حقيقة أن السلطات المصرية احتاطت لحماية القافلة ، وأرسلت معها « جماعة صالحة من الأجناد » لحراستها في الطريق ؛ ولكن أرناط نجح في أن ينصب كمينًا للقافلة وحاميتها ، وبذلك وضع يده على كل ما تحمله من ثروة وبضائع . أما رجال القافلة والمسافرون أصحابها ، فقد سلبهم أرناط كل ما معهم من مال وسلاح وأنعام ؛ ثم ألقى بهم أسارى في حصن الكرك حيث « سامهم الشد والشدّة » على قول أبي شامة .

وهنا ننبه الى أن بعض المراجع الصليبية أشارت الى أنه كان من بين الأسرى في تلك القافلة أخت صلاح الدين . ونقل هذا الرأي الخاطيء كثير من الكتاب الذين عالجوا تاريخ الحروب الصليبية . ولو كانت أخت صلاح الدين قد أسرت حقيقة عندئذ لأشار الى ذلك حتما المؤرخون المعاصرون المسلمون مثل ابن شداد وأبى شامة وابن الأثير . وعلى ذلك نستطيع أن نقطع بخطأ هذا الرأي وبعده عن الحقيقة والتاريخ . ويتضح مما ذكره أبو شامة أن أخت صلاح الدين أتت في قافلة أخرى قادمة من مكة ، وأنها وصلت سالمة الى دمشق في صيف سنة ١١٨٧ ، كما سنشير الى ذلك في موضعه .

ومهما يكن من أمر ، فإن صلاح الدين لم يكذب يعلم بما فعله أرناط حتى تذرع بالحلم ، فأرسل اليه مقبحا أعماله « ويتهدده ان لم يطلق سراح الأسرى والأموال » . ولكن أرناط « امتنع من اجابة السلطان الى اطلاقهم » ، وأصم أذنيه عن ذلك التهديد « وأبى الا الاصرار والاضرار » (١) . بل لقد بلغ من جرأة أرناط وقحته وحرصه على استفزاز صلاح الدين والمسلمين ، أنه رد على رسل صلاح الدين قائلا « قولوا لمحمد يخلصكم !! » (٢) وعندما وجد صلاح الدين اعراضا عن التفاهم من جانب أرناط ، أرسل الى الملك جاي لوزجنان يفيد به بما حدث ، ويكرر طلبه

(١) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ٩٢ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٩٤ .

بتسليم الأسرى والمنهوبات « ولكن أرناط أعرض أيضاً عن جاي لوزجنان وأصر على عدم تنفيذ الأوامر التي أصدرها اليه ملك بيت المقدس لاعادة ما استولى عليه من القافلة الاسلامية . ويبدو أن أرناط كان يشعر بأنه صاحب فضل على جاي لوزجنان لمساعدته في الوصول الى العرش ومساندته ضد خصومه ، مما جعله يستخف بملك بيت المقدس وأوامره ، في الوقت الذي لم يستطع الأخير أن يفرض رأيه على أرناط .

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين الا القصاص والحرب ، وهي الحرب التي جاءت قاضية على الصليبيين وآمالهم في البقاء بالشام ، بعد أن اختار أرناط أسوأ الأوقات والظروف بالنسبة للصليبيين لاستثارة صلاح الدين . ويكفى أن الانشقاق الذي حدث في صفوف الصليبيين نتيجة لوفاة بلدوين الخامس ولتسوية جاي لوزجنان حرم مملكة بيت المقدس من معونة أقوى امارتين صليبيتين بالشام ، وهما اماره طرابلس وامارة أنطاكية . ولم يكن ريموند الثالث أمير طرابلس هو الذي وحده « راسل صلاح الدين واتمى اليه » ، وانما هذا حذوه بوهيمولد الثالث أمير أنطاكية ، فجدد الهدنة المعقودة بينه وبين صلاح الدين . هذا فضلا عن انحلال مملكة بيت المقدس نفسها في ذلك الوقت واضطراب أمورها الداخلية ، بدليل أن أحد أمرائها — مثل أرناط — استطاع أن يتجاسر على الملك ويعصى أوامره ، وهو أمر كان لا يمكن أن يحدث في عهد ملوك مملكة بيت المقدس الأوائل . وهكذا ساءت أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية

وتلاشى ما كان لملكها من نفوذ وهيبة ، ووجد الملك جاي لوزجنان نفسه وحيدا بين عصيان أرناط من ناحية وتمرد ريموند الثالث من ناحية أخرى . وكان ذلك في الوقت الذي أخذ صلاح الدين يقوم باستعداداته على قدم وساق لاعطاء الصليبيين درسا قاسيا لم ينسوه بعد ذلك (١) .

والواقع ان صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام رفض أرناط وعجز مليكه جاي لوزجنان عن رد أسرى القافلة الاسلامية ومتاعها ، فأقسم صلاح الدين على أن ينتقم من أرناط ؛ بل انه « نذر دمه وأعطى الله عهدا ان ظفر به أن يستبيح مهجته » (٢) . وكان أن قام صلاح الدين بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين ومواردهم البشرية والمادية استعدادا لخوض معركة جهاد كبرى لم تنته الا بقذف البقايا الصليبية بالشام في البحر . وقد اختار صلاح الدين أن يظل في ذلك الدور بدمشق ، ومنها أخذ ينظم تعبئة قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر . وعندما اكتملت استعدادات صلاح الدين غادر دمشق في حوالى منتصف مارس سنة ١١٨٧ على رأس جيش كبير متجها نحو الجنوب حتى وصل الى رأس الماء — الى الشمال الغربى من حوران — حيث ترك ابنه الأفضل « لتجتمع عنده الامداد

(١) انظر : —

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص

٧٩٩ — ٨٠٠

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٨٥

أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٧٥ .

والنجد » ؛ في حين اتجه صلاح الدين نفسه الى بصرى لحماية قافلة الحجاج الآتية من الحرمين « خوفا عليهم من غدر عدو الله الابرنس (أرناط) » . وهذه القافلة هي التي كانت فيها احدى أخوات صلاح الدين وابنها محمد بن عمر لاجين .

ولم يكد صلاح الدين يطمئن على وصول قافلة الحجاج المذكورة في ١١ مايو ، حتى شرع في مهاجمة أرناط ، فسار الى الكرك في اثنى عشر ألف فارس « ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك » . وكان أرناط قد حبك خطته على أساس قطع الطريق على القوات الآتية من مصر « وصدّهم عن الوصول الى صلاح الدين » ؛ ولكن صلاح الدين أفسد عليه خطته بأن تقدم الى الأمام « وتلقى العسكر المصرى » قرب الكرك دون أن ينتظر وصول تلك القوات اليه ، وبذلك أفسد على أرناط خطته . وهكذا وجد أرناط نفسه محصورا في قلعة الكرك ، في حين كان صلاح الدين يعمل حرا طليقا في الأردن ، وابنه الأفضل لا يزال معسكرا عند رأس الماء ينظم القوات الاسلامية التي أخذت تتوافد عليه تباعا . ثم ان صلاح الدين كان حريصا على ألا يحارب في أكثر من جبهة واحدة ، وألا يمكن الصليبيين من تعبئة قواهم وتوحيد صفوفهم ردا على تعبئة القوات الاسلامية ؛ فأرسل في يونيو سنة ١١٨٧ الى رجاله بحلب يأمرهم بمصالحة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية « ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد » (١) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ١١٨ .

والواقع ان أحوال الصليبيين عندئذ كانت لا تبشر بخير ،
اذ لم يقتصر الأمر في تلك الأزمة على عدم التعاون بين جاي
لوزجنان من ناحية وأميرى طرابلس وأنطاكية من ناحية أخرى ،
وانما تعدى ذلك الى ما أندر بالصدام بين جاي لوزجنان
وريموند . ذلك أن ريموند أمير طرابلس كان يمتلك مدينة طبرية
بوصفه أميراً على اقليم الجليل ، فاعتصم بها عقب تتويج جاي ،
وعندئذ اتفق فرسان الداوية مع جاي لوزجنان على محاصرة
طبرية وانتزاعها من ريموند ، مما جعل الأخير يلقي بنفسه بين
أحضان صلاح الدين طالباً مساعدته ضد ملك بيت المقدس
والداوية . وكان أن لبي صلاح الدين نداء حليفه ريموند ،
فأمدّه بالمعونة اللازمة ، ثم اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى
بانياس — على بعد عدة كيلومترات من طبرية — لمراقبة الموقف .
وفي ذلك الوقت جمع الملك جاي لوزجنان جيوشه في الناصرة
لمهاجمة طبرية ، وهي المدينة الصليبية التابعة لأمر صليبي ، بدلاً
من أن يوجه جهوده ضد تجمعات صلاح الدين وحشود المسلمين .
على أن بعض أمراء الصليبيين تدخلوا في اللحظة الأخيرة لفهام
الملك جاي لوزجنان حقيقة الموقف ، فأقنعوه بإرسال مبعوث الى
ريموند أمير طرابلس للوساطة بين الطرفين ، وفي الوقت نفسه
حثوه على توجيه جهود الصليبيين ضد صلاح الدين والمسلمين .
وقد رأى صلاح الدين في ربيع سنة ١١٨٧ أن يرسل قوة
استطلاعية من بضعة آلاف جندي بقيادة مظفر الدين كوكبرى
صاحب حران والرها ، وبدر الدين دلدردم الياروقى أمير عسكر

حلب ، وصارم الدين قيمانز النجمي أمير عسكر الدماشقة ،
لتقوم هذه القوة بالاغارة على اقليم عكا . على أنه لكي تصل
تلك القوة من بانياس الى عكا ، كان لابد لها من اختراق اقليم
الجليل ، فاستأذن صلاح الدين أمير الجليل ريموند الثالث
— الذي كان عندئذ بطبرية — في ذلك . وهنا وجد ريموند
نفسه في موقف لا يحسد عليه ، لأنه بحكم تحالفه مع
صلاح الدين مضطر الى خيانة الصليبيين والسماح لقوات
المسلمين بالمرور . ولم يجد ريموند مفرا من السماح للمسلمين
بالمرور ، ولكن بعد أن أعطى تعليماته لكافة المدن الصليبية
الواقعة في اقليم الجليل — مثل طبرية والناصرية — بإغلاق
أبوابها حتى لا تعطى المسلمين فرصة للاستيلاء عليها .

على أنه عندما علم جيرار دي ريد فورت — مقدم
الداوية — أن بعض قوات صلاح الدين ستمر باقليم الجليل ،
أسرع بجمع بضعة مئات من الصليبيين وحاول أن يتصدى
للمسلمين قرب صفورية . وهناك دارت معركة رهيبة في أوائل
شهر مايو سنة ١١٨٧ سقط فيها معظم الصليبيين بين قتلى
وأسرى ، وكان من جملة القتلى مقدم الاستتارية وعدد كبير
من أبرز فرسانهم في حين لم ينج من الخمسمائة صليبي
سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ومن بينهم مقدم
الداوية . وعندما أسرع قوة من الصليبيين الى صفورية لنجدة
أخوانهم ، كانت المعركة قد انتهت ، فأسر المسلمون تلك النجدة

وعادوا بها « سالمين غانمين » ؛ وهم يحملون رءوس أعدائهم على أسنة الحرب (١) .

ولم يكن ذلك النصر سوى « باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات » ؛ على قول أبي شامة . وسرعان ما أفاق الصليبيون وعاد زعماءهم الى رشدهم ؛ فأسرع ريموند الثالث أمير طرابلس الى الدخول في طاعة الملك جاي لوزجنان ورضى أن يسير تحت رايته في محاربة المسلمين . وقد اختار الصليبيون صفورية — قرب عكا مركزا لتجميع قواهم وحشد جيوشهم ، واصطحبوا معهم صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم ، الذي يقال ان المسيح عليه السلام صلب عليه . أما صلاح الدين فانه لم يكد يعلم بأن ريموند تقض الهدنة والاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، حتى زحف على طبرية في أوائل يوليو سنة ١١٨٧ ، فافتحمت جيوشه المدينة وأحرقتها ؛ ما عدا قلعتها التي لم يستطع المسلمون الاستيلاء عليها . وكانت أيضا أميرة طرابلس والجليل وزوجة ريموند الثالث قد احتمت داخل تلك القلعة (٢) .

وهنا تبدو مهارة صلاح الدين العسكرية ، اذ كان يتوقع

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٨٧ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ص ٧٦

ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٠

ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ

المقرئزي : السلوك ، ج ١ ص ٩٣ .

للاشتباك في معركة فاصلة مع الصليبيين ، ولكنه أراد أن يجبرهم على المسير اليه ، حتى يصلوا متعبين في حين يدخر هو جهده وجهد رجاله . ولذلك استهدف صلاح الدين من مهاجمة طبرية أن يدفع الصليبيين الى ترك مراكزهم عند صفورية ، ويجبرهم على الزحف اليه في اتجاهه . وقد عبر المؤرخون المسلمون تعبيراً صريحاً عن خطة صلاح الدين ، فقال أبو شامة « فلما رأى السلطان أنهم لا يبرحون ومن قرب صفورية لا ينزحون .. نزل هو على مدينة طبرية ، وعلم أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول اليها ، فحينئذ يتمكن من قتالهم ويجهد في استئصالهم » . أما ابن الأثير فيؤكد هذا المعنى نفسه ويقول « وانما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم » . وفعلنا نجحت خطة صلاح الدين ، اذ ثارت ثائرة الصليبيين لهجوم صلاح الدين على طبرية « وغاز ذلك الفرنج » ؛ فعقد زعماءهم مجلساً للحرب في عكا لبحث الموقف . وفي ذلك المجلس رأى بعض الزعماء الزحف من صفورية على قوات صلاح الدين في طبرية ، في حين رأى البعض الآخر — وعلى رأسهم ريموند الثالث نفسه — خطورة تلك العملية لصعوبة الطريق وقلة الماء .

وكان المفروض أن يكون ريموند الثالث على رأس المتحمسين للزحف على طبرية لاقبال مدينة زوجته ، ولكنه أدرك خطورة ذلك العمل ، وعبر عن رأيه في خطبة ألقاها على زعماء الصليبيين وذكرها مؤرخو الفرنجة ، فضلاً عن ابن الأثير

الذى أتى بنص دقيق لمعانيها . أما الأدلة التى حاول بها ريموند أن يدعم وجهة نظره ، فأهمها أن المسلمين لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً بعد الاستيلاء على طبرية ، وأنهم لن يلبثوا أن ينصرفوا إذا تحاشى الصليبيون الاصطدام بهم ، كما حدث فى المرات السابقة . فاذا فرض وأنهم زحفوا على الصليبيين فى صفورية فإن الصليبيين سيكونون فى مركز أفضل ، لأن المسلمين سيكونون مجهدين بسبب وعورة الطريق وطوله وحرارة الجو وقلة الماء .

على أن هذا الرأى لم يعجب أرناط ، فاتهم ريموند بأنه بالغ فى التخوف من المسلمين وأنه « يريدهم ويميل اليهم » . وأخيراً نجح أرناط صاحب الكرك وجيراردى ريدفورت مقدم الداوية فى اقناع جاي لوزجنان — ملك بيت المقدس الضعيف المتردد — بالزحف على طبرية . وهكذا بدأ الجيش الصليبي زحفه فى أوائل يولية سنة ١١٨٧ فى ظروف بالغة السوء : فروح الصليبيين المعنوية منحطة ، وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار السير فساروا مكرهين ؛ هذا كله بالإضافة الى حرارة الجو القاسية فى شهر يوليو وصعوبة الطريق الذى بلغ طوله ستة عشر ميلاً .

وفى الوقت الذى كان الصليبيون يتحملون كل هذه المشاق فى زحفهم ؛ اذا بصلاح الدين ورجاله ينتظرون قرب طبرية ، نعمون بالماء الوفير والظل المديد ، مكتنزين قواهم لساعة الفصل . لذلك لا عجب اذا أظهر صلاح الدين سروره وارتياحه

عندما علم بزحف الصليبيين اليه ، وقال « جاءنا ما نريد » (١) وكان كل ما فعله صلاح الدين عندما تأكد من تحرك الصليبيين تجاهه هو أنه تقدم نحو خمسة أميال حيث رابط غربى طبرية عند قرية حطين ، وهى قرية غنية المرعى وفيرة الماء ، بها قبر شعيب النبی عليه السلام (٢) .

ولم تنقطع اغارات المسلمين على الصليبيين أثناء زحفهم الشاق من صفورية الى حطين . وكان يوم الثالث من يوليو يوما شديد الحرارة راكد الهواء عندما أدرك الصليبيون « سطح جبل طبرية » المشرف على سهل حطين ؛ وهى منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر ، ولها قمتان ، مما جعل العرب يطلقون عليها اسم قرون حطين . وبوصول الصليبيين الى تلك الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الانهاك « واشتد بهم العطش » ، فى حين على مقربة منهم — وفى أسفل الهضبة ذاتها — تقع قرية حطين ثم بحيرة طبرية بمائها الدافق ؛ ولكن حال بينهم وبين الوصول الى ذلك الماء صلاح الدين وجيوشه . ومهما يكن من أمر فان الداوية وريموند الثالث أبلغوا الملك أنهم لا يستطيعون مواصلة الزحف فى ذلك اليوم وأنه من الخير قضاء الليل فوق الهضبة ، فى حين أصر بعض الأمراء على ضرورة شق طريقهم فورا الى البحيرة لاطفاء نار

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٧٦ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢١ .

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٨٩ .

عطشهم . ولما وجد جاي أن معظم رجاله لا يقوون على السير بسبب الانهاك والعطش أمر بأن يقضى الصليبيون ليلتهم فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين .

وهكذا تم لصالح الدين ما أراد ، فقضى الصليبيون ليلتهم يئنون من العطش والانهاك ، وهم يسمعون أصوات المسلمين في سهل حطين وقد « أكثروا التكبير والتهليل طوال ليلتهم » . وربما دفع العطش بعض الصليبيين الى التسرب ليلا لمحاولة الوصول الى الماء ، ولكن المسلمين وقفوا لهؤلاء بالمرصاد ليقضوا عليهم قبل أن يصلوا الى غرضهم . هذا الى أن المسلمين أشعلوا النار في الأعشاب والأشواك التي تكسو الهضبة « وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان اليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان والدخان وحر القتال » (١) .

وعندما أشرقت شمس يوم السبت ٤ يولييه ، وجد الصليبيون أن صلاح الدين استغل ستار الليل ليحيط بهم « احاطة الدائرة بقطرها » . وبذلك بدأ هجوم المسلمين على الصليبيين في ظروف هي أسوأ ما تكون بالنسبة للجيش الصليبي . ويذكر القاضي ابن شداد ثم المؤرخ أبو المحاسن أن المسلمين أدركوا « أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا ينجيهم الا القتال والجهاد » ؛ ولذلك استماتوا في القتال وشددوا هجماتهم على الأعداء . أما الصليبيون فقد تعذر عليهم الصمود

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

طويلا وهم على تلك الدرجة من الانهاك والعطش « فأخذتهم سهام المسلمين ، وكثر فيهم الجراح ، وقوى الحر ، وسلبهم العطش القرار .. » (١) .

وفي تلك المحنة التي حلت بالصلبيين ثم استطع النجاة سوى ريموند كونت طرابلس ومعه قلة من رجاله ، فقروا تجاه صور . وقد وصفه ابن شداد بالذكاء لأنه بادر بالهرب عندما « رأى امارات الخذلان نزلت بأهل دينه » . ويفسر ابن الأثير الطريقة التي نجا بها أمير طرابلس فقال انه عندما أيقن هلاك الصليبيين ، أراد الفرار بأية وسيلة « فحمل حملة مكروب » وعندئذ فتح له تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين طريقا خرج منه ، وبعد أن خرج « التأم الصف » . أما بقية الصليبيين فقد « آووا الى جبل حطين ليعصمهم من البلاء » ، فأحاط المسلمون بالجبل وظلوا يطاردونهم من أسفل والصلبيون يتراجعون أمامهم نحو أعلى الجبل ، أى فى اتجاه قرون حطين . وفى تلك الأثناء سقط أسقف عكا قتيلا ، ووقع من يديه صليب الصلبوت فاستولى عليه المسلمون ، وكان ذلك « من أعظم المصائب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك » (٢) . وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون « والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم » ، حتى بقى ملك بيت المقدس وحوله مائة وخمسون من الفرسان ، فقبض عليهم المسلمون جميعا ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٩٠ .

(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ٢٣ .

وهم متساقطون على الأرض لا يستطيعون حراكا بسبب الانهالك
والعطش والخوف .

ولم يلبث أن سيق الملك جاي لوزجنان وأرناط صاحب حصن
الكرك ، وجيرار دى ريد فورت مقدم الداوية .. وغيرهم من
أكابر الصليبيين الى صلاح الدين فى مخيمه ، فاستقبلهم استقبالا
حسنا ، وأجلس الملك الى جانبه « وقد أهلكه العطش » . وقد
بادر صلاح الدين بتقديم اناء به ماء مثلوج للملك جاي ، فشرب
منه ، وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب ، وعندئذ غضب صلاح الدين
وصاح : « ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذننى فينال له أمانى » .
وفى رواية صاحب كتاب الروضتين أن صلاح الدين قال لملك بيت
المقدس « لم تأخذ فى سقيه منى اذنا ، فلا يوجب ذلك له منى أمانا » .
ويفسر القاضى ابن شداد هذا التصرف من جانب صلاح الدين
فيقول « وكان على عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير
إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره ، أمن بذلك » (١) .

وكان أن التفت صلاح الدين نحو أرناط وذكره بجرائمه
وخياسته « وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته ، وقال له : كم تحلف
وتنكث ؟ فرد أرناط على لسان الترجمان : قد جرت بذلك عادة
الملوك !! » وعندئذ أمسك صلاح الدين بسيفه ، وأطاح برأس
أرناط ، فجاء ذلك « وفاء نذره » . ويبدو أن قتل أرناط على تلك

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٤
ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ

الصورة أخاف جاي لوزجنان « فارتاع وانزعج » وظن أن دوره
آت عن قريب ، ولكن صلاح الدين هدا روعه وقال له « لم تجر
عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فانه تجاوز حده فجرى عليه
ما جرى » . وبعد ذلك أمر صلاح الدين رجاله برعاية أمراء
الصليبيين وأسراهم .

وبعد ذلك النصر المبين ، انصرف صلاح الدين من حطين ،
في حين سيق الأسرى الى دمشق حيث حبس الأمراء ويبيع عامة
الفرسان والجند في أسواق الرقيق . وقد بلغ من كثرة الأسرى أن
الأسير كان يباع في دمشق بثلاثة دنانير ، وكان « يباع الرجل
وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة » (بالجملة) . وقد بلغ
سعر الجملة للأسرة المؤلفة من الصليبي وزوجته وأبنائه الثلاثة
وبنتيه ، ثمانين دينارا !! (١) .



استرداد بيت المقدس وانهيال مملكة الصليبيين :

الواقع ان حطين كانت أعظم من مجرد نصر حربي بالنسبة
للمسلمين ، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيرا بنجاح المسلمين في
القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور
الوسطى . أما بالنسبة للصليبيين فان حطين كانت أضخم من مجرد
كارثة حربية ، لأنه لم ينتج عنها أسر جاي لوزجنان ملك بيت المقدس
وضياع هيبة مملكته وسلطتها الفعلية الى الأبد فحسب ، والما

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٨٢ .

تج عنها أيضا نقص ملموس في الفرسان المحاربين بعد أن سقط
زهرة فرسان الصليبيين ، وغالبية جيش مملكة بيت المقدس بين
قتلى وأسرى في يوم حطين ؛ « فمن شاهد القتلى قال ما هناك
أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل !! » ، على قول
أبي شامة .

وليس بخاف علينا أن الامارات الصليبية التي خلقت خلقا
ضعيفا في أواخر القرن الحادى عشر ، وظلت منذ ذلك الوقت تعاني
نقصا شديدا في المحاربين ؛ كانت أضعف من أن تتحمل الكارثة التي
نزلت بها في حطين . حقيقة انها استطاعت البقاء بعد ذلك قرابة
قرن من الزمان ، ولكن بقاءها لم يكن وليد قوتها بقدر ما كان
نتيجة لضعف القوى الاسلامية وتفككها وعدم وحدتها وبخاصة
في مصر والشام بعد وفاة صلاح الدين .

ومهما يكن من أمر ، فإن الصليبيين في بلاد الشام غدوا بعد
موقعة حطين تحت رحمة صلاح الدين ، فشرع يفتح البلاد والمدن
الصليبية واحدة بعد أخرى فتحا سريعا متواصلا . ولعل أهم
ما يسترعى الانتباه في ذلك الدور من أدوار الحروب الصلاحية ،
هو اعتدال صلاح الدين ، وبعده عن التطرف ، وتمسكه بمبادئ
الأخلاق والرحمة والتسامح ، وهو الأمر الذى شهد له به كافة
المؤرخين ، الغربيين والشرقيين سواء . من ذلك أنه عندما استسلمت
قلعة طبرية لصلاح الدين في اليوم التالى لموقعة حطين ، فانه عامل
الأميرة اشيفا معاملة كريمة « وأخرجها من حصنها بالأمان ووفى
لها وللفرسان بنيتها بشروط الايمان ، فخرجت بمالها ورجالها

ونسائها ، وسارت الى طرابس بلد زوجها القومص (ريموند الثالث) بمالها وحالها « (١) .

وكان من الأمراء القلائل الذين نجوا من موقعة حطين الأمير باليان الثانى دى ابلين — الذى أطلق عليه المؤرخون العرب اسم « ابن يارزان » — والذى تزوج من الملكة ماريا كومنين أرملة عمورى الأول ملك بيت المقدس الأسبق . وقد سمح صلاح الدين — وفقاً لسياسته فى التسامح والافراط فى الحسنى مع خصومه — لذلك الأمير بالذهاب الى بيت المقدس ، بشرط عدم المبيت فيها أكثر من ليلة واحدة لأخذ زوجته وأولاده منها . وعندما وصل باليان الى بيت المقدس ، وجد المدينة فى حالة يرثى لها لعدم وجود فرسان يدافعون عنها ، « اذ لم يبق بها سوى النساء والرهبان » ، فضلاً عن انهيار الروح المعنوية للأهالى عقب ما سمعوه من أنباء كارثة حطين وأسر ملكهم . وقد فرح الصليبيون فى بيت المقدس برؤية باليان ، وتوسلوا اليه بالدموع ليبقى معهم ويدافع عنهم ، فنسى وعده لصلاح الدين ، وأخذ يعمل فى سرعة لا تقاذ ما يمكن انقاذه من الحطام الصليبي . ذلك أنه جمع من استطاع جمعهم من الفرسان وأبناء الفرسان فوق سن الخامسة عشر ، فضلاً عن الصناع والتجار الصالحين للقتال ، ثم لجأ بالاتفاق مع البطرق الى الاستيلاء على ما بكنيسة القيامة من نفائس معدنية وأوائى فضية لصهرها وضربها نقوداً يستعين بها على قضاء حاجات

(١) المرجع السابق ؛ ص ٧٩ .

الدفاع واستتجار الجند . ومع ذلك فانه من الواضح أن جميع تلك الاجراءات كانت واهية ، لا تكفى لانقاذ بيت المقدس بسبب نقص العنصر الأساسى فى الحرب والدفاع ، وهم الفرسان المدربون .

على أن صلاح الدين لم يلبث أن خيب ظن الصليبيين ، فبدلاً من أن يتجه الى بيت المقدس ليستولى عليها استيلاء آسناً سهلاً ، اذ به يتجه صوب عكا أولاً . وربما بدا فى ذلك مظهر من مظاهر عبقرية صلاح الدين الحربية وبعد نظره ، اذ اختار أن يبدأ بالاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية ، ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجى — وبخاصة الغرب الأوروبى — فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام ؛ وبعد ذلك تتساقط فى يده المعاقل والمدن الصليبية فى الداخل بعد أن ينقطع الشريان الذى يربطها بقلب الحركة الصليبية ؛ وهو الغرب الأوروبى . هذا فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على عكا وغيرها من موانئ الشام الصليبية سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام (١) .

أما عكا ، فلم تكن عندئذ أحسن حالا من بيت المقدس ، بسبب افتقارها الى الفرسان والمقاتلين . وكان حاكم عكا — جوسلين الثالث دى كورتناى — أحد الفرسان المعدودين أيضاً ، الذين

(١) انظر : —

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢
ص ٨١٢ — ٨١٣ .

نجوا من حطين مع ريموند الثالث وباليان الثاني . ولم يجد جوسلين ضمنا لحماية عكا سوى اعطائها لريموند الثالث أمير طرابلس . على أن جوسلين الثالث نفسه كان ضعيفا متخاذلا ، فلم تكدم مقدمة الجيش الاسلامي تقرب من عكا ، حتى انهارت مقاومته وعرض على المسلمين تسليم المدينة . وكان أن وصل صلاح الدين نفسه أمام عكا في ٨ يوليو ، وعندئذ أرسل له جوسلين مفاتيح أبواب المدينة ، بشرط تأمين أهاليها على أرواحهم وممتلكاتهم « فأمنهم (صلاح الدين) على أنفسهم وأموالهم ، وخيرهم بين الإقامة والظعن »^(١) . وقد غنم المسلمون في عكا غنائم طائلة ، واستولوا على مقادير ضخمة من الأموال والذخائر والبضائع ، لأن هذه المدينة بالذات كانت ذات مكانة تجارية هامة ، وعن طريقها تتم معظم تجارة الصليبيين مع الغرب ، أو على حد تعبير أبي شامة « فانها كانت مظنة التجار » .

على أن بعض أهالي عكا من الصليبيين لم يعجبهم موقف جوسلين ، وعز عليهم أن تستسلم المدينة للمسلمين دون مقاومة ، فأشعلوا النار في بعض أحيائها ومبانيها ، ولكن كل ذلك لم يحل دون دخول صلاح الدين عكا يوم ١٠ يوليو سنة ١١٨٧ . ولم يلبث أن وجد الصليبيون داخل عكا في صلاح الدين قلبا كبيرا « فوهب لهم عصمة الأتقى والأموال » . ويقال ان صلاح الدين أطلق أربعة آلاف أسير من المسلمين كانوا في عكا ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٢٠١ .

ورتب في كنيسة العظمى منبرا أقيم فيه الجمعة ، كما أقطع مدينة عكا ذاتها لابنه الأفضل .

ومن الواضح أن ذلك المسلك المعتدل الذي سلكه صلاح الدين تجاه الصليبيين ، إنما ساعده في الاستيلاء على كثير من المدن الصليبية الساحلية والداخلية ، كما أدى الى احتفاظ عكا وغيرها من المدن الصليبية التي استولى عليها المسلمون بعناصرها النشيطة في الميدان التجارى — مثل البنادقة والجنوية واليازنة والقطلان — مما أدى الى استمرار رواج الحياة الاقتصادية في بلاد الشام . هذا وان كانت المراجع العربية لم تخل من اشارات عن الأموال الطائلة التي فرقها صلاح الدين وابنه الأفضل على رجاله وأصحابه مما غنمه بعكا (١) .

وبينما أقام صلاح الدين في عكا ، وجه عساكره للاستيلاء على المعاقل القربية ، فاستولوا على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة والطور ، وغيرها من المواقع والحصون القربية من عكا . وفي ذلك الوقت هاجم العادل — أخو صلاح الدين — المدن الساحلية في فلسطين ، فاستولى على حصن مجدل يابا (مجد ليابا) — بين يافا ونابلس — وهاجم يافا نفسها فقاومته ، ولكنها سقطت أخيرا في يده .

كذلك وجه صلاح الدين ابن أخته حسام الدين لاجين فاستولى على سبسطية ، كما استولى على قلعة تبين — « وهى

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٨٦

ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث ٥٨٣ هـ .

من القلاع المنيعه — ولكنه صادف مقاومة شديدة من حاميتها جعلته يستنجد بخاله صلاح الدين الذى أسرع اليه « وضيق عليها بالزحف الخناق » حتى استسلمت القلعة فى نهاية الأمر فى ٢٩ يوليو سنة ١١٨٧ ، وعندئذ حقق صلاح الدين وعده ، فسمح لحاميتها بالخروج منها فى أمان . وعلى العكس من ذلك استسلمت صرند وصيدا للمسلمين دون أدنى مقاومة « فأخذها صفوا عفوا بغير قتال » فى أواخر يوليو سنة ١١٨٧ ، وبذلك جاء دور بيروت التى ظهر صلاح الدين أمامها فى نهاية يوليو . وكانت بيروت — على قول ابن الأثير — « أحصن مدن الساحل فى بلاد الشام » ، فضلا عن حسنها وجمالها ، فتحصن الصليبيون وراء أسوارها وحاولوا الدفاع عنها ، ولكنهم كانوا من التجار وأصحاب الحرف ، ولم تكن معهم فئة من الفرسان تجيد استخدام السلاح ، فاستسلموا لصلاح الدين فى سادس أغسطس سنة ١١٨٧ .

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين نحو جبيل — التى كان صاحبها هيو الثالث قد أسر فى طبرية ، والذى عرض على صلاح الدين استعداده لتسليم جبيل مقابل إطلاق سراحه — وفعلا استحضره صلاح الدين من دمشق « فى قيده » حيث أمر الحامية بالتسليم ، فاستولى عليها صلاح الدين . وهنا نلاحظ أنه اذا كان صلاح الدين قد استولى على معظم المدن والقلاع والمراكز

الساحلية في جنوب بلاد الشام ، الا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحرارا ، كما ترك لهم حرية البقاء أو الخروج ، فقصده معظمهم مدينة صور حيث تجمعت البقايا الصليبية المتخلفة عن مملكة بيت المقدس . وسرعان ما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا ، بعد أن « اجتمع فيها كل افرنجى بقى في الساحل » فتركها مؤقتا ، وآثر الانصراف الى غيرها (١) .

وقبل أن يتجه صلاح الدين الى بيت المقدس ، اختار أن يستولى أولا على عسقلان ، ذلك المركز الهام الذى طالما اتخذه الصليبيون قاعدة لتهديد مصر من ناحية ، وقطع المواصلات بينها وبين الشام من ناحية أخرى . وعندما وجد صلاح الدين أن عسقلان ربما أتعبته بسبب قوة تحصينها واصرار حاميتها الصليبية على المقاومة ، استحضر الملك جاكى لوزجنان وجيرار دى مونتفورت مقدم الداوية من دمشق ، ووعدهما بتحريرهما اذا هما ساعداه بنفوذهما الأدبى والمعنوى فى حمل البقايا الصليبية بفلسطين على التسليم . ولكن أهل عسقلان رفضوا الاستجابة للملك وزميله « وردوا عليهما أقبح رد » . وفى تلك الأثناء استولى صلاح الدين على مواقع عديدة كالرملة وبينا والداروم ، كذلك قبل مقدم الداوية أن يسلم صلاح الدين غزة والنطرون وبيت جبرين ، وهى القلاع التى كانت بأيدي الداوية فى فلسطين . أما أهل عسقلان فقد استمروا فى المقاومة حتى نفدت

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ .

امكانياتهم وعندئذ طلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وأموالهم .

وقد أطلق صلاح الدين سراح جيرار مقدم الداوية مقابل ما أداه من معونة له ، لا سيما في حثه حامية غزة على التسليم . أما جاي لوزجنان الذي لم يستطع أن يحقق العمل الذي وعد صلاح الدين بتحريره في مقابلته ، فقد أرسل الى نابلس . وفي نفس الوقت وافق صلاح الدين على ارسال رسالة للأميرة سيبيل زوجة جاي في بيت المقدس لدعوتها للحضور الى نابلس للإقامة مع زوجها . وكان أن رحبت سيبيل بتلك الدعوة ، وأسرعت الى نابلس لتقيم الى جانب زوجها الأسير جاي لوزجنان .

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين في داخلية فلسطين سوى بيت المقدس ، فأخذ يستعد للاستيلاء عليها . وكان صلاح الدين قد استقبل — وهو أمام عسقلان — بعثة من أهل بيت المقدس ، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن الصليبية في فلسطين ، أي أن يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ، ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج من المدينة سالماً . ولكن أهل بيت المقدس الذين أخذ باليان (ابن بارزان) يقوى فيهم روح المقاومة ، رفضوا ذلك العرض ورأوا « أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس » (١) . وعندئذ أقسم صلاح الدين على أن يسترد بيت

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ، ص ٢١١ .

المقدس بحد السيف . ومع ذلك فقد ظل صلاح الدين محتفظا
بكريم أخلاقه ، فسمح بخروج الملكة مارياكومنين — زوجة
باليان — وأمر بتوفير الحراسة لها من بيت المقدس حتى طرابلس ،
كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين .
ثم عاد صلاح الدين وكرر عرضه على أهل بيت المقدس من
الصليبيين التسليم بشروط طيبة ، وذلك رغبة منه في عدم
استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها عند المسلمين والمسيحيين
سواء ؛ ولكنهم أصروا على موقفهم ؛ وعندئذ قرر صلاح الدين
أن « لا يبرح حتى يبر قسمه ، ويرفع بأعلاه علمه » (١) . وكان
أن أعد صلاح الدين عدته لمهاجمة بيت المقدس ، فنزل أولا
بالجانب الغربى من المدينة ، ولكنه وجد ذلك الجانب قوى
التحصين مشحونا بالمقاتلين ، فأخذ يطوف حول المدينة خمسة
أيام ليتجسس موطن الضعف في أسوارها حتى استقر رأيه أخيرا
على أن يركز هجومه في الجهة الشمالية . وفي ٢٠ سبتمبر
سنة ١١٨٧ بدأ هجوم صلاح الدين عند باب عمرو في الجانب
الشمالى من بيت المقدس — فحمل المسلمون « حملة رجل
واحد » حتى وصلوا الى سور المدينة وتقبوه .

وفي الوقت الذى اشتد هجوم صلاح الدين على بيت المقدس
اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من
أرثوذكس وكاثوليك ؛ حتى أن الفريق الأول أعلن أنه يفضل

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ٤٣ .

الحكم الاسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين . وتشير بعض المراجع الى أن ثمة اتصالات سرية تمت عندئذ بين صلاح الدين وطائفة الأرثوذكس داخل بيت المقدس ، تعهد هؤلاء بفتح أبواب بيت المقدس للمسلمين .

ولم يلبث باليان دى ابلين أن أدرك استحالة المقاومة بعد أن أحس بنقص الرجال المقاتلين بصورة مخيفة ، حتى قيل انه كان فى بيت المقدس عندئذ رجل واحد من الصليبيين مقابل كل خمسين من النساء والأطفال . لذلك « أرسلوا جماعة من كبرائهم فى طلب الأمان وتسليم القدس » بشرط احترام من بالمدينة من الصليبيين والسماح لمن يشاء بمغادرتها . وكانت هذه الشروط نفسها هى التى سبق أن عرضها صلاح الدين من قبل ورفضها باليان . ولكن صلاح الدين امتنع فى تلك المرة ، وأصر على تسليم المدينة دون قيد أو شرط ، لأنه أقسم على الاستيلاء عليها بحد السيف ، وقال لرسل الصليبيين « لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله (أهل القدس) حين ملكتموه سنة احدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى ، وأجزى السيئة بمثلها » (١) .

وعندما ساء موقف الصليبيين داخل بيت المقدس ، أخذوا يتدبرون المصير القامى الذى ينتظرهم ، وعندئذ حاولوا مرة أخرى اقناع صلاح الدين بالعفو عنهم ، فخرج باليان بنفسه لاستعطاف صلاح الدين ، ولما وجده مصرا على موقفه لجأ الى

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

لهجة فيها كثير من الترغيب والتهديد ؛ فقال لصلاح الدين : « اذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ، ولا تترككم تعملون منا دينارا ولا درهما ، ولا تأسرون رجلا ولا امرأة . فاذا فرغنا من ذلك أخرجنا الصخرة والمسجد الأقصى ، وغيرها من المواضع الشريفة ، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه . ثم خرجنا اليكم وقاتلنا قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله » (١) .

وكان أن استشار صلاح الدين أصحابه في الموقف ، فوافقوا على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل « يستوى فيها الغنى والفقر » ، وخمسة للمرأة وواحد للطفل . أما الفقراء والمعدمون من الصليبيين ، فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغا اجماليا قدره ثلاثون ألف دينارا . واشترط صلاح الدين أن يؤدي الصليبيون الفداء المفروض عليهم في مدى أربعين يوما « ومن انقضت الأربعون يوما ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا » .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٧
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢١٤ .

ويعصور المؤرخون خروج الصليبيين من بيت المقدس عندئذ وقد باعوا متاعهم « بالمجان في سوق الهوان » ، واضطروا الى ترك الكثير منه لثقله وصعوبة حمله . ويطبق أبو شامة عليهم الآية الكريمة « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

وفي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وشاءت الظروف أن يوافق ذلك اليوم في التاريخ الهجرى السابع والعشرين من رجب ، وهى ذكرى ليلة المعراج التى أسرى الله فيها ليلا بنبيه محمد — عليه الصلاة والسلام — من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى . وكان أن احتل صلاح الدين قلعة المدينة ، وحافظ على وعده لمن فيها من الصليبيين ، فسمح لهم بالخروج بعد دفع المال المتفق عليه . وقد رتب صلاح الدين على كل باب من أبواب المدينة أمينا من الأمراء ليجمعوا من الخارجين منه المال المقرر عليهم . وكان الملك العادل فى صحبة أخيه صلاح الدين عند دخول بيت المقدس ، فأظهر تسامحا كبيرا تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية . ومن الأمور التى أدهشت المسلمين أن يروا هرقل بطرق بيت المقدس يدفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادر المدينة حاملا ما استطاع حمله من الذهب والفضة ، ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة التى استولى عليها ، دون أن يبالى بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن

فدائهم . ويذكر ابن الأثير أن صلاح الدين رفض أن يتعرض
لأموال البطرك التي حملها معه ، وقال « لا أغدر به ! » (١) .
وقد نادى بعض المسلمين عندئذ بهدم كنيسة القيامة ومعاملة
المسيحيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت
المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ « وقالوا اذا هدمت ونبشت المقبرة وعفيت
وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها آمداد الزوار ..
ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة » . ولكن صلاح الدين
نهرهم عن ذلك وأمر باحترام الأماكن المسيحية المقدسة ونادى
بالتزام روح التسامح تجاه المسيحيين لأنه ، « عندما فتح أمير
المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس في صدر الاسلام ، أقرهم على
هذا المكان ، ولم يأمر بهدم البنيان » .

وشهد المؤرخون المسيحيون — المعاصرون وغير المعاصرين —
بكرم أخلاق صلاح الدين وسماحته ، وبأن صلاح الدين عامل
نساء الصليبيين معاملة حميدة وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس
معززات مكرمات ، ومعهن أموالهن وأتباعهن وحشمهن . وكانت
زوجة الملك جاي لوزجنان الأسير موجودة في بيت المقدس ،
فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها في الأسر
في نابلس ، فأذن لها كما سبق أن ذكرنا . كذلك طلبت الأميرة
اتينت أرملة أرناط من صلاح الدين الخروج ، كما طلبت اطلاق

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ
ابن واصل مفرج الكرب ، ج ٢ ص ٢١٦
أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١١٥ .

سراح ابنها من زوجها الأول ، فأكرمها السلطان ، وسمح لها بالسفر « وهى بنوابها محوطة وبرأيها منوطة » . ثم أطلق سراح ابنها بعد استيلاء العادل على الكرك فى نوفمبر سنة ١١٨٨ والشوبك فى يونية سنة ١١٨٩ . أما اليتامى والشيوخ والأرامل من الصليبيين ، فإن صلاح الدين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء ، بل منحهم أيضا مساعدات مالية من ماله الخاص . وهكذا بدا الفارق عظيما بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها المسلمين عندما سقطت فى أيديهم سنة ١٠٩٩ ، فذبحوا من صادفوه فيها من المسلمين ، وكتب المؤرخ المسيحى ابن العبرى يقول « ولبت الفرنج فى البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا » (١) ، فى حين كتب مؤرخ صليبي شاهد عيان يفخر بأن « جنودنا وخيولنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين !! » .

وبعد أن تسلم صلاح الدين الصليبيين فى بيت المقدس القدية المتفق عليها ، أخذ يعد الترتيبات لترحيلهم الى الأراضى الصليبية فى صور وطرابلس . ولذلك جمعهم تحت حراسة شديدة وقسمهم الى ثلاث مجموعات : مجموعة قادها الداوية ، ومجموعة قادها الاسبتارية ، والمجموعة الثالثة قادها باليان نفسه ، ثم أرسلهم مخفورين خوفا عليهم من أن يتعرضوا لاعتداءات البدو

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ؛ ص ١٩٧ .

في الطريق . على أن الخطر الذي هدد أولئك الصليبيين النازحين
من بيت المقدس لم يأت من جانب المسلمين ، وإنما أتى من جانب
إخوانهم الصليبيين أنفسهم ؛ إذ لم يكادوا يدخلون حدود أمانة
طرابلس الصليبية ، حتى انقض عليهم بعض أمراء الصليبيين
واعتدوا عليهم ، وعندئذ اتجه أولئك المشردون شمالا صوب
مدينة طرابلس ذاتها . ولكن أهل طرابلس خشوا على أنفسهم
وعلى مدينتهم من تلك الجموع الخاوية الوفاض ، فأغلقوا أبواب
مدينتهم في وجوههم ورفضوا أن يستضيفوا إخوانهم في محنتهم
ليخففوا عنهم بعض آلامهم ، بل إن أهل طرابلس نهبوا ما بقى
مع بعضهم من أموال تركها لهم صلاح الدين . وهكذا لم يجد
أهل بيت المقدس من إخوانهم الصليبيين جزءا من المعاملة الرحيمة
التي لقوها من صلاح الدين ؛ فذهب بعضهم إلى أنطاكية ، حيث
وجدوا مقرا ومقاما إلى حين (١) .

وعندما سمع المسلمون بفتح بيت المقدس « أتوه رجالا
وركبانا من كل جهة لزيارته » على قول المقرئ ؛ في حين
غسلت الصخرة نفسها « بعدة أحمال ماء ورد وبخرت وفرشت » .
ثم دخل صلاح الدين المسجد الأقصى يوم الجمعة ٩ أكتوبر
(رابع شعبان) ليصلي في قبة الصخرة ويشكر الله على توفيقه
ونصره . ثم أمر صلاح الدين فورا « بعمارة المسجد الأقصى

(١) انظر : —

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢

ص ٨٢٤ - ٨٢٥ .

واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه ...
أما المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة ، فقد سمح لهم بالبقاء
في بيت المقدس بشرط دفع الجزية فضلا عن الفدية المتفق عليها ،
مع إعفاء الفقراء وغير القادرين من كل ذلك . كذلك فتحت
كنيسة القيامة أبوابها لاستقبال قاصديها من الحجاج والزوار
المسيحيين . ولا شك في أن الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها هم
الذين استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس ،
اذ أتاحت لهم الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم وهيمنتهم
على الأماكن المسيحية المقدسة .

وأما اليهود فكانوا أول من هلك لطرد الصليبيين من بيت
المقدس . وقد ذكر الشاعر اليهودي الأسباني يهودا الحرزي
الذي زار بيت المقدس سنة ١٢١٦ — ١٢١٧ أن فتح صلاح الدين
لبيت المقدس أعقبته هجرة عدد كبير من اليهود إليها ، وأن
صلاح الدين نفسه لم يمنعهم من الإقامة في المدينة . وهكذا
نجد الصهيونية في التاريخ لا تكتفى بالشماتة في المسيحيين ،
وانما تريد دائما أن تحقق مكاسبها على حساب المسلمين
والمسيحيين سواء !! .

* * *

صلاح الدين وغزو شمال الشام :

لم يكد صلاح الدين يفرغ من غزو فلسطين ، حتى أخذ يوجه
كل قواه نحو إخضاع البقايا الصليبية على شاطئ البحر ، مثل
صور وطرابلس وأنطاكية ، فضلا عن القلاع الداخلية التابعة لهم ،

مثل حصن الأكراد وحصن المرقب . وقد فشلت جميع هجمات صلاح الدين ضد صور واستعصت عليه للأسباب التي سنوضحها فيما بعد ، فلم يجد بدا من تركها وتوجيه هجماته ضد امارتى طرابلس وأنطاكية ، فى الوقت الذى لم يصرف نظره عن البقايا الصليبية القليلة فى جنوب الشام .

وتفصيل ذلك أن فرقة من جيش صلاح الدين استولت على قلعة هونين « وهى من أحصن القلاع وأمنعها » ، فجاء الاستيلاء عليها متما للاستيلاء على حصن تبين . هذا فى الوقت الذى اتجهت فرقة أخرى من الجيش الأيوبى لمهاجمة صفد — الى الشمال الغربى من طبرية — وكانت تابعة للداوية ، وحصن كوكب الى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية ، وكان تابعا للاستتارية . ولكن هاتين القلعتين كانتا محصنتين تحصينا قويا فصمدتا ، ولم يستطع صلاح الدين أن يستولى عليهما الا بعد جهد شاق استمر قرابة عام ، فاستسلمت صفد فى أواخر عام ١١٨٨ ، وكوكب فى أوائل عام سنة ١١٨٩ .

كذلك حاول صلاح الدين مهاجمة حصن الأكراد فى صيف سنة ١١٨٨ ، ولكن الحصن كان قويا ودافع عنه أصحابه من الاستتارية فى شجاعة ، فارتد عنه صلاح الدين للقيام بهجوم جديد على شواطئ طرابلس وأنطاكية . وقد هاجم صلاح الدين أنطربوس ولم يستطع الاستيلاء على القلعة « وأمر بوضع النار فى البلد وأحرق جميعه » . ولم يحاول صلاح الدين أن يتعرض

لحصن المرقب القوى « لأنه من حصونهم التي لا ترام ولا يحدث أحد نفسه بملكه لعلوه وامتناعه .. » (١) لذلك اتجه صلاح الدين نحو بانياس في أقصى شمال امارة طرابلس واستولى عليها ، وبعد ذلك أوغل في امارة أنطاكية ، حيث استولى على جبلة في يوليو سنة ١١٨٨ . وبعد أن استولى صلاح الدين على حصن بكسرايل ، على طريق حماه ، اتجه لمهاجمة اللاذقية — وهي أكبر موانئ امارة أنطاكية — فاستولى عليها في ٢٣ يوليو سنة ١١٨٨ بعد أن تركها الصليبيون « لعجزهم عن حفظها » . ومن اللاذقية اتجه صلاح الدين — ومعه ابنه الظاهر صاحب حلب — لمهاجمة حصن صهيون « وهو حصن يفوق الحصون » لقوته ومناعته وارتفاعه على الجبال ، فقاوم مقاومة عنيفة حتى استسلم في نهاية شهر يولية (٢) .

وهكذا أخذت معاقل امارة أنطاكية تتساقط في يد صلاح الدين واحد بعد آخر ، فلم يكتف بالاستيلاء على القلاع التابعة لحصن صهيون مثل حصن بلاطنس وحصن العيذون وحصن الجماهرتين ؛ وإنما هاجم صلاح الدين جسر الشغفر في الشمال الغربي على نهر العاصي ، فاستولى على قلعة بكاس « بغير قتال » في ٩ أغسطس ، وعلى قلعة الشغفر نفسها في ١٢ أغسطس وبعد ذلك جاء دور سرمانية (سرمينية) ثم برزية في أواخر الشهر نفسه ؛ حتى

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٤ هـ .

(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ؛ ص ١١٨ .

استولى على جميع القلاع التى كانت بمثابة المخافر الأمامية
لمدينة أنطاكية ، ولم يبق لآمارة أنطاكية نفسها سوى ثلاث قلاع
حصينة هى القصير وبغراس ودر بساك .

وفى تلك المرحلة من مراحل توسع صلاح الدين على حساب
الصليبيين فى أنطاكية ، استمرت الأميرة سيبيل زوجة بوهيموند
الثالث أمير أنطاكية فى حياتها للصليبيين ، فمضت فى طريقها تتصل
سرا بصلاح الدين « وتطالعه على أسرار الفرنج » حتى كشفت
له كثيرا من عورات الصليبيين ومواطن الضعف فيهم ، « وكان
السلطان يكرمها لذلك ويهدى اليها أنفس الهدايا »^(١) . وبفضل
هذه المعونة ، استطاع صلاح الدين أن يستولى على قلعة برزية
التى كانت صاحبها — شقيقة سيبيل — فأرسلها صلاح الدين
مكرمة الى أنطاكية ، ومعها زوجها وجماعة من أصحابها وصهرها ،
وذلك « اكراما لامرأة البرنس (سيبيل) فشكرته على ذلك ودامت
مودتها له ! » .

وهنا نكرر القول بأن فتوح صلاح الدين عقب حطين اتصفت
بالاعتدال والبعد عن التطرف والعنف مع أعدائه ، فعامل أسرى
الصليبيين معاملة طيبة ، ومنح كثيرا من أهالى المدن الصليبية
التى سقطت فى يده الحرية ، وسمح لهم بالنزوح الى صور
أو غيرها ، هذا فضلا عن حرصه على الرفق بالنساء والأطفال

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٣١
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٤ هـ .

والشيوخ من الصليبيين . ويعترف الكتاب الأوروبيون أنفسهم بأن صلاح الدين ظهر على مستوى من كرم الأخلاق والشهامة لا يفوق المستويات العادية التي عرفها فرسان الغرب فحسب ، بل يفوق المثل العليا التي لم يصل إليها أولئك الفرسان في يوم من الأيام . وربما كان السر في تلك المعاملة — بالإضافة الى طبيعة صلاح الدين وتمسكه بروح الاسلام وخلقه — هو عدم رغبته استشارة الغرب الأوروبي ضده اذا هو تطرف في معاملة الصليبيين وعاملهم بمثل ما عاملوا به المسلمين من قبل . وفي الوقت نفسه لم يخرج صلاح الدين من حسابه احتمال مجيء حملة صليبية جديدة ، بل أخذ حذره وأعد عدته لذلك الاحتمال ، فحصن القلاع القوية التي سقطت في يده ، وهدم المعاقل الضعيفة التي قد يفيد منها الصليبيون في المستقبل .

وبهذه الروح الكريمة استطاع صلاح الدين أن يستولى على المنطقة الواقعة جنوبى أنطاكية ، فانتقل بعد ذلك الى شمالها ليهاجم حصن دربساك « وهو حصن حصين وقلعة منيعة ، وهو بالقرب من أنطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها » وقد دافع أصحاب ذلك الحصن من الداوية عن حصنهم دفاعا عنيدا ، حتى اضطروا الى التسليم في منتصف سبتمبر ١١٨٨ . أما حصن بغراس (بغراض) الذى كان ملكا للداوية أيضا فقد استولى عليه صلاح الدين فى أواخر سبتمبر سنة ١١٨٨ ، « بما فيه من ذخائر وأموال وسلاح » ، مما أمد المسلمين بموقع فريد على الطريق بين أنطاكية وامارة قيليقية الأرمنية .

وهكذا أصبحت امارتا أنطاكية وطرابلس مقصودتى الجناح
على قول أبى شامة ، ولم يبق منهما سوى مدينتى أنطاكية
وطرابلس ، فضلا عن حصنى المرقب والأكراد ومدينة أنطربوس .
وكان ذلك فى الوقت الذى تعبت جيوش صلاح الدين « ومل
العسكر الغريب الإقامة وأبدى السامة » وأحسن الجند بحاجتهم
الى فترة من الراحة التى لم يتذوقوا طعمها منذ حطين . لذلك
لم يكدهيموند الثالث صاحب أنطاكية يطلب الهدنة حتى أجابه
صلاح الدين الى طلبه ، فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثمانية
أشهر^(١) . على أن تلك الهدنة كانت مع امارة أنطاكية « لاغير »
على قول ابن شداد ، مما أباح لصلاح الدين — عقب تسريح
معظم جيشه الكبير — أن يهاجم الداوية فى صفد والاستبارية فى
حصن كوكب ، وهما المركزان اللذان صمدا أمام هجمات
صلاح الدين فى أواخر سنة ١١٨٧ — كما سبقت الإشارة —
ولم يستطع الاستيلاء عليهما الا فى أواخر سنة ١١٨٨ وأوائل
سنة ١١٨٩ .

وفى تلك الأثناء كان المسلمون ملازمين حصار حصن الكرك
ومنازلته حتى نفدت ذخائر الفرنج وأكلوا دوابهم « وصبروا
حتى لم يبق للصبر مجال » على قول ابن واصل . وأخيرا اضطر
الصليبيون الى الاستسلام فى حصن الكرك فى نهاية سنة ١١٨٨ ،

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١٢٩
ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٢٧٠ .

بعد أن « فنيت أزوادهم وثقلت موادهم ويئسوا من نجدة
تأتيهم ، حتى أكلوا لحم آخر حصان فيه » . أما حصن الشوبك
فقد استسلم بعد ذلك ببضعة أشهر . وبذلك لم يبق للصليبيين
في فلسطين من القلاع القوية الا حصن الشقيف أو شقيف أرنون
قرب بانياس ، وقد احتفى به رينو صاحب صيدا عقب استيلاء
المسلمين على هذه المدينة الأخيرة . وعندما عسكر صلاح الدين
برجاله في مرج عيون استعدادا لمهاجمة حصن الشقيف ، فكر
رينو في الاستسلام ، « وما أحسنا به الا وهو قايم على باب
خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه . وكان من كبار
الافرنج وعقلائها وكان يعرف العربية ويتكلم بها . فحضر بين
يدى السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه ،
وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم المكان اليه من غير تعب ولا قتال ،
واشترط أن يعطى موزعا يسكنه بدمشق ، فانه بعد ذلك لا يقدر
على مساكنة الفرنج » (١) .

وهكذا لم يبق من مملكة بيت المقدس في قبضة الصليبيين
غير صور التي أخطأ صلاح الدين خطأ جسيما بعدم الاستيلاء
عليها عقب عكا وتركها تلك المدة لتتجمع فيها البقايا الصليبية التي
خرجت من مختلف مدن وحصون مملكة بيت المقدس ، لتمد
المدينة بحصانة بشرية الى جانب حصانتها الطبيعية . وعند استيلاء
صلاح الدين على عكا كانت صور تابعة لرينو حاكم صيدا

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ١٢١ - ١٢٢ .

الذى كان مستعدا لتسليمها لصالح الدين عندئذ ، ولكن
صالح الدين تأخر فى القيام بتلك العملية . وصادف أن وصلت
الى ميناء صور عندئذ — فى منتصف يوليو سنة ١١٨٧ — سفينة
عليها الأمير كونراد دى مونتفرات لاجئا ، فرحب به أهل صور ،
وأخذ يدعم تحصينات المدينة ويقوى الروح المعنوية بين الصليبيين
فيها ، حتى صار من العسير على صالح الدين الاستيلاء عليها ،
وخاصة بعد أن تلقت بعض المعونات عن طريق البحر (١) .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢
ص ٨٣٤ .

الفصل الخامس فارس من الشرق وفارس من الغرب

الموقف في بلاد الشام عقب انتصارات صلاح الدين :

استطاع صلاح الدين أن يحقق عملا ضخما في المدة القصيرة الواقعة بين سنتي ١١٨٧ ، ١١٩٠ . ففي مستهل سنة ١١٩٠ لم يبق للصليبيين من مملكة بيت المقدس الا مدينة صور ؛ ومن اماره طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة أنطربطوس وحصن الأكراد وبعض المراكز الأخرى الثانوية ، ومن اماره أنطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب . وهكذا بدا البنيان الصليبي الكبير وكأنه أقيم على شفا جرف هار ، فانهار به فجأة قبل أن ينقضى على اقامته قرن واحد من الزمان .

وسواء كان الفضل في تلك الانتصارات السريعة العظيمة الأثر التي أحرزها صلاح الدين راجعا الى صحوة المسلمين وافتقارهم لحقيقة الخطر الصليبي واتحادهم لمواجهته ؛ أو الى ما كان هناك من اتقسامات وحزازات بين صفوف الصليبيين ؛ فالتا يجب ألا ننسى أثر شخصية صلاح الدين — وهو الرجل الذي تزعم حركة الجهاد في ذلك الدور — وأخلاقه وشجاعته وبعد نظره وصبره على الجهاد .

وفي الوقت الذي سقطت بيت المقدس في قبضة صلاح الدين ،
وأضحى الصليبيون بالشام أشد ما يكونون حاجة الى زعامة
رشيده تنظم صفوفهم وتعمل لحمايتهم وتزود عن مستقبلهم وتدافع
عن كيانهم ؛ شاء حسن حظهم أن يبدو ذلك الزعيم في شخص
كونراد دي مونتفرات . وكان كونراد قد وصل الى عكا في
صيف سنة ١١٨٣^{١١٨٣} قادمًا من غرب أوروبا عن طريق القسطنطينية
ولكن سفينته لم تكد تقترب من عكا حتى صدم عندما وجد أن
المسلمين يحكمونها . على أن المسلمين في عكا لم يتعرضوا لكونراد
بسوء ، وتركوا سفينته تقلع في سلام الى صور . وكانت صور
قد غدت مستودعا لكثير من البقايا الصليبية « لأن صلاح الدين
كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرها مما ذكرنا أعطى
أهلها الأمان ، فساروا كلهم الى صور ، فكثر الجمع بها » (١)
على أن أهل صور عندئذ لم يكن لهم « رأس يجمعهم ولا مقدم
يقاتل بهم » . وبعبارة أخرى فانهم كانوا يفتقرون الى قيادة
رشيده تنظم عملية المقاومة وتؤلف بين تلك البقايا الصليبية
المتعددة المشارب والأصول ، التي هاجرت الى صور من مختلف
المدن والقلاع الصليبية التي استولى عليها صلاح الدين وجيوشه .
وقد وصف القاضي ابن شداد كونراد دي مونتفرات
— الذي عرفته المراجع العربية المعاصرة باسم المركيس — بأنه
« كان رجلا عظيما ، ذا رأى وبأس شديد في دينه ، وصرامة

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

عظيمة » . لذلك جاء وصوله الى صور — في الوقت الذي انحطت الروح المعنوية للصليبيين داخلها حتى شرعوا فعلا « في مراسلة صلاح الدين وطلب الأمان وتسليم البلد اليه » ؛ — ذا أهمية عظيمة ، لأنه دفع في الصليبيين روحا جديدة ودفعهم الى المقاومة والثبات ، وبذلك « ضمن لهم حفظ المدينة » . وسرعان ما قبل من بداخل صور من أمراء الصليبيين وفرسانهم أن يقدموا تبعيتهم لكونراد ويعترفوا له بالزعامة عليهم ، مقابل تعهده بالدفاع عنهم وحماية مدينتهم .

وهكذا أغلقت صور أبوابها في وجه صلاح الدين بعد أن كان قد استعد فعلا لدخولها ، مما أثار دهشته وغضبه . وكان وليم الثالث دي مونتفرات — والد كونراد — أسيرا في قبضة صلاح الدين ، فحاول السلطان أن يستغل هذه الورقة في التأثير على كونراد لتسليم صور ، ولكن الأخير أظهر صلابة تسترعى الانتباه ، ورد على صلاح الدين بأنه يفضل أن يذبح هو وأبوه عن أن يسلم قطعة من المدينة . وعندئذ أدرك صلاح الدين عدم جدوى التفاهم مع ذلك الرجل ، ورأى أن يؤجل أمر صور ويبدأ بالاستيلاء على بيت المقدس أولا (١) .

وقد استغل كونراد دي مونتفرات فرصة انصراف صلاح الدين لتقوية استحکامات صور واعدادها للمعركة

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥٣
المقريزي : السلوك ؛ ج ١ ص ٩٥ - ٩٦ .

المنتظرة ، « فبنى السور والبواشير وأحكم أمرها ، واستظهر بالعدد والعدد » ؛ على قول ابن واصل . والمعروف عن صور نفسها أنها مدينة حصينة منيعة ، حتى وصفها الرحالة ابن جبير الذى زارها قبل ذلك بثلاث سنوات بأنها « مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة » . فأفاد كونراد من هذه الحصانة الطبيعية لمدينة صور ، واستغل الأموال التى جلبها معه من القسطنطينية فى حفر خندق حولها تجرى فيه مياه البحر « فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء ، لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها » . وفى جميع تلك الاجراءات استفاد كونراد من جهود من بداخل صور من التجار الفرنسيين والبيازنة والجنوية .

ولم يكد صلاح الدين يفرغ من الاستيلاء على بيت المقدس — كما سبق أن أوضحنا — حتى اتجه بكل قواه لحصار صور ، ومعه ولداه الأفضل والظاهر وأخوه العادل وابن أخيه تقي الدين عمر . ولكن تفوقه العددي وما جلبه معه من آلات الحصار ، كل ذلك لم يجد أمام حصانة صور الطبيعية ، تلك الحصانة التى دعمتها اجراءات كونراد الدفاعية . هذا الى أن السفن الصليبية المحملة بالرماة والمقاتلين حمت المدينة من ناحية البحر . وقد أسرع صلاح الدين باستحضار عشر سفن من الأسطول المصرى الذى كان عندئذ فى مياه عكا ، ولكن هذه القوة البحرية الصغيرة التى استعان بها صلاح الدين فى حصار صور لم تستطع الصمود أمام هجمات السفن الصليبية الأكثر عددا . وهكذا فشلت خطة صلاح الدين فى حصار صور

« وطمعت الفرنج » بعد أن أوقعوا بالأسطول وتمكنوا من تأمين اتصال المدينة بغرب أوربا عن طريق البحر . ولم يلبث أن اضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عن صور في أوائل يناير سنة ١١٨٨ ، وكان ذلك أول فشل يتعرض له في أعماله الحربية ضد الصليبيين منذ موقعة حطين .

وهنا يظهر المؤرخون المسلمون أسفهم العميق لفشل صلاح الدين في الاستيلاء على صور . ويلقى المؤرخ ابن الأثير على صلاح الدين بمسئولية استعصاء صور على المسلمين ، وهي المدينة التي غدت مركز تجمع وانطلاق القوات الصليبية التي قاومت صلاح الدين واستردت منه شاطئ فلسطين فيما بعد . وفي ذلك يقول ابن الأثير ما نصه « ولم يكن لأحد ذنب في أمرها » صور « غير صلاح الدين ، فانه هو الذي جهز اليها جنود الفرنج وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره . كان يعطيهم الأمان ويرسلهم الى صور فصار اليها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوا بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم ، يجتمعون بها ويلجئون اليها ، فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها !! » ثم يسترسل ابن الأثير فيرمي صلاح الدين بعدم الحزم والتفريط ، ويقول ان الملك أو الحاكم « لا ينبغي أن يترك الحزم وان ساعدته

الأقدار ، فلتن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا
للحزم !! « (١) .

على أننا لا نريد أن تنساق وراء ابن الأثير في مؤاخذته
لصلاح الدين على مسألة صور ؛ لأن موقف ابن الأثير بالذات
من صلاح الدين معروف ، وهو موقف يتسم بالكراهية الواضحة .
ولعله من الانصاف أن نلتمس العذر لصلاح الدين في أمر
صور ، فقد كان من الصعب على الرجل أن يتغلى عن سماحته
وتسامحه وكرم أخلاقه ، وهى الصفات الحميدة التى تحلى بها
والتي خلدت اسمه فى تواريخ الغرب فضلا عن الشرق . هذا
بالإضافة الى الظروف التى أحاطت بصلاح الدين أمام صور
والتي يجب أن تقدرها ، وأهمها تعب رجاله ورغبة بعضهم فى
الانصراف للراحة ، فضلا عن حصانة المدينة كما سبق أن ذكرنا .

* * *

ثورة الغرب الأوربى :

ولم يكن منتظرا من الغرب الأوربى الا أن يثور عندما بلغته
أخبار حطين واستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . وكان
كونراد دى مونتفرات قد أرسل جوسياس — رئيس أساقفة
صور — الى غرب أوربا فى أواخر صيف سنة ١١٨٧ ليطلب
من البابوية وملوك الغرب وأمراءه النجدة العاجلة . ويبدو أن
وليم الثانى — ملك صقلية النورمانى — كان أول من استجاب

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

لتلك الدعوة ، فبادر بارسال أسطول يحمل بضعة مئات من الفرسان الى طرابلس ، تحت قيادة أمير البحر مارجريت البرنديزي الذي نجح في منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية . ويروى ابن الأثير أن أحد قادة أولئك النورمان قابل صلاح الدين وقبل الأرض بين يديه وقال له « انك سلطان رحيم كريم ، وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا . فاتركهم يكونون ممالكك وجندك ، تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادك ، والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الأمر ويشد الحال » . ويفهم مما ذكره المؤرخون أن صلاح الدين خشى أن يكون ذلك الأسطول النورمانى مقدمة لحملة صليبية كبرى في طريقها من غرب أوربا ، فترك مؤقتا أمر طرابلس واللاذقية (١) .

وفي تلك الأثناء كان جوسياس يواصل نشاطه في غرب أوربا للحصول على نجدة عاجلة . ويروى المؤرخ ابن واصل أن بعض من قاموا بالدعوة في غرب أوربا لمحاربة صلاح الدين لجئوا الى أسلوب جديد في الدعاية واستثارة الغرب المسيحى ضد صلاح الدين والمسلمين « فصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معها صورة رجل عربى يضربه بعصا ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح وقالوا : هذا المسيح يضربه محمد نبي

(١) للتفصيلات انظر : —

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢

ص ٨٤٢ — ٨٤٣ .

المسلمين وقد جرحه وقتله !! « (١) . ومهما يكن من أمر فإن تلك الدعاية الصاخبة نجحت في استثارة الغرب الأوربي ، فكانت الحملة الصليبية الثالثة بزعامة فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا . أما عن فردريك بربروسا فقد تزعم الشطر الألماني من تلك الحملة فخرج في مايو سنة ١١٨٩ على رأس جيش كبير من مائة ألف محارب واختار أن يسلك الى الشام الطريق البري عبر البلقان وآسيا الصغرى . وكان بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطي نوع من التفاهم بصدد ذلك الخطر المشترك ؛ فأرسل الامبراطور اسحق الثاني الى صلاح الدين يعرفه بوصول الحملة الألمانية « ويعد أنه لا يمكنه من العبور في بلاده » . وقد تعهد صلاح الدين مقابل تلك المعونة التي قدمها اليه البيزنطيون ضد الصليبيين بوضع الأماكن المقدسة المسيحية في بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين الأرثوذكس . وإذا كان صلاح الدين قد وافق عندئذ على تسليم كنيسة القيامة لرجال الكنيسة الأرثوذكسية فإن الدولة البيزنطية وافقت من جانبها على أن يكون لصلاح الدين نوع من الاشراف والوصاية على الجالية الاسلامية في القسطنطينية ، فأرسل صلاح الدين الخطيب والمؤذنين والقراء الى جامع القسطنطينية « وكان يوم دخولهم الى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام » (٢) .

(١) ابن واصل مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

ومع ذلك فإن أنباء اقتراب امبراطور ألمانيا على رأس جيشه الضخم من بلاد الشام أثارت هزة عنيفة في أوساط المسلمين ببلاد الشام . وقد تحدث المؤرخون المسلمون عن حملة فردريك بربروسا في عبارات تفيد اليأس من الاحتفاظ ببلاد الشام . من ذلك ما قاله ابن الأثير من أنه « لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان ، أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام » . أما أبو الفدا فقال « بلغ المسلمين وصول ملك الألمان ، وكان قد سار من بلاد ما وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل ، واهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية ! » أما صلاح الدين نفسه ، فقد أخذ يتابع تقدم الألمان في قلق ، وأرسل « العيون والجواسيس » الى آسيا الصغرى للوقوف على أخبارهم . وعندما أحس صلاح الدين باقتراب الألمان من حدود الشام ، أسرع الى اخلاء أو تدمير بعض المراكز التي خشى احتلال الصليبيين لها واستخدامها في محاربة المسلمين ، فهدم سور طبرية ، كما هدم يافا وأرسوف وقيسارية ، وهدم أسوار صيدا وجبيل ونقل أهلها الى بيروت .

على أنه لم يلبث أن حدث حدث مفاجيء قلب الموقف رأسا على عقب ورفع عن صلاح الدين كابوس الخطر . ذلك أن فردريك بربروسا — وهو الشيخ العجوز — غرق فجأة أثناء عبوره نهر صغير في قسطنطينية . وسرعان ما تبدد جيشه الكبير وتفرق ، مما جعل المسلمين يهللون فرحا لتلك الأنباء ، ونادى المؤرخ ابن الأثير بأنه « لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان — لما خرج على ما ذكره عند خروجه الى الشام — ، والا كان يقال ان الشام

ومصر (كانتا) للمسلمين ! » واذا كانت بعض فلول الجيش
الألماني قد وصلت الى الشام ، فان ابن واصل يتهم على تلك
الجموع فيصفهم بأنهم « حملة عصي وركاب حمير ! » (١) .

* * *

الصليبيون يستردون عكا :

على أن الحملة الألمانية لم تكن في حقيقة أمرها الا شطرا واحدا
من الحملة الصليبية الثالثة . أما الشطران الآخران فكان أحدهما
بزعامة ملك فرنسا والآخر بزعامة ملك إنجلترا ، وقد أبحر
الملك من غرب أوربا في صيف سنة ١١٩٠ قاصدين الشرق .
وفي الوقت الذي أضاع ملكا إنجلترا وفرنسا وقتا طويلا في
صقلية حيث جو الشتاء دفيء ممتع ، أخذت الأمور تتطور في
بلاد الشام تطورا سريعا في صالح الصليبيين الذين حولوا موقفهم
من الدفاع الى الهجوم . وتفصيل ذلك أن الملكة سيبيل التي كانت
قد استقرت في طرابلس أرسلت في صيف سنة ١١٨٨ الى
صلاح الدين ترجوه تحقيق وعده باطلاق زوجها الملك جاي
لوزجنان . وكان أن غلبت على صلاح الدين روح الشهامة
والمرورة والوفاء بالعهد ، وهي الصفات التي تحلى دائما بها في
معاملاته مع الصليبيين والتي عانى كثيرا من المتاعب بسبب تمسكه
بها ، في الوقت الذي لم يعرف خصومه في معاملاتهم معه سوى
الغدر والخيانة ونكث العهود . لذلك بادر صلاح الدين بالافراج

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

عن الملك جاي لوزجنان — أسير حطين — في يوليو سنة ١١٨٨ ، ولم يشأ أن يتركه ينصرف وحيدا ، وانما أفرج أيضا عن عشرة من أعيان أسرى الصليبيين ليكونوا رفقاء وبطانة له ، منهم عموري لوزجنان — أخو جاي — وكذلك مقدم الداوية . وقد اكتفى صلاح الدين عند اطلاق سراح الملك جاي بأن تعهد الأخير بألا « يشهر في وجهه سيفاً أبداً ويكون علامة ومملوكه طليقا أبداً » (١) . بل ان مروءة صلاح الدين وسمو خلقه جعلته لا يكتفى بكل ذلك ، بل أطلق أيضا سراح الماركيز العجوز ولیم الثالث دي مونتفرات ، وأرسله معززا مكرما الى ابنه كونراد في صور ، في الوقت الذي رفض كونراد دي مونتفرات مساومة صلاح الدين وأصر على المقاومة والقتال ! ولكن ما أكثر ما وعد الصليبيون ، وما أكثر ما نكثوا بالعهد ! فاذا كان صلاح الدين قد تمسك دائما بمبادئ الشهامة العربية في تصرفاته مع الصليبيين ، فان جاي لوزجنان الذي تعهد بعدم محاربة صلاح الدين أو المسلمين وأقسم على أن يرح بلاد الشام فور اطلاق سراحه ، لم يلبث أن نزح الى صور مؤملا أن يتولى زعامة القوات الصليبية في حربها ضد المسلمين !

على أنه يبدو أن صلاح الدين لم يخسر كثيرا نتيجة لاطلاق سراح جان لوزجنان ، بل على العكس استفاد لما ترتب على تلك الخطوة من اشتداد الخلاف والمنازعات بين الصليبيين

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٥٣ .

بعضهم وبعض ، أو على وجه أدق بين جاي وخصومه . ذلك أن الموقف لم يلبث أن تعقد في صور عند وصول جاي لوزجنان الى أبوابها سنة ١١٨٨ . حقيقة ان صور كانت المدينة الوحيدة من مدن مملكة بيت المقدس الصليبية التي ظلت في قبضة الصليبيين ؛ ولكن كونراد دى مونتفرات الذى نظم صفوف الصليبيين في صور وأشرف على حركة المقاومة داخلها واستطاع الثبات فعلا في وجه صلاح الدين وجيوشه رفض أن يسمح لملك بيت المقدس بدخول المدينة . وهكذا قضى جاي لوزجنان بضعة أشهر خارج أبواب صور — ومعه زوجته الملكة — يصيح ويستجير ويطالب بدخول مدينته ، وعندئذ رد عليه كونراد بأن صور لم تعد مدينة جاي وأن الفصل بينهما ملوك الغرب الذين ينتظر وصولهم الى الشام بين فينة وأخرى .

وعندما وجد جاي لوزجنان نفسه طريدا دون بلد يأويه أو جيش يحميه ، فكر في غزو عكا — ثانى مدن مملكة بيت المقدس الصليبية بعد بيت المقدس وأهم موانئها الساحلية . ولم يلبث أن جمع جاي عند طرابلس كل ما أمكن جمعه من فرسان الصليبيين المشردين ، ثم تقدم على رأسهم صوب عكا في أواخر أغسطس سنة ١١٨٩ . ويصور لنا المؤرخ ابن الأثير ما لاقاه الصليبيون في زحفهم على عكا من شدائد ، بسبب سيطرة المسلمين على المدن والمعقل والحصون الواقعة في طريقهم ، مما اضطر الصليبيين الى التزام جانب البحر ، في حين سارت سفنهم على مرأى منهم تحمل

أسلحتهم وزادهم (١) . ولو تنبه المسلمون لخطر تلك الجموع الصليبية وحصروها عند معرات الأسكندرونه أو عند النواقر لقضوا عليها قبل أن يستفحل خطرها ، ولكن صلاح الدين كان مشغولا عندئذ بمنازلة قلعة الشقيف أرنون . وقد حدث أن سمع صلاح الدين بأن جاي لوزجنان في طريقه على رأس بعض الجموع الصليبية الى عكا ، ولكن صلاح الدين لم يصدق الخبر وظن أن في الأمر خدعة لحمله على ترك الشقيف أرنون ، ولم يتنبه الى حقيقة الأمر الا بعد فوات الأوان عندما اقترب الصليبيون من عكا فعلا .

وكان أن استدعى صلاح الدين بعض القوات الاسلامية من الجليل لوقف تقدم الصليبيين ، ولكن صلاح الدين نفسه لم يصل الا بعد أن كان الصليبيون قد احتلوا مراكزهم فعلا في مواجهة عكا . ويؤكد ابن الأثير وعماد الدين الكاتب أن صلاح الدين أراد أن يقضى على الصليبيين أثناء زحفهم من صور الى عكا « عند المضيق » ؛ ولكن أمراءه عارضوه في ذلك وقالوا « بل نطلبهم طلب الغريم » ؛ وأنه من الأوفق مهاجمة الصليبيين أمام عكا ليقعوا بين جيوش صلاح الدين من ناحية وحامية المدينة من المسلمين من ناحية أخرى . ويبدو أن صلاح الدين استمع لنصح أمراءه ، وبذلك ارتكب المسلمون غلطة استراتيجية كبرى ، لاسيما وأن الملك جاي لوزجنان أتفق

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٥ هـ .

مع كونراد دى موتفراى وصفا ما بينهما من خلافات لحرب المسلمين ؛ « ولو أن العساكر اتبعت رأى صلاح الدين فى سيايرتهم ومعاملتهم قبل نزولهم على عكا ، لكان بلغ غرضه وصددهم عنها ، ولكن اذا أراد الله أمرا هيا أسبابه !! » (١) .

ومهما يكن من أمر ، فان جاى لوزجنان أقام معسكره على مقربة من عكا فوق تل المصليين شرقى المدينة ، ثم لحق به صلاح الدين بعد ذلك يومين (٢٩ أغسطس ١١٨٩) ، فعسكر على مقربة من الصليبيين . ولقد كان من الأكيد أن يتمكن صلاح الدين من سحق تلك الشراذم الصليبية فى سهولة ، لولا وصول مقدمات الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الأوروبى ، مما أمد الصليبيين أمام عكا بقوة كبيرة غيرت الموقف تغيرا تاما . وتؤكد بعض المراجع أن جموع الصليبيين الذين احتشدوا أمام عكا فى سبتمبر سنة ١١٨٩ بلغوا أكثر من عشرين ألفا ، عدا أساطيل البيازنة والجنوية والبنادقة التى حصرت المدينة من جهة البحر . وزاد الطين بلة وصول كونراد دى موتفراى على رأس قواته من صور ، وبذلك بدأت معركة الثأر لما حل بالصليبيين فى حطين (٢) .

(١) المرجع السابق :

عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) للوقوف على التفصيلات انظر : -

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢

ص ٨٥٤ وما بعدها .

على أن صلاح الدين لم يظل ساكنا طوال تلك المدة حتى
تكتمل الجيوش الصليبية ، وانما بدأ هجومه على الصليبيين أمام
عكا في منتصف سبتمبر سنة ١١٨٩ ، واستطاعت جيوشه في
الهجمات التالية أن تنزل بصفوف الصليبيين خسائر جسيمة .
ولم يلبث أن ساء موقف الصليبيين — على كثرتهم — أمام عكا
نتيجة لهجمات صلاح الدين وضربات القوية ، حتى أضحو
— وهم الذين أتوا لحصار عكا — محاصرين فعلا بين القوات
الإسلامية داخل عكا وقوات صلاح الدين خارجها . ولكن حدث
أن انتشر وباء في المنطقة نتيجة لكثرة جيف القتلى من الفريقين
« فحدث للأمزجة فساد وانحرف مزاج صلاح الدين » الأمر
الذي جعل الأمراء يشيرون عليه بالابتعاد بقواته عن عكا ،
فابتعد قليلا في منتصف أكتوبر سنة ١١٨٩ . ولا شك في أن
الصليبيين أفادوا من تلك الحركة ، لأنه غدا في استطاعتهم —
بعد ابتعاد صلاح الدين وقواته — الإحاطة بعكا إحاطة تامة
« وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر
الى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر ..
فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم وأمهلناهم .. ولما فرغوا من هذا
الأمر اشتغلوا بالحصر ، وانقطعت الطريق على المسلمين الى
عكا » (١) ...

وهكذا تمكن الصليبيون من حصار عكا وبداخلها حاميتها

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٤٧ .

الإسلامية الأمر الذي ترتب عليه إطالة الحرب بين الفريقين المتقاتلين . وقد اتخذت هذه الحرب طابع حرب الخنادق ، فحامية عكا الإسلامية محتمية خلف أسوار المدينة ، والصليبيون المحاصرون لعكا محتمون في الخنادق التي حفروها وخلف الحيطان التي بنوها ، في حين قضى صلاح الدين شتاء ١١٨٩ — ١١٩٠ وشطرا من الربيع التالي ساكنا يرقب الموقف عن كثب « فلم يقدر السلطان على الوصول الى البلد ، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا الى السلطان !! » (١) . ومع ذلك فإن الصلة بين صلاح الدين وحامية عكا لم تنقطع تماما ، فكانت تعليمات السلطان ترسل الى رجال الحامية عن طريق العوامين في البحر وعن طريق الحمام الزاجل ، « فنكتب اليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة (الشفرة) المصطلح عليها سر الأمور !! » (٢) .

ويبدو أن وقوف المسلمين والصليبيين وجها لوجه تلك المدة الطويلة ساعد على إيجاد نوع من الاتصالات السلمية التي اتصفت بطابع التسامح بين الفريقين . من ذلك ما يروييه أبو شامة من أن « الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة !! » . كذلك أشار ابن واصل الى « ما صار من تألف

(١) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١٩٢ .

بين المسلمين والصليبيين أمام عكا ، فقال « وأنس المسلمون بالفرنج بطول المدة بحيث كانوا يتركون القتال ويتحدثون ! وربما غنى بعضهم لبعض !! ثم يعاودون القتال بعد ساعة !! » . ولم يقتصر الأمر على الكبار في ذلك التفاهم بل تعداه الى الصبيان والصغار ؛ فصار صبيان المسلمين يخرجون لمصارعة صبيان الصليبيين ! واستطاع أحد صبيان المسلمين أن يضرب صبيا من الصليبيين ويأسره ، فاسترده الصليبيون بدينارين « وقالوا له : هو أسيرك حقا : فأخذ الدينارين وأطلقه » (١) . ولسنا في حاجة الى المقارنة بين تلك الروح التي سادت العلاقات بين المسلمين والصليبيين في نهاية القرن الثاني عشر ، وبين ما كان عليه الوضع عند مجيء الحملة الصليبية الأولى في نهاية القرن الحادى عشر . ثم كان أن حضر الملك العادل على رأس العسكر المصرى فى أواخر نوفمبر سنة ١١٨٩ لمساعدة أخيه صلاح الدين ، ثم أتى بعد شهر قائد الأسطول حسام الدين لؤلؤ على رأس خمسين قطعة من الأسطول المصرى الى مياه عكا . وقد نجح الأسطول المصرى فى شق طريقه الى الميناء وأمد عكا من ناحية البحر بكثير مما كانت تحتاج اليه من مؤن وامدادات ؛ فضلا عن « جماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم وأزوادهم » . وعلى الرغم من كل ذلك فان مركز الصليبيين ظل قويا لتفوقهم البحرى من ناحية وكثرة أعدادهم من ناحية أخرى .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٣
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٩٤ .

لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من دعوة كافة حكام المسلمين — في المشرق والمغرب — لمشاركته الجهاد . ولم يكتف صلاح الدين بتوجيه تلك الدعوة لحكام المشرق وأمرائه — الذين وفد منهم كثيرون ومعهم قواتهم لمعاونة صلاح الدين أمام عكا — وإنما أرسل أيضا سفاره الى الموحدين في المغرب لطلب المساعدة من أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن . وقد قال صلاح الدين له في رسالته بأنه من الواجب « أن يمد غرب الاسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين .. » . كذلك رأى صلاح الدين أن لا يقف دور المغرب على تقديم المساعدات البرية ، وإنما طلب من ملك المغرب أن يرسل سفنه « ليقطع عنهم وعن الصليبيين مادتهم من جهة البحر » . وعند وصول سفارة صلاح الدين الى المغرب في يناير سنة ١١٩١ ، تعهد أبو يوسف يعقوب بإرسال أسطول لعرقلة نشاط الصليبيين في مياه البحر المتوسط (١) .

وهكذا سارت الحرب بين المسلمين والصليبيين سيرا بطيئا أمام عكا ، دون أن تنتهى الى نهاية حاسمة . ولم يكف صلاح الدين طوال تلك المدة عن تشجيع الجند ووعدهم بالوعود الجميلة ، فاستمر « يحشهم على الجلال والجلد » (٢) وأدى جمود الموقف وكثرة القتلى في مكان محدود الى انتشار الوباء واشتداد أزمة التموين في المعسكرين سواء . وكانت مدينة عكا بالذات —

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٧١ — ١٧٤ .

(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١٠٦ .

بحكم وقوعها تحت ضائقة الحصار — أشد تعرضا
للمجاعة واحساسا بوطأتها . وإذا كان صلاح الدين
قد نجح في أغسطس سنة ١١٩٠ في تهريب أربعة
مائة غرارة من القمح وقدر من الجبن والبصل والغنم وغير
ذلك من يروت الى عكا عن طريق البحر ؛ فإن هذا القدر الضئيل
من الامدادات كان لا يكفي لسد حاجة أهل المدينة أكثر من
بضعة أسابيع قليلة ، وفقما ذكر بهاء الدين قراقوش والى عكا
لصلاح الدين . وفي سبتمبر من العام نفسه نجحت ثلاث سفن
مصرية ضخمة في اقتحام ميناء عكا ليلا ؛ وكانت « مشحونة
بالأقوات والأدام والمير وجميع ما يحتاج اليه في الحصار بحيث
يكافئهم ذلك طول الشتاء .. » . وفي منتصف فبراير سنة ١١٩١
نجح صلاح الدين في تجديد حامية المدينة ، فأنزل قوات جديدة ،
وحمل الأسطول القوات السابقة « لعظم شكائتهم من طول المقام
بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا » ؛ على
قول أبى شامة . على أنه يلاحظ أن تلك العملية الخطيرة تمت
في ظروف صعبة الأمر الذى جعلها لا تتم على الوجه الأكمل ،
بحيث أن الستين أميرا الذين انسحبوا من عكا لم يحل محلهم
سوى عشرين فقط . ويرجع أبو شامة السبب في سقوط عكا
فيما بعد الى الخطأ في تنفيذ تلك العملية بالذات .

وربما كان في استطاعة الصليبيين أن يستولوا على عكا
في تلك المرحلة لولا صعوبة ظروفهم وعدم تعاونهم بسبب اختلاف
طوائفهم وأصولهم ومشاربهم . هذا بالإضافة الى ما نشأ عندئذ

من خلاف شديد ونزاع مرير بين كونراد دي مونتفرات وجاي لوزجنان بسبب التنافس حول عرش مملكة بيت المقدس الصليبية .
ذلك أن سيبيل ملكة بيت المقدس — وزوجة جاي — ماتت أمام عكا في أكتوبر سنة ١١٩٠ ، وبذلك صارت أختها الأميرة ايزابيل هي الوريثة لعرش المملكة . ولم يكن لجاي لوزجنان — وفق قانون مملكة بيت المقدس — أى حق فى العرش بعد وفاة زوجته ، فضلا عن أنه كان مكروها من الأمراء لضعفه وسوء تصرفه فى الأحداث التى صحبت كارثة حطين . لذلك أسرع الأمراء الى تطليق الأميرة ايزابيل من زوجها الأول ، وتزويجها من كونراد دي مونتفرات وهو الرجل القوى الذى اعتقد الأمراء فى كفايته وقدرته على احياء مملكة بيت المقدس . ولا شك فى أن هذا الاجراء لم يرض عنه جاي لوزجنان وشيعته — وبخاصة الداوية — مما أحدث انشقاقا خطيرا بين صفوف الصليبيين أمام عكا ، لولا وصول فيلب أوغسطس ملك فرنسا فى أبريل سنة ١١٩١ ، فجمع شمل الصليبيين تحت زعامته ووجه جهودهم جميعا لحرب المسلمين (١) .

والواقع ان وصول فيلب أوغسطس على رأس الشطر الفرنسى من الحملة الصليبية الثالثة أثار رد فعل عنيف بين صفوف الصليبيين والمسلمين سواء ؛ فبينما ابتهج الصليبيون وأظهروا

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢
ص ٨٦٢ - ٨٦٣ .

الفرح العظيم والسرور البالغ لوصول ملك فرنسا ؛ اذا بالمسلمين يعملون حسابا لتلك القوة الخطيرة ، لا سيما وأن ملك فرنسا كان — كما وصفه أبو شامة — « عظيما عندهم ، من كبار ملوكهم ينقادون له ، بحيث اذا حضر حكم على الجميع » . ولم يشأ فيلب أوغسطس أن ينتظر وصول ريتشارد ملك انجلترا — الذى ساقته الظروف الى جزيرة قبرس ليفتحها — وانما بدأ فيلب أوغسطس بمهاجمة عكا فورا ؛ وتشجع بقية الصليبيين فأخذوا يعملون آلات الحصار فى أسوار المدينة ، ويقذفونها بالقذائف قذفا متواصلا ليلا ونهارا ، وعملوا على ردم الخندق المحيط بالمدينة ، فلم يجدوا أمامهم لردمه سوى « جثث الأموات وجيف الخنازير والدواب النافقات » .

وكان أن وصل ريتشارد ملك انجلترا الى عكا فى أوائل يونية فازداد الصليبيون به قوة ؛ فى حين ساء موقف حامية عكا الاسلامية أمام ضغط تلك الجموع الكثيفة من الصليبيين الذين شددوا الهجوم على المدينة ، فى أواخر يونية وأوائل يولية سنة ١١٩١ . وهنا يسجل التاريخ لعكا وحاميتها الاسلامية موقعا رائعا من مواقفها العديدة الشهيرة ، اذ ظلت صامدة فى وجه ذلك الخطر الضخم ، وأظهرت حاميتها تحت قيادة قراقوش شجاعة تسترعى الإعجاب ، فى حين ظل صلاح الدين يرقب الموقف عن كثب . وعندما قام صلاح الدين بهجمات مضادة ضد الصليبيين ليصرفهم عن عكا ، لجأ الصليبيون الى مهاجمة معسكر صلاح الدين فى ٢٢ يونية ، ولكنهم لم يحققوا غرضا من هجومهم

لفاشل ، بعد أن « ثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما وصبروا صبر الكرام ! » (١) .

ولا أدل على روح الفداء والشجاعة التي حارب بها المسلمون عندئذ من أن صلاح الدين أمر بتعبئة سفينة كبيرة (بطسة) في بيروت وشحنها بالآلات والأسلحة والمؤن والرجال لامداد حامية عكا عن طريق البحر . ولكن السفينة الاسلامية لم تكد تصل الى مياه عكا حتى حاصرتها سفن ريتشارد ملك انجلترا وأحاطت بها من كل جانب ؛ وعندئذ أبى رجال السفينة الاسلامية الاستسلام ، وظلوا يقاتلون أربعين سفينة من سفن الأعداء حتى أحرقوا احداها . وعندما يئس المقاتلون العرب في السفينة من النجاة ، قال مقدمهم « والله لا نقتل الا عن عز ، ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا ! » ؛ فأغرقوا سفينتهم وغرقوا جميعا وهم ستمائة وخمسون رجلا استشهدوا كراما . والفرد منا يتدبر هذا القصص فلا يسعه سوى أن يعترف بأن العرب هم العرب على مر العصور ، بأخلاقهم وشجاعتهم وفدائيتهم وكرهم للضيم . فما أشبه اليوم بالأمس ، وما أشبه الأسلوب الذي اتبعه رجال تلك البطسة في الاستشهاد سنة ١١٩١ بالأسلوب الذي اتبعه جلال دسوقي وجول جمال وغيرهما من الفدائيين العرب الذين استشهدوا أيام العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ — أو الذين اختاروا اغراق سفنهم — كالمدمرة ابراهيم — مفضلين الموت

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٢٦٠ .

الكريم على العيش الذليل !! وكأني بهؤلاء الفدائيين العرب
في مياه بورسعيد سنة ١٩٥٦ وهم يرددون نفس العبارة التي
قالها جدهم العربي في مياه عكا سنة ١١٩١ « والله لا تقتل الا عن
عز !! » .

غير أن الشجاعة والفدائية والايمان بالحق لا تكفى في حالات
كثيرة للتغلب على القوة الغاشمة . وماذا كانت تفعل حامية عكا
أمام جيوش أكبر دولتين في غرب أوروبا عندئذ وهما انجلترا
وفرنسا ؟ أجل ؛ ماذا كان يفعل صلاح الدين وقد حشد الغرب
الأوربي جيوشه وأساطيله وبدأ هجومه الكبير على المسلمين في
الشام في الوقت الذي كانت جيوش صلاح الدين قد أضناها
الجهاد الطويل منذ حطين وقبل حطين ؟ ثم ان صلاح الدين
كان يعلم جيدا ان المعركة ليست معركة عكا وحدها وانما معركة
الشام بأكمله ، بل المشرق العربي جميعه ؛ فكان من الخطأ أن
يطلب التاريخ منه أن يضحي بجيوشه في معركة عكا ويترك
بقية البلاد دون جيش يحميها بعد ذلك . وهكذا بدأت المحادثات
بين المسلمين والصليبيين لتسليم عكا ، حتى انتهى الاتفاق بأن
يسمح الصليبيون لحامية عكا بالخروج سالمين مقابل فدية قدرها
مائتى ألف دينار ، وأن يحرر المسلمون ألفين وخمسمائة من
أسرى الصليبيين ، فضلا عن رد صليب الصليبيوت .

وكان أن دخل الصليبيون عكا في يولية سنة ١١٩١ بعد أن
حصروها قرابة عامين ، الأمر الذي أثار موجة من الحزن والأسى
عبر عنها المؤرخون المسلمون ؛ « فعظمت المصيبة على المسلمين

واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في انا لله وانا اليه راجعون ، وغشى الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب « (١) ...

* * *

صلاح الدين وريتشارد :

لم تنته مشاكل الصليبيين باستيلائهم على عكا ، فاشتد الخلاف بين طوائفهم بسبب الغنائم التي غنموها من المدينة ، كما استمر الخلاف قائما بين كونراد مونتفرات وجاى لوزجنان حول عرش مملكة بيت المقدس . ولم تطل اقامة فيلب أوغسطس بعد ذلك بالشام ، اذ اعتذر بالمرض وأبحر الى الغرب في أوائل أغسطس سنة ١١٩١ ، وبذلك ترك مهمة تصفية الموقف المعقد بالشام — سواء بين الصليبيين بعضهم وبعض أو بينهم وبين المسلمين — لريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

وهكذا شاعت الظروف أن يصبح ريتشارد ملك انجلترا هو الزعيم الأبوحد للحملة الصليبية الثالثة بعد أن مات فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وعاد فيلب أوغسطس ملك فرنسا الى بلاده . وقد قضى ريتشارد في بلاد الشام بضعة أشهر حتى عودته هو الآخر في اكتوبر سنة ١١٩٢ ، واحتلت هذه الأشهر أهمية خاصة في تاريخ الحروب الصليبية . والواقع ان

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٨٨ .

ما قام به ريتشارد من أعمال في بلاد الشام ، وما كان بينه وبين صلاح الدين من علاقات حربية وغير حربية ، إنما تحتل صفحة فريدة استأثرت بانتباه المعاصرين وغير المعاصرين من المؤرخين . وزاد من أهمية هذه الصفحة ما تحويه من مقارنة شيقة بين فروسية الشرق وفروسية الغرب في العصور الوسطى . فصلاح الدين في علاقاته مع ريتشارد يمثل ما وصلت اليه الفروسية العربية في تلك العصور من مثل وأخلاق وأفكار وأساليب ؛ وريتشارد في علاقاته مع صلاح الدين وتصرفاته تجاه المسلمين يعبر عن أقصى ما بلغتة فروسية الغرب من مثل وأخلاق .

ولا شك في أن الفارق بدا واضحا والشقة واسعة بين ما بلغته فروسية العرب وما وصلت اليه فروسية الغرب الأوربي في العصور الوسطى . ففي الوقت الذي تمسك صلاح الدين في علاقاته مع ريتشارد بمبادئ الأخلاق وأهمها التسامح والمروءة والكرم والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد ؛ اذا بريتشارد لا يفرق بين الشجاعة من ناحية والغدر ونقض العهد وقتل الأبرياء من ناحية أخرى . ولعل هذا التناقض الكبير بين أخلاق صلاح الدين وأخلاق ريتشارد هو الذي جعل أحد الكتاب الأوربيين المحدثين — هو بارثلمى سانت هيلير — يقول عبارته الشهيرة « لقد هذبت طبائع أمرائنا الاقطاعيين الخشنة في العصور الوسطى بفضل علاقتهم بالعرب وتقليدهم لها ، فتعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق دون أن يفقدوا شيئا

من شجاعتهم . وائنى أشك فى أن النصرانية وحدها كانت تستطيع أن تأتى مثل ذلك التأثير مهما يبالغ فى اكرامها » (١) ...

ومصادق ذلك أن ريتشارد لم يكدر يدخل عكا حتى نسي شروط الأمان الذى منحه لحاميتها وتناسى شروط الاتفاقية التى عقدت مع المسلمين ، فقبض على من بداخل عكا من المسلمين « وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم » وساقهم الى تل قريب حيث « قتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف » ، واخوانهم المسلمون عن بعد بشاهدون رقابهم تتساقط ولا يدرون ماذا يفعلون لبعدهم عنهم . وشتان بين هذا السلوك الهمجى الذى اتبعه ريتشارد فى ذبح أسرى المسلمين وبين السلوك الانسانى الذى اتبعه صلاح الدين تجاه الصليبيين عقب انتصاره فى حطين ، اذ حرص — كما سبق أن رأينا — على السماح لأهل المدن التى استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين ، ومنع رجاله من الاعتداء عليهم أو التعرض لهم . بل ان صلاح الدين لم يضمن على ريتشارد نفسه أثناء مرضه بالفاكهة والثلج وأرسلها اليه والصليبيون يحاصرون عكا .

ومن الواضح أن ذلك العمل الوحشى الذى آتاه ريتشارد مع أسرى عكا لم يكن له نتيجة سوى تأجيج نار الثأر فى قلوب المسلمين واثارة نفقتهم ، وهم الذين لم ينسوا بعد ما فعله

(١) انظر : — سعيد عبد الفتاح عاشور : المدينة الاسلامية واثرها فى الحضارة الأوربية ؛ ص ٢١٠ .

صليبيو الحملة الأولى بالمسلمين في بيت المقدس سنة ١٠٩٩ . ومع كل ذلك فقد أبى صلاح الدين أن يرد على وحشية ريتشارد بالمثل ، ورفض أن يقتل من كان في حوزة المسلمين من أسرى الصليبيين ، وهم أعظم عددا بكثير من أسرى عكا المسلمين . ولم يلبث أن أخذ ريتشارد يعاني نتائج فعلته الهمجية إذ أغلق صلاح الدين باب المفاوضات في وجهه حول أى موضوع يتعلق ببيت المقدس . أما أسرى الصليبيين الذين كان قد جمعهم صلاح الدين استعدادا لاستبدالهم بأسرى عكا المسلمين ، فقد أمر صلاح الدين بردهم فورا الى دمشق .

وما دام صلاح الدين قد رفض الكلام مع ريتشارد في أى موضوع يتعلق ببيت المقدس ، فإن ريتشارد أخذ يعمل في محاولة يائسة لاهياء مملكة بيت المقدس الصليبية واسترداد مدنها وقلاعها وموانئها التى استولى عليها صلاح الدين . وقد بدأ ريتشارد محاولته باسترداد ساحل البحر من عكا الى عسقلان ، فزحف في أواخر أغسطس سنة ١١٩١ في ظروف صعبة بسبب شدة الحرارة وقلة المؤن وخراب البلاد والقرى التى مر بها . على أن صلاح الدين لم يترك غريمة يزحف في سلام ، وإنما « رحل في أثرهم » ، كما اتقض المسلمون على مؤخرة الجيش الصليبي قرب عكا ولم يستطع الصليبيون رده الا في صعوبة بالغة . وهكذا لم تنقطع الاشتباكات بين الطرفين طوال زحف الصليبيين ، وان ظلوا « لا يتأثرون » وواصلوا زحفهم « من غير

انزعاج » ، ومراكبهم تسير بحذائهم في البحر (١) . ولكن اذا كان الصليبيون قد استفادوا أثناء زحفهم هذا من حسن تنظيمهم وقوة أسلحتهم وتربطهم ، فان المسلمين تمتعوا بسهولة الحركة ، في الوقت الذي ظل الصليبيون محصورين بين البحر من ناحية والمسلمين من ناحية أخرى .

وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التي أخلتها حاميتها الإسلامية ، استأنفوا زحفهم نحو قيسارية ، في الوقت الذي قام الاسطول الصليبي بتموين الصليبيين عن طريق البحر . وقد استولى الصليبيون على قيسارية في نهاية أغسطس سنة ١١٩١ ليجدوها مخربة تماما ، بحيث لم يستطيعوا الحصول منها على زاد أو مال . وفي المعركة التي دارت في أول سبتمبر بين المسلمين والصليبيين جنوبى قيسارية ، قتل أحد كبار أعوان صلاح الدين — هو أياز الطويل الذي وصفه ابن شداد بأنه « من فرسان الاستلام » ، فحزن عليه صلاح الدين حزنا شديدا . أما ريتشارد قلب الأسد ، فلم يشأ أن يضيع الوقت ، وانما عجل بالزحف على أرسوف رغم ما لاقاه الصليبيون في زحفهم هذا من مشاق بسبب صعوبة الطريق ، حتى أن ريتشارد نفسه أصيب بجروح ورضوض مما جعله يطلب فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين . ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يكسب الوقت عندئذ حتى تصل اليه بعض القوات التي أرسل في طلبها ، فتظاهر بقبول مبدأ

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٩٠ .

المفاوضة ، وأثاب عنه أخاه الملك العادل في مفاوضة ملك انجلترا .
وفي تلك المفاوضات يذكر أبو شامة أن ريتشارد « طلب الاجتماع
بالمملك العادل خلوة » أي أن تكون المفاوضات ثنائية لا يحضرها
أحد غير ريتشارد والعادل . ولكن ريتشارد تمسك بأن تعود
مملكة بيت المقدس الصليبية الى ما كانت عليه قبل حطين ، وقال
« القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا » ، فرفض العادل ذلك الطلب ،
وبذلك عاد الطرفان الى القتال (١) .

وفي موقعة أرسوف التي دارت بين صلاح الدين وريتشارد في
٧ سبتمبر سنة ١١٩١ ، أحاط فرسان المسلمين بالصليبيين ،
وأوشكوا أن يقضوا عليهم كما حدث في حطين . ولكن ريتشارد
قلب الأسد لم يكن من شائكة جاي لوزجنان وأرناط ، فثبت في
القتال وأعاد تنظيم قواته بسرعة « ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا
في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل
الواحد ، وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب
كلها .. » (٢) وهكذا تحولت المعركة بسرعة في صالح الصليبيين
وتفرق كثير من جند المسلمين لولا شجاعة صلاح الدين وقوة
جأشه « فثبت الى أن اجتمع عليه المسلمون .. » (٣) .

ولا شك في أن انتصار الصليبيين في أرسوف كانت له

(١) المرجع السابق ؛

ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٩٦ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٩٦ .

(٣) المقرئى : السلوك ؛ ج ١ ص ١٠٥ .

تتأججه العميقة الأثر لأنه بعث في الصليبيين شعور الثقة بالنفس بعد الهزائم التي أخذت تترى عليهم منذ موقعة حطين . ويتخذ المؤرخون موقعة أرسوف سنة ١١٩١ نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تشير الى أن تيار الحرب الذي استمر في صالح المسلمين بالشام منذ سنة ١١٧٠ بدأ يتحول بعد أرسوف — ولمدة ستين سنة تقريباً أى حتى سنة ١٢٥٠ — في صالح الصليبيين . لذلك لا عجب اذا أظهر القاضي ابن شداد أسفه لتلك الهزيمة ، وعبر عن شعور صلاح الدين بأنه « كان في قلبه من تلك الواقعة ما لا يعلمه الا الله تعالى ، والناس بين جريح الجسد وجريح القلب » .

وقد أراد صلاح الدين بعد موقعة أرسوف أن يركز جميع جهوده في الدفاع عن عسقلان ، ولكن امرأه خالفوه في ذلك الرأي ، وقالوا له « ان اردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا !! » ولعل في هذا الموقف الذي وقفه الأمراء من صلاح الدين ما يكفي للدلالة على ما أصاب هيئته من جرح عميق بسبب موقعة أرسوف ، مما جعله يلجأ الى تعديل خطته ويترك عسقلان ليوجه جهوده نحو الدفاع عن داخلية فلسطين ، وبخاصة بيت المقدس . على أنه كان لا يمكن ترك عسقلان ليحتلها الصليبيون « وهي عامرة » فيستغلونها في الاستيلاء على القدس وفي قطع طريق مصر ؛ لذلك أسرع صلاح الدين الى تخريب عسقلان واحراقها وسط « بكاء الناس أسفا وغما لخرابها » .

وقد وضع والى عسقلان — الأمير علم الدين قيصر — خطة سريعة لتدمير المدينة وهدم أبراجها ، بحيث لم يترك منها شيئا يفيد منه الصليبيون . هذا فى حين أخلى أهل عسقلان مدينتهم فى سرعة وحملوا معهم ما استطاعوا حملة من المنقولات . أما صلاح الدين نفسه ، فقد اتجه الى بيت المقدس فى أواخر سنة ١١٩١ للإشراف على الدفاع عنها ، لعلمه أنها غاية الصليبيين وهدفهم الأساسى . وقد مر صلاح الدين فى طريقه الى بيت المقدس بالرملة فحرب تحصيناتها ، كما خرب اللد .

ريتشارد وبيت المقدس :

على أنه اذا كان ريتشارد قد انتصر فى أرسوف ، الا أنه لم يحاول أن يستفيد من انتصاره فيعمل بسرعة للاستيلاء على عسقلان أثناء انشغال المسلمين بتدميرها ، ليستولى عليها دون عناء أو حصار . كذلك لم يحاول ريتشارد أن يستغل انتصاره فى أرسوف فى القيام بحركة سريعة لمهاجمة بيت المقدس والاستيلاء عليها ، وهى المدينة التى كانت تشكو عندئذ من عدم العناية بتحصيناتها وضعف امكانياتها الدفاعية بسبب انشغال صلاح الدين عنها منذ استيلائه عليها فى اكتوبر سنة ١١٨٧ . ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن كونراد دى مونتفرات أشار على ريتشارد بالتوجه فورا الى عسقلان لمداومتها أثناء انشغال المسلمين بهدمها ، ليسهل للصليبيين الاستيلاء عليها « صفوا عفوا بغير قتال » .

لكن ريتشارد أصم أذنيه عن النصيحة ، واختار أن يوجه جهوده عقب انتصاره في أرسوف نحو إعادة بناء يافا « فأقام بها مقر المكان » ، وأضاع في تلك العملية وقتا ثميناً زهاء شهرين (سبتمبر — أكتوبر ١١٩١) ، أعاد فيهما صلاح الدين تنظيم صفوفه واستعد للجولة التالية مع ريتشارد (١) .

والواقع ان التجارب علمت الصليبيين أنه يتعذر عليهم البقاء في بيت المقدس دون احكام سيطرتها على عسقلان ويافا ، ولذلك كان اهتمام ريتشارد بالاستيلاء على يافا وتعميرها لا يقل عن اهتمام صلاح الدين بتدمير عسقلان . وفي ذلك الدور بالذات أرسل كونراد دي مونتفرات الى صلاح الدين يطلب مصالحةه ويتعهد بمحالفته ضد بقية الصليبيين ، وبمساعده على استرداد عكا ، اذا وافق صلاح الدين على اعطائه صيدا وبيروت . على أن صلاح الدين كان يعلم جيداً أن كونراد « خبيث ملعون » ، وأنه أحس بطمع ريتشارد وحزبه في صور وبأن ملك إنجلترا يؤيد جاي لوزجنان ويعطف عليه ، ولذلك كله أسرع كونراد الى صور للاحتفاظ بها وارسل الى صلاح الدين ليستغله في تحقيق أطماعه . لذلك رد صلاح الدين على كونراد بأنه يوافق على طلبه ، بشرط أن يبدأ كونراد بمجاهرة الصليبيين العداء وحصار عكا ، وتسليم من في صور وعكا من أسرى المسلمين ، وعندئذ

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢ .

يسلمه صلاح الدين صيدا ويبروت . ويهمننا في هذا الموضع أن ريتشارد قلب الأسد لم يكد يحس بتلك الاتصالات بين صلاح الدين وكونراد دي مونتفرات حتى خشي العاقبة ، فأسرع بالعودة الى عكا » لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس (كونراد) اليه » (١) .

وأخيرا عاد ريتشارد ليتحرك في نهاية أكتوبر سنة ١١٩١ من يافا قاصدا بيت المقدس ، فالتقى عند يازور بمقدمة الجيش الأيوبي وقتلوا بعض رجالها . وقد قضى ريتشارد في تلك المنطقة نحو من أسبوعين قام خلالها باصلاح بعض القلاع والحصون وصد اغارات البدو والمسلمين الذين تجمعوا للاغارة على الداوية ، وهم الذين عهد اليهم ريتشارد بحماية تلك الحصون . وبعد ذلك اتجه ريتشارد على رأس الجيش الصليبي الى الرملة واللد ، وهما أول مدينتين هامتين على الطريق بين يافا وبيت المقدس ، وهو الطريق الذي أصبح مفتوحا أمام الصليبيين عقب انتصارهم في أرسوف . ولكن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل شديدة ، عندما وجدوا أن صلاح الدين قد خرب الرملة ، فاضطروا الى نصب معسكرهم بين أنقاض المدينة وخرائبها . أما صلاح الدين نفسه فقد عسكر في النطرون — عند منتصف الطريق الى بيت المقدس — لحمايتها من الصليبيين . وعندما علم صلاح الدين باتجاه ريتشارد نحو النطرون أدرك أن في نيته مهاجمة بيت المقدس ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٧٢
ابن شداد : النوادر ، ص ٣٠٩ ، ٣١٥ .

فأسرع بهدم النظرون — كما هدم الرملة من قبل — واتجه فوراً الى بيت المقدس لتقوية استحكاماتها واعدادها للدفاع « فوقع الاهتمام في عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق » . على قول المقرئى .

وهكذا تمكن ريتشارد من احتلال النظرون وبيت نوبه في سهولة ؛ وصار على مقربة فعلاً من بيت المقدس . وكان ذلك في نهاية سنة ١١٩١ وقد زحف الشتاء ببرده وعواصفه « وحالت الأمطار والأحوال بينهما » ، في الوقت الذي أخذ البدو والأعراب — بايحاء من صلاح الدين — يغيرون على مؤخرة الجيش الصليبي ويقطعون خطوط مواصلاته . ومع كل ذلك فقد تحمل الصليبيون العناء في سبيل الوصول الى بيت المقدس ، وهى المدينة الحبيبة الى نفوس المسلمين والمسيحيين جميعاً . ويصف المؤرخون الغربيون مدى فرح الصليبيين عندئذ وحماسهم لرؤية بيت المقدس ، مما أعاد الى الأذهان ذكرى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩ . ولكن الفارق بين الحالتين كان واضحاً ، لأن الصليبيين اقتربوا من بيت المقدس في ديسمبر سنة ١١٩١ ليجدوها مدينة كاملة التحصين صعبة المنال . ذلك أن صلاح الدين كان قد أعد عدته للدفاع عن بيت المقدس وأحكم تحصينها « فقسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده ، فشرعوا في انشاء سور جديد » . كذلك يحكى ابن واصل أن صلاح الدين عمل بنفسه في عمارة سور بيت المقدس وحفر خنادقه ، فكان « ينقل الأحجار هو

وأولاده وأجناده وأمرأؤه ، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء..» (١).
وهكذا جنى الصليبيون عاقبة توالى ريتشارد بعد انتصاره في
أرسوف ، فاضطر ريتشارد ورجاله الى الانسحاب عائدين الى
الرملة وبيننا ، تحوطهم موجة من الأسى وخيبة الأمل .

ومن الجائز أن نقرر تراجع ريتشارد عن بيت المقدس في يناير
سنة ١١٩٢ في ضوء المحادثات السرية من أجل الصلح بينه وبين
صلاح الدين . وقد بدأت هذه المحادثات في أواخر أكتوبر وأوائل
نوفمبر سنة ١١٩١ ، عندما أرسل ريتشارد من معسكره قرب
يازور الى صلاح الدين يطلب منه الدخول في مفاوضات من أجل
الصلح ، وقال « ان المسلمين والافرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد
وخرجت من يد الفريقين بالكلية ؛ وقد تلفت الأموال والأرواح
من الطائفتين . وقد أخذ هذا الأمر حقه .. فنصطلح ونستريح من
هذا التعب الدائم » .. على أن هذه المفاوضات التي ناب فيها
الملك العادل عن أخيه صلاح الدين لم تلبث أن تعثرت بسبب
اصرار الصليبيين على ارجاع مملكة بيت المقدس الى ما كانت
عليه قبل هجمات صلاح الدين سنة ١١٨٥ . وقد بلغ من تمسك
ريتشارد بمدينة بيت المقدس أنه أرسل الى صلاح الدين يقول
« القدس متعبدا فأنزل عنه ، ولو لم يبق منا الا واحد » . هذا
بالإضافة الى تمسك الصليبيين بعسقلان واستعادة الأردن بما فيه

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٧٥
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٩٦ .

من حصون ؛ وكلها شروط كان لا يمكن أن يقرها صلاح الدين والمسلمون . لذلك رد صلاح الدين على طلب ريتشارد قائلا : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومحشر أمتنا ، فلا تتصور أن تنزل عنه ، ولا تقدر التلفظ بذلك بين المسلمين !! » (١) .

وثمة حل طريف اقترحه ريتشارد في ذلك الدور لحسم النزاع بين المسلمين والصليبيين بالشام ، هو أن يتزوج الملك العادل أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا — أرملة ملك صقلية وأخت ريتشارد — وكانت « عزيزة عليه كبيرة القدر » . وكان هدف ريتشارد من وراء ذلك المشروع أن يشترك الزوجان — العادل الذى يمثل الجانب الاسلامى وجوانا التى تمثل الجانب الصليبي — فى حكم فلسطين ، بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية ، وبذلك ينتهى الاشكال . وفى هذه الحالة يستولى المسيحيون على صليب الصليبوت ، ويكون لهم بكنيسة القيامة قسا ويمكنوا من زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح » ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاستتارية ببعض القرى ، ولا يمكنهم من الحصون !! » (٢) . ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الحل ترحيبا كبيرا « ورأى فى ذلك عين الصواب !! » . وربما رأى العادل — وهو الرجل الثانى فى الدولة الأيوبية بعد

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣١٥
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٩٣ .
(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ٣٠٩ .

أخيه صلاح الدين — فى ذلك المحل ضمانا لتوحيد المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام فى ظل حكومة واحدة ، وإقرار الأمور فى تلك البلاد على أساس المحبة والارتباط بين الفريقين . على أن أغرب ما فى الموضوع هو أن صلاح الدين نفسه قبل الفكرة وأعلن ترحيبه بها فى صراحة تامة . ويبدو أن صلاح الدين أعلن قبوله لذلك المشروع لعلمه أن ملك إنجلترا لن يتمكن من تنفيذ مشروعه ، « وأن هذا منه مكر وهزو » . وسرعان ما ظهر أن العقبة الكؤود فى سبيل تنفيذ هذا المشروع لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد ، وإنما أتت من جانب الأميرة جوانا نفسها التى أتت أن « تمكن مسلما من نفسها » . ويروى أبو شامة أن بعض الصليبيين خوفوا أخت ريتشارد من عاقبة الزواج من العادل « واتهموها فى دينها وعنفوها وقالوا لها ما معناه هذه فضيحة فظيعة وسبة شنيعة وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة .. » . لذلك طلب ريتشارد من العادل أن يعلن اعتناقه للمسيحية — ولو فى الظاهر — لتذليل تلك العقبة ! وعندئذ عرف العادل « أنها خديعة » ، وصرف النظر عن الموضوع .

ومهما يبدو فى مشروع زواج العادل من جوانا أخت ريتشارد من غرائب ، وبصرف النظر عما اعترض ذلك المشروع من عقبات حالت دون تنفيذه ، فإن فكرته تدل على مدى ما اعترى عصر الحروب الصليبية من تطور فى مشاعر المسلمين والمسيحيين سواء . وشتان بين هذه العقلية التى فكر بها ريتشارد وصلاح الدين والعادل جميعا فى أواخر القرن الثانى عشر وبين

الروح التى تجلت فى تصرفات رجال الحملة الصليبية الأولى
فى أواخر القرن الحادى عشر . والواقع ان هذا التفكير من جانب
ريتشارد والاستجابة من جانب صلاح الدين والعادل ، انما يدلان
على التقارب السياسى والحضارى والفكرى بين المسلمين
والصليبيين فى الشام بعد مرور قرن على بداية الحرب الصليبية
بالشام ؛ كما يدلان على روح التسامح التى أخذت تبدو بوضوح
فى بعض تصرفات الفريقين . وحسبنا ما يرويه ابن واصل بعد
ذلك مباشرة من اجتماع الملك العادل وريتشارد سويا « على
طعام ومحادثة » ؛ وكيف أن ريتشارد طلب الاجتماع
بصلاح الدين نفسه ، ولكن الملك العادل رفض طلبه وقال « ان
الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك ، واذا انتظم
أمر حسن الاجتماع » (١) .

وكان أن شغل ريتشارد بعد ذلك ببناء أسوار عسقلان
وتحصينها (يناير سنة ١١٩٢) ، ثم بالسعى لحل مشاكل الصليبيين
الداخلية . وكانت المشكلة الأولى التى هددت وحدة الصليبيين
بالشام عندئذ هى الخلاف المستحكم بين كونراد دى مونتفرات
وجاى لوزجنان . وقد كرر كونراد محاولته للاتفاق مع
صلاح الدين ، ولكن الأخير فضل أن يفض الطرف عن كونراد
وأن يستمر فى مباحثاته مع ملك انجلترا ، بعد أن عرف عن
كونراد أنه « كلما أبرم عهدا نقضه ونكثه » . وفى ذلك الوقت

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٧٤ .

وصلت ريتشارد أخبار سيئة من الغرب تؤكد ثورة أخيه حنا ضده ، مما تطلب منه سرعة العودة الى بلاده . غير أنه كان من المتعذر على ريتشارد أن يرحل الشام قبل الوصول الى حل مع صلاح الدين من ناحية ، وحل النزاع المستفحل بين كونراد وجاي من ناحية أخرى . لذلك رأى ريتشارد أن يعقد مؤتمرا عاما من الأمراء والفرسان لاستفتائهم في مشكلة اختيار أحد الرجلين : كونراد أو جاي ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية . وقد عقد المؤتمر في عسقلان في شهر أبريل سنة ١١٩٢ ، وعندئذ أجمع الأمراء اجابا على شبه تام على اختيار كونراد لعرش مملكة بيت المقدس لما لمسوه فيه من صفات حربية بارزة وشجاعة نادرة تضمن للصليبيين في الشام قسطا من الأمان . على أن كونراد لم يهنأ بتلك الثقة طويلا ، اذ وجد مقتسولا في ٢٨ أبريل سنة ١١٩٢ ، ويقال انه قتل بيد أحد الفدائيين من الباطنية ، أوفده شيخهم راشد الدين سنان لتنفيذ تلك الجريمة ، بتحريض من ريتشارد .

ولا بد لنا من وقفة قصيرة عند مقتل كونراد ، حيث أن أحد كبار المؤرخين المسلمين وجه اتهامات خطيرة لصلاح الدين بأنه هو الذي دبر تنفيذ تلك الجريمة . والأمر الذي أجمعت عليه المراجع المعاصرة — العربية وغير العربية — هو أن كونراد قتل بيد اثنين من الباطنية دخلا صور وتظاهرا بالتنصر والتعبد حتى أحبهما كونراد واطمئن اليهما فقتلاه . غير أن الآراء اختلفت في حقيقة المحرض على قتله ، فهناك رأى يقول بوجود عداء شخصي

بين كونراد وراشد الدين سنان شيخ الباطنية بسبب اتهام كونراد لهم بالاعتداء على سفينة تجارية للصليبيين ونهبها . هذا الى أن راشد الدين سنان كان يخشى بأس كونراد وقوته ويخاف قيام دولة قوية للصليبيين على شاطئ الشام . أما المؤرخون العرب المعاصرون — وعلى رأسهم ابن شداد وعماد الدين الكاتب وأبو شامة ثم ابن واصل — فقد أجمعوا على أن ريتشارد ملك إنجلترا هو الذى حرّض الباطنية على قتل كونراد وأنه أراد أن يتخلص منه لما بينهما من عدااء شخصى . ولم يشذ عن هذا الاجماع فى المراجع العربية سوى ابن الأثير الذى يتهم صلاح الدين بأنه راسل راشد الدين سنان وطلب منه قتل ريتشارد وكونراد جميعا ووعد بدفع الأموال مقابل ذلك ؛ ولكن سنان خشى أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه فيتفرغ للباطنية ويقضى عليهم ، ولذلك اكتفى بقتل كونراد وعدل عن قتل ريتشارد . ويبدو لنا أن رأى ابن الأثير بعيد عن الصحة ، لا لأنه يخالف اجماع بقية المؤرخين المعاصرين فحسب ، بل لأنه يتنافى مع سياسة صلاح الدين وأخلاقه . هذا فضلا عما أشارت اليه المراجع من أن صلاح الدين لم يسر لمقتل كونراد بسبب عداوته لريتشارد « ومنازعته فى الملك » ، ولما ترتب على مقتله من توحيد كلمة الصليبيين وهو ما ليس فى مصلحة صلاح الدين والمسلمين . والأمر فى رأينا لا يعدو الكراهية الشخصية التى كان يضمها المؤرخ ابن الأثير لصلاح الدين ، وهى الكراهية التى ظهرت فى كتابته عن

صلاح الدين في أكثر من مناسبة ، وجعلته يتعجل في إصدار هذا الحكم الباطل على صلاح الدين (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن خسارة الصليبيين بالشام كانت جسيمة بفقد كونراد دي مونتفرات ، لأنه كان الرجل الذي يستطيع أن يرعى حقوقهم ويدافع عن كيانهم وينظم أمورهم ، حتى وصفه ابن الأثير بأنه « كان رجل الفرنج رأيا وشجاعة » . أما ريتشارد قلب الأسد فقد تخلص من خصم عنيد بقتل كونراد ، فاختار لعرش المملكة الصليبية هنري دي شامبني وزوجه من ايزابيل أرملة كونراد ، في حين أرضى جاي لوزجنان بمنحه جزيرة قبرس ليؤسس فيها أسرة صليبية حاكمة ظلت تحكم الجزيرة عدة قرون (١١٩٢ — ١٤٧٢) .

ولم يكد ريتشارد قلب الأسد يستريح من مشاكله الداخلية ، حتى عاد الى توجيه جهوده ضد المسلمين ، فاستولى على قلعة الداروم (دير البلح) في مايو سنة ١١٩٢ رغم المقاومة الشديدة التي أبدتها حامية القلعة . وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو حصن مجدل يابا وحاولوا الاستيلاء عليه ، ولكن المسلمين ردوهم خائبين بعد أن أنزلوا بهم بعض الخسائر . وكان أن اتجه ريتشارد بعد ذلك الى عسقلان ، ومنها شرع في الزحف مرة أخرى على بيت المقدس . وعلى الرغم من حرارة الجو وقلة الماء ، فقد واصل

(١) للتفاصيل انظر : —

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢

ص ٨٨٥ — ٨٨٦ .

الصليبيون زحفهم حتى وصلوا في ١١ يونية الى بيت نوبة ، حيث
قضى الصليبيون بضعة أسابيع في انتظار هنري دى شامبنى الذى
تصد عكا لجلب امدادات وآلات حصار يستعين بها
الصليبيون في محاولتهم للاستيلاء على بيت المقدس . ومع ذلك
فان المسلمين لم يتركوا الصليبيين يتقدمون في هدوء ، وانما ظلوا
يطاردونهم » وألهبهم بالنهب والسلب وسلطوا عليهم وكمنوا
لهم تحت كل رابية » ، على قول ابن واصل . وهكذا حتى وصلت
مقدمة الصليبيين الى قلونية — على بعد ثمانية كيلومترات الى
الشمال الغربى من بيت المقدس . ويروى أبو شامة أن
صلاح الدين اتخذ في تلك الأثناء عدته لمقاومة الصليبيين ، فوزع
أسوار بيت المقدس على الأمراء للدفاع عنها » وتقدم اليهم بتهيئة
أسباب الحصار ، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس ، فحرب
الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب
أصلا » . هذا فضلا عن قيام فرسان المسلمين باغارات مفاجئة
على معسكر الصليبيين (١) .

وبينما الصليبيون ينتظرون في ١٧ يونية قافلة قادمة من يافا
تحمل اليهم المؤن والامدادات ، اذا بفرقة من المسلمين تحت
قيادة الأمير بدر الدين دلدزم تغير عليها » فقتلوا وأسروا وفازوا
ونصروا » . وهكذا ساءت حالة الصليبيين بسبب نقص المؤن
وشدة الحرارة وندرة الماء ، في حين اختار ريتشارد أن يلتزم

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٩٨ .

معسكره في بيت نوبه ، ورفض أن يتقدم أكثر من ذلك ، ورد على معارضيه بأنه لا يستطيع أن يتحمل مسئولية عمل يلام عليه بعد ذلك .

على أن امتناع ريتشارد عن مهاجمة صلاح الدين في بيت المقدس لم يمنعه من استخدام سلاح آخر ، هو قطع الطريق بين مصر والشام ، مستغلا في ذلك سيطرته على عسقلان وقلعة الداروم من ناحية ، وخيافته بعض البدو والأعراب من ناحية أخرى . وكان صلاح الدين قد طلب حضور العسكر المصري للمشاركة في الدفاع عن بيت المقدس ، فخرج العسكر من مصر في هيئة قافلة كبيرة تحت قيادة فلك الدين أخى الملك العادل لأمه . وعلى الرغم من أن صلاح الدين كتب الى رجال القافلة من القدس « يأمرهم بالاحتراز عند مقاربة العدو » ، إلا أن أخبار القافلة الضخمة الآتية من مصر لم تلبث أن تسربت الى الصليبيين بالشام عن طريق البدو « والعرب المفسدين » . وعندما علم صلاح الدين بتربص الصليبيين للعسكر المصري ومسيرهم للإيقاع به ؛ بادر بارسال بعض أمرائه لملاقاة العسكر وتحذيرهم . ومع ذلك فإن ريتشارد استطاع مباغتة القافلة المصرية أثناء الليل — ٢٣ يولية سنة ١١٩٢ — « فكبسهم قرب الصباح » ؛ ولم يستطع النجاة بنفسه من المسلمين الا الشجاع ؛ وكانت النتيجة أن أسر الصليبيون عددا كبيرا في حين فر الباقون الى الكرك و « أوغلوا في البرية » . وقد قدر المقرئى عدد أسرى المسلمين في تلك الواقعة بخمسمائة رجل ، في حين ذكر ابن شداد

أنه قتل من الصليبيين فيها زهاء مائتي فارس ، وهو عدد مبالغ فيه . أما الغنائم التي غنمها الصليبيون من الخيل والجمال والأقمشة والأموال فكانت ضخمة حتى أن المؤرخين ذكروا أن عدد الجمال وحدها بلغ ثلاثة آلاف جمل . لذلك لا عجب إذا اعتبر المؤرخون المسلمون تلك الكارثة « وقعة شنعاء لم يصب الاسلام مثلها من مدة مديدة » . كذلك يروى القاضي ابن شداد أنه حاول أن يسكن أطم صلاح الدين عندما سمع الخبر ويسليه ولكن دون جدوى « فما مر بالسلطان خبر أنكى منه في قلبه » (١) .

ويبدو أن هذه الانتصارات التي أحرزها ريتشارد جعلت الصليبيين يعودون الى خيامهم « وقد طمعوا » ، فعادوا يفكرون في السير الى بيت المقدس . وكان أن أسرع ريتشارد الى تقوية الحراسة عند اللد حتى لا ينقطع وصول المؤن الى معسكر الصليبيين ، وفي الوقت نفسه أرسل الى صور وطرابلس وعكا « يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الى القدس » .

ولا شك في أن وصول هذه الأخبار الى المسلمين في الوقت الذي قنع صلاح بالبقاء في بيت المقدس وتقوية استحکاماتها لمواجهة الهجوم الصليبي المنتظر ، ترك أثرا سيئا في الروح المعنوية للجيش الاسلامي . وقد حكى المؤرخون المسلمون أن

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٤٧ - ٣٥١

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٨

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٨٣ - ٣٨٤

المقریزی : السلوك ؛ ج ١ ص ١٠٩ .

الأجناد والأمراء أنكروا على صلاح الدين الاستمرار في تحصين بيت المقدس واعدادها للحصار ، وقالوا « لا مصلحة في ذلك ، فانا نخاف أن نحصر ويجري علينا مثل ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع .. » . وهكذا يبدو أن عقدة عكا ظلت تتحكم في تفكير رجال صلاح الدين في ذلك الوقت . هذا فضلا عما نشأ من خلافات بين صفوف الطوائف العديدة التي تألف منها جيش صلاح الدين والتي رجعت الى عناصر وأصول متعددة لم يجمع بينها سوى الاسلام والرغبة في الجهاد . وقد أشار مؤرخو الصليبيين الى تلك الخلافات التي دبت عندئذ في صفوف المسلمين ، مما شجع ريتشارد على الحركة والعمل ضد المسلمين . ثم ان بقاء صلاح الدين في بيت المقدس لم يلبث أن عرض بعض أنحاء دولته للاضطراب . من ذلك مايرويه أبو شامة من اختلال أحوال دمشق وأعمالها في تلك السنة . وخلاصة القول أن صلاح الدين وجد نفسه عندئذ في موقف لا يحسد عليه ، وهو الرجل الحريص على الجهاد الراغب في تطهير البلاد . ويحكى ابن شداد أن صلاح الدين دخل المسجد الأقصى « وصلى ركعتين ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه !! » وذلك بسبب ما أحس به من سوء الموقف (١) .

على أن الموقف لم يلبث أن تبدل فجأة بسبب اختلاف كلمة الصليبيين وانقسامهم على أنفسهم ، بين مؤيدين للزحف على

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٣٥٦ .

بيت المقدس ومحاصرتها ومعارضين لتلك الفكرة . وقد روى
أبو شامة وابن واصل المناقشة التي دارت بين الطرفين . وكان
يؤيد فكرة مهاجمة القدس الصليبيون الفرنسيون الذين قالوا
« إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه » ، في حين
عارض ريتشارد والانجليز تلك الفكرة بحجة عدم وجود مياه
خارج المدينة بعد أن أفسد صلاح الدين الآبار . وعندما استحكم
الخلاف بين الفريقين تقرر التحكيم ، وانهى الأمر برفض الرأى
القائل بمهاجمة بيت المقدس ، فانسحب الصليبيون « ناكسين
على أعقابهم » الى الرملة في أواخر يوليو سنة ١١٩٢ ؛ ومن هناك
« بعثوا رسلهم في طلب الصلح .. » .

* * *

صلح الرملة :

وكان لانسحاب ريتشارد رد فعل قوى في صفوف المسلمين ،
اذ انتعش صلاح الدين وارتفعت الروح المعنوية لرجاله ، ورفض
المسلمون التفاوض على أساس الشروط السابقة ، بل ان
صلاح الدين أوشك أن يبطش بالرسول الذى أوفده اليه هنرى
دى شامبنى للمطالبة باعادة مملكة بيت المقدس الصليبية .

على أن رغبة ريتشارد في العودة السريعة الى بلاده ، ورغبة
صلاح الدين في التفرغ لشئون دولته دفعت الفريقين الى الدخول
في مفاوضات جديدة لتصفية الموقف والوصول الى حل لذلك
النزاع الذى طال دون نتيجة . وقد قام بالوساطة في تلك المفاوضات

الحاج يوسف صاحب الأمير سيف الدين المشطوب عن جانب المسلمين ، وأوتفروى دى ثورون عن جانب الصليبيين . ويفهم من رسالة ريتشارد الى صلاح الدين أنه لجأ الى أسلوب يجمع بين التهديد والترغيب ، فهو يقول لصلاح الدين : « لا تغتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش يتأخر لينطح !! » وفى الوقت نفسه يقترح على صلاح الدين أن يحكم هنرى دى شامبنى مملكة بيت المقدس ولكن تحت حماية المسلمين ، فيكون هو وجيشه تحت امرة صلاح الدين وفى طاعته « ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا !! » . وقد ارتاح صلاح الدين ورجاله لتلك اللهجة المعتدلة من جانب ريتشارد ، فأرسل صلاح الدين اليه قائلاً « ان ابن اختك (هنرى دى شامبنى) يكون عندى كبعض أولادى » .

وبعد أن تم الاتفاق على هذا المبدأ العام بقيت التفاصيل ، لا سيما فيما يتعلق بملكية بيت المقدس ذاتها وبعض المدن الساحلية . وهنا تنازل ريتشارد عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس ، واكتفى بالتمسك بحق الصليبيين فى حماية الأماكن المقدسة — وبخاصة كنيسة القيامة — مع ضمان حرية الحج والعبادة للصليبيين . ولم يفت ريتشارد أن يشير بتسامح صلاح الدين وسعة صدره ، وعبر عن أمله فى أن يحظى ببعض ذلك الكرم الذى اشتهر به صلاح الدين فى معاملته للصليبيين ، فقال له « ان جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس ، فما بخلت عليهم بها ، وأنه (ريتشارد) طلب منك

كنيسة (القيامة) » . وكان أن وافق صلاح الدين على ذلك ، كما وافق على أن يكون للصليبيين ملك البلاد الساحلية من صور الى يافا ، بشرط أن « عسقلان وما وراءها تكون خرابا لا لنا ولا لكم » . ومن الواضح أن صلاح الدين اهتم تلك المرة بإبعاد سيطرة الصليبيين عن عسقلان — وما يليها من بلدان الساحل تجاه مصر مثل غزة والداروم — حتى لا تؤدي سيطرة الصليبيين على تلك الجهات الى قطع طريق الاتصال بين مصر والشام . أما داخلية بلاد الشام ، فقد اتفق على أن تبقى بأيدي المسلمين . على أن المفاوضات عادت وتعثرت بسبب رفض ريتشارد تسليم عسقلان وتخريبها ، حتى مقابل اللسد التي عرض صلاح الدين اعطائها للصليبيين . وكان صلاح الدين قد أفاق عندئذ من أزمة هجوم ريتشارد على بيت المقدس ، فأجاب على اصرار ريتشارد على التمسك بعسقلان وعدم تخريبها بالقيام بهجوم كبير على يافا ، « فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج الى أن أخذ البلد عنوة وغنم الناس منها شيئا عظيما » . وكان ريتشارد قد اتجه عندئذ شمالا بنية انتزاع بيروت من المسلمين ، ثم الابحار فورا الى أوروبا ، فانتهر صلاح الدين فرصة ابتعاد ريتشارد من جهة وضعف حامية يافا من جهة أخرى لتنفيذ خطته والاستيلاء على يافا في أواخر يولية سنة ١١٩٢ (١) .

على أن صلاح الدين لم يهنأ بيافا طويلا ، لأن حامية المدينة

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ، ص ٣٤٢
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٩٣ — ٣٩٤

دافعت في قوة واصرار وشجاعة استرعت نظر القاضى ابن شداد
الذى لم يستطع أن يخفى اعجابه ببسالة الصليبيين في يافا . ومع
أن الصليبيين لم يستطيعوا وقف تيار المسلمين واضطروا الى
اخلاء المدينة ، الا أنهم احتفظوا بقلعتها وثبتوا فيها حتى تم الاتفاق
على التسليم . وفي الوقت المحدد للتسليم لاح الأسطول الصليبي
أمام يافا في أغسطس سنة ١١٩٢ ، يحمل ريتشارد الذى عاد من
عكا مسرعا لانتقاذ يافا . ولم يشأ ريتشارد أن يضيع الوقت في
تلك المرة ، وانما أسرع بانزال قواته ومهاجمة المسلمين فورا ،
ويمكن بفضل تلك السرعة المبالغتة من ائزال الهزيمة بالمسلمين في
أول أغسطس سنة ١١٩٢ ومطاردتهم حتى يازور . ولم يتمالك
ريتشارد نفسه من الشماتة في أعدائه ، فقال مخاطبا بعض أمراء
المسلمين « هذا السلطان عظيم ، وما في هذه الأرض للاسلام أكبر
ولا أعظم منه . كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي ؟ !! » (١) .
وكانت القوة التى أتى بها ريتشارد الى يافا صغيرة لم تتجاوز
ألفى رجل ، منهم خمسمائة فقط من الفرسان ، فأسرع هنرى
دى شامبنى الى قيسارية عن طريق البحر لاحضار المدد . على أن
صلاح الدين أراد أن يستغل قلة رجال ريتشارد قبل أن يأتيه
المدد ، فحاول القيام بهجوم جديد مفاجئ في مساء يوم ٥ أغسطس
على معسكر ريتشارد ، ولكنه لم يجد استجابة وتأيدا من رجاله .
بل لقد تجرأ أحد أمراء صلاح الدين — ويعرف بالجناح —

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٣٧٧ .

عليه ، وقال له « يا صلاح الدين ! قل لمالكك الذين أخذوا
أس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلون . اذا
كان القتال فنحن واذا كانت الغنيمة فلهم ! » . وهكذا ساء موقف
صلاح الدين ، وانسحب في حالة سيئة من خيبة الأمل الى يازور
ومنها الى النطرون ، في الوقت الذي تحول ريتشارد من الدفاع
الى الهجوم .

ولم يلبث ريتشارد أن اعتراه المرض في يافا ، فأبت شهامة
صلاح الدين الا أن يقدم له كل معونة ممكنة في مرضه . من
ذلك ما تذكره المراجع من أن الأطباء وصفوا لريتشارد الفاكهة
والثلج ، فأخذت رسله تتردد على صلاح الدين الذي لم يرض
على خصمه بكل ما طلبه ، فكانت « رسل الأنكلتيري لا تنقطع
في طلب الفاكهة والثلج ، وأوقع عليه في مرضه شهوة الكمثرى
والخوخ ، وكان السلطان يمدّه بذلك .. » . ويبدو أن هذا
السلوك من جانب صلاح الدين كان له أثره الطيب في نفس
ريتشارد ، الذي أخذ يشعر عندئذ بمزيد من القلق للأخبار السيئة
التي استمرت تصله من بلاده والتي تطلبت عودته الى الغرب على
وجه السرعة . وقد أدرك المسلمون صعوبة موقف ريتشارد في
الشرق وأنه مضطر الى العودة غربا ، فذكر القاضي ابن شداد
« وكان لعنه الله مضطرا الى الرواح ! » . بل ان ريتشارد نفسه
لم يخف عن المسلمين اضطرابه الى العودة السريعة الى بلاده
بسبب سوء أحوالها ، فقال لأحد أمراء المسلمين : « سلم على
السلطان وقل له : بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا الأمر

لا بد له من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء البحر ، وما فى دوام
هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ! » (١) . والواقع أن ريتشارد كان
لا يستطيع العودة الى بلاده تاركاً الموقف معلقاً فى بلاد الشام بين
المسلمين والصليبيين . وإذا كان ريتشارد قد حقق بعض انتصارات
على المسلمين ، فانها كانت انتصارات جزئية محلية ، فى حين ظل
صلاح الدين رابضاً فى داخلية بلاد الشام على رأس جيوشه
يتحكم فى دولة قوية تمتد من حلب ودمشق وبيت المقدس الى
وادي النيل ، وتحيط بالبقايا الصليبية المتناثرة قرب شواطئ
الشام .

وسرعان ما تدهورت صحة ريتشارد تدهوراً ملحوظاً ، بحيث
بدا أنه ان لم يعجل بالعودة الى بلاده ، فربما أدركه الموت
بالشام . وكان لابد لريتشارد من الاتفاق مع صلاح الدين بأية
صورة قبل أن يودع بلاد الشام ، لتأمين موقف الصليبيين بالشام
بعد عودته . والواقع ان الاتفاق بين صلاح الدين وريتشارد
لم يكن متعذراً ، لولا مشكلة عسقلان وغزة والداروم التى أبى
صلاح الدين الا أن يستردها المسلمون وصمم ريتشارد على أن
يحافظ بها الصليبيون . وهكذا عاد ريتشارد الى ملائكة
صلاح الدين من جديد ، الأمر الذى جعل القاضى ابن شداد
لا يتمالك نفسه ويعجب من أسلوب ريتشارد فى التهديد حيناً

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٩٩
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٨٣ .

والملاينة أحيانا ، فقال « انظر الى هذه الصناعة في استخلاص
الفرص باللين تارة والخشونة أخرى ! » .

وأخيرا — وتحت تأثير الرغبة الملحة في العودة الى بلاده —
اضطر ريتشارد الى التنازل عن بعض شروطه ، فتم عقد صلح
الرملة ، في ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ ، وهو الصلح الذي نص على
أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا ، بما فيها
قيسارية وحيفا وأرسوف . أما عسقلان فتكون للمسلمين في حين
تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين . واشترط
صلاح الدين دخول بلاد الاسماعيلية (الباطنية) ، واشترط
الصليبيون دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح ؛ « ورضى
الاسبتارية والداوية ، وسائر مقدمى الافرنجية بذلك » .
أما الأماكن المقدسة فقد ظلت في أيدي المسلمين ، على أن يكون
للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بدفع أية
ضريبة . وقد اتفق على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة
أشهر ، وناب عن الملك ريتشارد في التوقيع على الاتفاقية هنرى
دى شامبنى وباليان الثانى دى ابلين — الذى عرفته المراجع
العربية باسم باليان بن بارزان — وأوتفروى الرابع دى تورون ؛
في حين مثل الجانب الاسلامى الملك الأفضل والملك الظاهر ابنا
صلاح الدين ، فضلا عن أخوه الملك العادل وبعض الأمراء
الآخرين .

* * *

خاتمة صلاح الدين :

لا يخفى علينا أن صلح الرملة قوبل بالارتياح التام من المسلمين والمسيحيين سواء ، بعد أن ملوا جميعا تلك الحرب الطويلة التي لم تنته الى نتيجة حاسمة وتاقوا الى فترة من الهدوء والسلام يباشرون فيها نشاطهم العمراني . ويصور لنا المقرئ عظم الفرحة التي عمت المسلمين والمسيحيين سواء عند اعلان الصلح ، فيقول « كان يوم الصلح يوما مشهودا ، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب ! » (١) . أما صلاح الدين نفسه ، فيبدو أنه لم يقدم على مصالحة الصليبيين مختارا ، وإنما الظروف هي التي اضطرته الى الصلح اضطرارا بعد أن رأى « سامة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة » . ولو سارت الأمور لصلاح الدين على ما يشتهي لاستمر في الجهاد حتى تتحقق غايته الكبرى ، وهي تطهير بلاد الشام من الدخلاء الغربيين . وكان أخشى ما يخشاه صلاح الدين هو أن يترك الصليبيين في بعض مراكزهم ببلاد الشام ، فتكون هذه المراكز بمثابة قواعد لانطلاقهم بعد ذلك واستقبال وفود أخرى من الغزاة الغربيين . ويؤكد القاضي ابن شداد — وهو رفيق صلاح الدين وصديقه وجليسه هذا المعنى ، فيقسم قائلا : « والله العظيم ! ان الصلح لم يكن من اثاره ، فانه قال لي في محاوراته في الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدري أى شيء يكون مني فيقوى به هذا العدو ؛

(١) المقرئ : السلوك ؛ ج ١ ص ١١٠ .

وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في قلعته ! » (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإن صلاح الدين أعلن « ان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل ! » . وقد حرص صلاح الدين على أن يتحلى دائما بروح الشهامة والمروءة والتسامح التي ميزت معاملاته مع الصليبيين ، فقبل ما طلبه منه هوبرت اسقف سالسبورى من تعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليك في كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة ؛ وذلك الى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الارثوذكس والسريان واليعاقبة (٢) .

ولم تلبث أن عادت الحياة الطبيعية الى فلسطين ؛ فأقبل الحجاج المسيحيون على بيت المقدس آمنين ، وأخذ النشاط يدب في طرق التجارة ؛ « واختلط العسكران وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة ؛ ووصل خلق عظيم العدد الى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب في ذلك ، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا » . ولما علم ريتشارد قلب الأسد كثرة من يزور بيت المقدس من حجاج المسيحيين ، خشى أن يغضب صلاح الدين لذلك « وسير الى السلطان يسأله

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩١ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢

ص ٨٩٩ - ٩٠٠ .

منع الزوار واقترح أن لا يؤذن لهم الا بعد حضور علامة من جانبه أو كتاب منه . ولكن صلاح الدين أبى ذلك ، ورد عليه بأن أولئك الحجاج « وقد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هذا المكان الشريف ، فلا استحل منعهم ! » . بل ان صلاح الدين بالغ في اكرام من يرد الى بيت المقدس من حجاج المسيحيين ، « وشرع في مد الطعام لهم ومباستطتهم ومحدثتهم !! » . وبذلك لقن صلاح الدين أحد ملوك الغرب الأوربي درسا في التسامح وسعة الأفق ، وذلك قبل أن يركب ريتشارد البحر في طريقه الى غرب أوروبا في أوائل أكتوبر سنة ١١٩٢ .

ويفهم من المراجع المعاصرة أن صلاح الدين استمر في ذلك الدور الأخير من حياته متمسكا بسياسة التسامح مع الصليبيين والاحسان اليهم . من ذلك أنه عندما حضر بوهيموند الثالث أمير أنطاكية لزيارة صلاح الدين في بيروت في نهاية أكتوبر سنة ١١٩٢ ، بالغ صلاح الدين في « احترامه واکرامه ومباستطته » . وعندما استحكم الخلاف من جديد بين هنري دى شامبني — ملك مملكة بيت المقدس — من ناحية وغريمه جاي لوزجنان الذي آلت اليه مقاليد الحكم في جزيرة قبرس من ناحية أخرى ، احتكم الطرفان لصلاح الدين وطلب كل منهما مساعدته ضد غريمه . ولكن صلاح الدين لم يستجب لرغبات أحد الطرفين ، ورفض أن يقدم مساعدته لأيهما ، وربما رأى في « افتراق كلمتهم نصر للإسلام » . ومن جهة أخرى فانه يبدو أن الصعوبات التي أحاطت بهنري دى شامبني ملك بيت المقدس جعلته يحرص على

كسب ود صلاح الدين ، فأرسل اليه « يستعطفه ويستميله
ويطلب منه خلعة ، وقال له : أنت تعلم أن لبس القبا والشربوش
عندنا عيب ، وأنا ألبسهما منك محبة !! » . وكان أن أرسل له
صلاح الدين خلعة سنية ، منها القبا والشربوش ، ففرح بهما الملك
الصليبي وارتداهما في عكا !! (١) .

أما عن نشاط صلاح الدين بعد صلح الرملة ، فكان معظمه
محصورا في دائرة داخلية ضيقة . ولم يكد صلاح الدين يتأكد
من سفر ريتشارد قلب الأسد الى الغرب ومغادرته بلاد الشام ،
حتى قرر الرحيل الى مصر بعد أن طال غيابه عنها . وكان أن
وضع صلاح الدين لنفسه برنامجا يتلخص في زيارة القلاع
والمواقع البحرية ليتفقدوها حتى بانياس شمالا ، وبعد ذلك يتوجه
لزيارة دمشق زيارة قصيرة تستغرق أياما معدودة ؛ ومنها يرحل
الى مصر مارا ببيت المقدس . وفعلا غادر صلاح الدين بيت المقدس
بعد أن ترك فيها القاضي ابن شداد ليعنى بعمارة البيمارستان
(المستشفى) الذي أنشأه صلاح الدين وإدارة المدرسة التي
أقامها فيه . ومن بيت المقدس اتجه صلاح الدين الى نابلس
فسبسطية فكوكب فيروت ، حيث لقيه بوهيموند الثالث أمير
أنطاكية — كما سبق أن ذكرنا — في أواخر أكتوبر سنة ١١٩٢ .
وفي جميع البلاد التي مر بها صلاح الدين كان يستمع لشكاوى
الأهالي « ويكشف عن أحوالهم » ويرفع الظلم عنهم . وبعد

(١) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٨٨ هـ .

أن تفقد صلاح الدين القلاع الساحلية وعمل على « سد خللها واصلاح أمور أجنادها ، وشحنها بالأجناد والرجال » ؛ اتجه الى دمشق — وكان يحبها ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد . وفي دمشق التقى صلاح الدين بمجموعة من أولاده منهم الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر ؛ فعقد مجلس كبير حضره الخاصة والعامة وأنشد فيه الشعراء القصائد والمدائح ، وجلس صلاح الدين ينظر في شكاوى الأهالي « وينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله » .

ويبدو أن صلاح الدين قضى في دمشق وقتا طيبا فلحق به هناك أخوه العادل ، وأخذ صلاح الدين وأخوه وأولاده يمارسون رياضة الصيد « ويتفرجون في أرض دمشق وموطن الأطباء ؛ وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار » . ويذكر ابن شداد أن بهجة دمشق أنست صلاح الدين ما كان قد اعتزمه من قصد الديار المصرية ، بل انه أرسل الى القاضي ابن شداد بالقدس يستدعيه ليكون الى جواره بدمشق . ولما وصل ابن شداد الى دمشق ، استدعاه صلاح الدين على انفراد « فدخلت عليه ، فقام ولقيني لقاء ما رأيت أشد من بشره بي فيه ، ولقد ضمنى اليه ودمعت عينه ، رحمه الله » .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين استمر في ذلك الدور يستقبل رسل الصليبيين ويمارس نشاطه العادي دون أن يشكو علة أو مرضا ، فان رفيقه ابن شداد لاحظ عليه ثقل الحركة والكسل

وانحرف المزاج « ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه » .
ومع ذلك فقد خرج صلاح الدين لاستقبال الحجاج سنة ٥٨٩ هـ
في يوم عظيم اجتمع فيه جمع كبير من الناس وأحاطوا بصلاح الدين
حتى خاف عليه ابن شداد ، وحدثه في ضرورة الحيلة على نفسه .
وكان ركوب صلاح الدين في ذلك اليوم آخر ركوبه ، اذ بات تلك
الليلة ليفتح عينيه وسط الليل وقد غشيت « حمى صفراوية » .
ولم يفلح علاج الأطباء اذ أخذ المرض في تزايد سريع ، واشتد
الألم في رأسه « وقلت رطوبات بدته » . وكان ان انتشر خبر
مرض صلاح الدين في دمشق فاضطرب الناس وخافوا « وغشيتهم
من الكآبة والحزن ما لم يمكن حكايته » . وقد تكاثرت جموع
الناس حول قلعة دمشق بين مستفسر يريد الاطمئنان وداع له
بالشفاء . ولم يسمح لأحد بالدخول عليه سوى القاضي ابن شداد
والقاضي الفاضل ، فكانا يترددان عليه بضع مرات في النهار والليل .
وفي اليوم السادس لمرضه كان يجلس عنده القاضي ابن شداد ،
فأحضروا له ماء فاترا ليشربه عقب الدواء ، ولكن صلاح الدين شكَا
من شدة حرارة الماء . ولما أحضروا ماء ثانيا شكَا صلاح الدين من
برده وقال : « سبحان الله ، ألا يمكن أحد تعديل الماء » ، وكان
ذلك دون أن يغضب أو يصخب ؛ « فخرجت أنا والقاضي الفاضل
من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي : أبصر
هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ! والله لو أن
هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره » .

وبازدياد وطأة المرض على صلاح الدين أخذ يغيب ذهنه وتنتابه حالات اغماء بين حين وآخر ، وتزداد كمية العرق التي ينضحها من جسمه . وإذا كانت حالته قد تحسنت بعض الشيء في اليوم العاشر ، مما أثار فرح الناس وسرورهم ؛ فانها كانت صحوة الموت التي أعقبها تفاقم الحال . ولما تحقق الملك الأفضل نور الدين على — أكبر أبناء صلاح الدين — ألا رجاء في شفاء والده ، استخلف الناس له .

وفي ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ (مارس ١١٩٣) ؛ وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه ؛ ساءت حالة صلاح الدين بدرجة ملموسة واستمر في حالة غيبوبة طويلة لم يفق منها الا نادرا ، فاستحضر أحد المقرئين ليقرأ عنده القرآن ، حتى اذا ما وصل المقرئ الى قوله تعالى « لا اله الا هو عليه توكلت » تبسم وجه صلاح الدين وتهلل ، وانتقلت روحه الى رضوان الله ؛ وكان ذلك بعد صلاة صبح يوم السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

لقد وقع نبأ موت صلاح الدين على المسلمين جميعا وقع الصاعقة ؛ ولترك القلم للقاضي ابن شداد — وهو شاهد عيان — يصف لنا صدى تلك المصيبة في قلوب الناس ، اذ يقول : « وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله ، منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فدائه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث الا ضرب من التجوز

والترخص الا في ذلك اليوم ؛ فاني علمت من نفسي ومن غيري
أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس .. وكان أولاده يخرجون
مستغيثين الى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ، ودام
الحال على ذلك الى ما بعد صلاة الظهر .. وكان نزوله في حفرة
— قدس الله روحه وتور ضريحه — قريبا من صلاة العصر ؛ ثم
نزل في أثناء النهار ولده الملك الظافر ؛ وعزى الناس فيه ، وسكن
قلوب الناس ؛ وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب
والفساد ؛ فما وجد قلب الا حزين ، ولا عين الا باكية الا من
شاء الله . ثم رجع الناس الى بيوتهم أقبح رجوع .

هذا ، وقد دفن صلاح الدين في قلعة دمشق الى أن شيدت
له قبة (ضريح) في شمال الكلاسة ، شمالي جامع دمشق قرب
المدرسة العزيزية التي بناها العزيز عثمان بن صلاح الدين ؛
فنقل اليها .

الفصل السادس

أخلاق عالم

توفى صلاح الدين عن سبع وخمسين عاما ، قضى معظمها في الجهاد والسعى لتحرير الوطن العربي في الشرق الأدنى من دنس الغزاة الغربيين الذين تستروا تحت قناع زائف من الدين ليحققوا أهدافا استغلالية وسياسية بعيدة المدى في منطقة هي بمثابة القلب من جسد العروبة .

وإذا كانت شهرة صلاح الدين الواسعة في التاريخ قد جاءت نتيجة لحسن بلائه وصبره على الجهاد وشجاعته في مواجهة الأخطار ، فإن هناك جوانب أخرى في شخصية هذا الرجل جديرة بالتسجيل وقمينة بأن تضفى عليه مزيدا من الأهمية والعظمة في التاريخ . ذلك أن صلاح الدين لم يكن محاربا شجاعا شهما فحسب ، بل كان أيضا إنسانا كريم الخلق وحاكما عادلا أحبه رعاياه لما لمسوه فيه من صفات سامية . وإذا كان صلاح الدين قد نجح في حروبه وحقق من الانتصارات ما عجز عنها كثير من القادة والحكام في التاريخ ، فالتا ينبغي أن نذكر دائما أن جزءا كبيرا من الفضل في تحقيق تلك الانتصارات ، وذلك النجاح إنما يرجع إلى شخصية صلاح الدين وكرم أخلاقه ومحبة رجاله له . ورب

قائد في التاريخ توافرت له من أسباب العظمة ووفرة الجيوش وقوة السلاح أكثر مما توافر لصالح الدين ، ومع ذلك لم يستطع أن يحقق جزءا مما حققه صالح الدين من ظفر ونجاح . ذلك أن صالح الدين استطاع أن يكتسب محبة رعاياه واخلص أمراءه وجنوده ، فكان إذا خرج للجهاد خرج مطمئنا الى أن وراءه رعية تؤمن به وتدعو له بالنصر والتوفيق ، وإلى أن حوله جيشا يخلص له ويشق فيه ويعتقد في صالح رأيه وعمله . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة في هذا الفصل على حكومة صالح الدين وأخلاقه وصفاته لنعرف الأسباب الحقيقية لنجاح صالح الدين في حياته وخلود ذكره بعد وفاته .

* * *

حكومة صالح الدين :

أراد الملك الظاهر غازي — ابن صالح الدين — أن يستأذن أباه قبل رحيله الى امارته في حلب وشمال الشام ، فاختلى به صالح الدين — في حضرة القاضي ابن شداد — وزوده ببعض النصائح والمبادئ التي ينبغي أن يسير عليها في حكمه ، والتي تعبر في حد ذاتها تعبيراً صادقا أميناً عن أسلوب صالح الدين نفسه في الحكم ، وأفكاره عن طرق معاملة الرعية ومبادئه في رعاية شئون البلاد والعباد . قال صالح الدين لابنه : « أوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك . وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها ، فان الدم لا ينام .

وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت الا بمداواة الناس . ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد . وحذار ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم ! » (١) .

هذا هو منهج صلاح الدين فى الحكم . واذا كان صلاح الدين قد حرص على أن يوصى أبناءه ونوابه بتلك النصائح ، فلا شك فى أنه كان أشد حرصا على أن يطبق بنفسه تلك الآراء تطبيقا مباشرا فى حكمه ، ليكون مثالا ساميا يحتذى نوابه فى حكم أجزاء دولته الواسعة . والملاحظ فى كتابات المؤرخين المعاصرين — أمثال ابن الأثير وأبى شامة والعماد وابن شداد ثم ابن خلكان وابن واصل — أنهم فى كتاباتهم عن صلاح الدين ركزوا مادتهم العلمية فى شرح حروبه وانتصاراته ، دون أن يتعرضوا للجانب السلمى من نشاط صلاح الدين الا بالقدر اليسير . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نلتقط من خلال أحداث الحروب طرفا من اصلاحات صلاح الدين وأسلوبه فى معاملة رعاياه . ومن حسن حظ التاريخ أن الرحالة الأندلسى ابن جبیر زار مصر والشام على أيام صلاح الدين . ومع رغبته

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٩٦ .

ن الايجاز وتخير المادة التي يسجلها ، الا أنه لم يتمالك نفسه
بأثنى على صلاح الدين وأعماله واصلاحاته ثناء كبيرا . فابن جبير
نارة يقول ما نصه : « وهذا السلطان الذي سن هذه السنن
المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدة البعيدة ؛
هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب ، وصل الله
صلاحه وتوفيته » . ومرة أخرى يذكر ان « مآثر هذا السلطان
ومقاصده في العدل ومقاماته في الذب عن حوزة الدين لا تحصى
كثرة » ..

وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين « وآثاره التي
أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا » أنه أزال بعض المكوس
والضرائب تخفيفا عن الناس ورفعاً للظلم عن كواهلهم . ومن هذه
المكوس عدد كبير كان مفروضا على كل ما يباع ويشترى
« مما دق أو جل ، حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس » ؛
فألغى صلاح الدين ذلك كله . وكانت هناك ضريبة قدرها سبعة
دنانير ونصف تفرض على كل حاج في طريقه الى الحجاز وتجمع
حصيلة هذه الضريبة لترسل الى الحجاز لتعمير مكة والمدينة
ومساعدة الناس هناك . وقد اشتط الفاطميون في جمع هذا المكس
من الحجاج ، ومن يعجز عن دفعه يعذب عذابا أليما في عذاب ثم
في جده اذا وصل اسمه غير مشار اليه بما يفيد سداد المكس .
ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس ، وخصص لأهل الحجاز
قدرا من المعونة تعادل قيمة ما كانوا يحصلون عليه من قيمة
مكس الحجاج ، وبذلك أراح الحجاج من عنت الجباة ، لاسيما

وأن نسبة كبيرة من الحجاج كانوا فقراء لا ينهضون بدفع ذلك المكس ؛ « فكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثا عظيما وخطبا أليما » .

ثم ان صلاح الدين لم يكتف « ببسط العدل ونشر الأمن » فى بلاده حتى غدا الناس ينتقلون من مكان الى آخر أثناء الليل دون أن يشعروا بخوف أو قلق ؛ وانما حرص أيضا على اقامة عدد كبير من المنشآت العامة والمرافق بقصد تيسير أسباب الحياة لرعاياه . ويذكر ابن جبير أن صلاح الدين أمر بإنشاء عدد من المحاضر أو الكتاتيب وخصص لها المعلمين لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء ، وخصص لهم جميعا الجراية الكافية . هذا بالإضافة الى عديد المدارس التى أنشأها صلاح الدين — — — — — التى سبقت الإشارة اليها — — — — — وخصص لها المدرسين والأوقاف والأرزاق للاتفاق عليها وعلى طلبة العلم فيها .

ومن مآثر صلاح الدين أيضا المارستان أو المستشفى الكبير الذى شاهده ابن جبير فى القاهرة وقال عنه انه « قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا » . وقد رتبت فى غرف ذلك المستشفى أسرة مفروشة فرشًا كاملا نظيفا بحيث يكون لكل مريض فراشه الخاص به ، وخصص للمستشفى مجموعة من الأطباء يتفقدون أحوال المرضى ويصفون لهم العلاج ويصرفون لهم الدواء من صيدلية كبيرة ملحقه بالمستشفى بها الأدوية « على اختلاف أنواعها » . ويذكر ابن جبير أن هذا المستشفى كان ينقسم الى ثلاثة أقسام ، قسم خاص بالرجال وقسم خاص بالنساء « ولهن

أيضا من يكفلهن » ، وقسم ثالث خاص بالأمراض العقلية . وقد لوحظ في القسم الأخير تشديد الحراسة عليه حتى أن نوافذه كانت من الحديد حتى لا يتمكن مجنون من الهرب . وكان صلاح الدين نفسه « يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد » (١) .

والمعروف أن مصر في العصور الوسطى كانت مقصد كثيرين من زهاد المغرب ، فضلا عن حجاج المغاربة الذين كانوا يمرون بها إلى الحجاز والذين كانت نسبة منهم تفضل البقاء بمصر وعدم العودة إلى بلادهم . وتبع عن ذلك ازدياد جالية المغاربة بمصر ازديادا ملحوظا منذ أيام الفاطميين بوجه خاص ، ومعظم هؤلاء المغاربة كانوا فقراء في حاجة إلى معونة ومساعدة اجتماعية . وهنا نجد صلاح الدين يشمل هؤلاء المغاربة بعطفه ورعايته ، فخصص لهم جامع أحمد بن طولون يقيمون فيه ويعقدون حلقات الدرس بين رحابه الواسعة ، كما أجرى عليهم الأرزاق ، فخصص انسانا أمينا من قبله لتوزيع الطعام في كل يوم على « أبناء السبيل من المغاربة » . فاذا عجزت الأوقاف المخصصة لذلك الغرض عن الوفاء بالغرض فاته نبه على الموظفين المختصين أن يأخذوا ما يلزم « من صلب ماله » . وقد روى بعض هؤلاء المغاربة لابن جبير أن السلطان صلاح الدين ترك لهم حرية واسعة بحيث لم يسمح لأحد بالتدخل في خواص أمورهم « وجعل أحكامهم إليهم ،

(١) رحلة ابن جبير ؛ ص ٢٠ - ٢١ .

ولم يجعل يدا لأحد عليهم » . وهكذا اختار المغاربة بمصر أحدهم ليكون رئيسا عليهم « يمثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده .. فتفرغوا لعبادة ربهم ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله » (١) . هذا عن الأعراب الموجودين في دولة صلاح الدين ، أما رعاياه من أهل البلاد فقد وصفهم ابن جبير بأنهم « في نهاية من الترفيه واتساع الأحوال » . وخلاصة القول أن سياسة الجهاد التي اتبعها صلاح الدين ، وما تتطلبه هذه السياسة من جهود متواصلة وامكانيات ضخمة ومزيد من الوقت والمال .. كل ذلك لم يشغل صلاح الدين عن أن يقيم دعائم حكومة عادلة تعمل لصالح البلاد والعباد . وكان لصلاح الدين في أخلاقه القويمة خير مياج يضمن صلاح حكومته وعدم انحرافها ، ويتضح ذلك بدراسة أخلاق صلاح الدين نفسه في شيء من التفصيل لنرى صلاح الدين في صورة الانسان المسالم المستقيم مثلما رأيناه في صورة البطل الشجاع المحارب .

* * *

شجاعته وصبره على الجهاد :

اتصف صلاح الدين بالشجاعة الفائقة التي شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء . ولم يكن صلاح الدين مثل القادة الذين نسمع عنهم في التاريخ والذين كان الواحد منهم يقنع بالجلوس

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٠ ، ٢١ .

في عاصمته ويقذف بالجيوش الى ساحة الوغى ليقتل من رجاله من يقتل ويجرح منهم من يجرح ، فاذا أصابوا نصرا فالشرف والفخر للملك أو القائد الذي لم يشارك رجاله في قليل أو كثير ، وإن حلت الهزيمة بهم فالتبعة تقع عليهم وحملهم لأنهم لم يثبتوا ولم يصمدوا للعدو . كلا ؛ لم يكن صلاح الدين من ذلك الصنف من الملوك والقادة وإنما كان إذا أراد منازلة العدو تقدم رجاله وخرج صحتهم الى ساحة القتال ؛ وشاركهم مخاطر الحرب وأهوالها ، وثبت معهم في وجه الشدائد والأزمات ، فإن أصابوا نصرا فهو شريكهم في المجد والثواب ، وإن خانهم التوفيق فهو أيضا شريكهم في المسئولية .

ومن أمثلة شجاعة صلاح الدين أنه بعد أن استولى على حصن كوكب سنة ١١٨٨ (٥٨٤ هـ) ، سمح العسكر المصري بالانصراف للراحة ، وكان ذلك العسكر بقيادة أخيه الملك العادل ، فقرر صلاح الدين أن يودعهم حتى عسقلان ثم يتفقد البلاد الساحلية حتى عكا . ولم يوافق المقربون من صلاح الدين على تلك الخطة ، لأنه بعد أن يودع العسكر المصري في عسقلان سيبقى هو في شردمة قليلة من الجند ، فكيف يأمن على نفسه أن يتنقل من مدينة الى أخرى من مدن الساحل ليتفقدوها وهو دون جيش يحميه ، لا سيما وأن جموع الصليبيين كانت كبيرة في صور . لذلك أشار مرافقو صلاح الدين — ومنهم القاضي ابن شداد — عليه بالألا يفعل ذلك ، واعتبروا عمله « مخاطرة عظيمة » ؛ ولكنه أصر على رأيه ومضى في طريقه الى عكا بحذاء الساحل بعد أن

صرف العسكر المصرى دون أن يخاف عدوا أو يخشى خطرا .
 وكان الفصل شتاء والبرد قاسيا والبحر هائجا ، فنظر صلاح الدين
 الى أمواج البحر الهادرة ، ثم التفت الى القاضى ابن شداد
 وقال « أما أحكى لك شيئا فى نفسى ! انه متى يسر الله تعالى فتح
 بقية الساحل ، قسمت البلاد (بين أبنائه) وأوصيت وودعت ،
 وركبت هذا البحر الى جزائره ، وأتبعتهم (الصليبيين) فيها ،
 حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت !! » .
 ثم ان صلاح الدين كان محتفظا دائما بروحه المعنوية عالية ،
 لا ييأس أمام تفوق العدو ولا تخور قواه اذا أحاطت به الشدائد ،
 ومن ذلك ما يرويه ابن شداد أنه حدث أثناء حصار الصليبيين
 لعكا أن وصلت فى البحر فى ليلة واحدة أكثر من سبعين مركبا
 صليبيا ، وهو يعدهم مركبا بعد آخر من بعد صلاة العصر الى
 غروب الشمس ، ومع ذلك فان صلاح الدين كان « لا يزداد
 الا قوة نفس !! » . وفى ذلك الموضوع قال ابن شداد — وهو
 رفيق صلاح الدين وملازمه فى معظم حركاته وسكناته —
 « ما رأيته استكثر العدو أصلا ، ولا استعظم أمرهم قط .. » .
 وقد حدث فى بعض المواقع التى دارت بين صلاح الدين والصليبيين
 فى مرج عكا أن هزم المسلمون وسقط علمهم على الأرض ، ومع
 ذلك ظل صلاح الدين « ثابت القدم فى نفر يسير ، حتى انحاز
 الى الجبل يجمع الناس ، ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ،
 ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو فى ذلك
 اليوم » .

ومن الواضح أن هذه الشجاعة التي اتصف بها صلاح الدين ، كانت سببا من أسباب صبره على الجهاد ، بالإضافة الى ما عرف عنه من غيرة على مصالح المسلمين ورغبة قوية في مواصلة الجهاد حتى يظهر أرض العروبة من الدخلاء الطامعين . وقد جمع القاضي ابن شداد كتابا في الجهاد ذكر فيه آدابه وكل آية وردت في القرآن عنه ، وكل حديث نبوي روى في فضله ، وقدم كتابه لصلاح الدين الذي كثيرا ما كان يخلو الى نفسه ليطالع فيه . واذا أراد رجل أن يتقرب الى صلاح الدين ، فإن خير طريق لذلك كان طريق حثه على الجهاد . وتفيض كتب التاريخ بأمثلة عديدة على صبر صلاح الدين على الجهاد ، وكيف أنه — اذا كان على رأس جيشه قريبا من العدو — حرص على أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين . وقد حدث في ليلة ممطرة عاصفة وصلاح الدين يربط على مرج عكا أن سقطت خيمته وكان من الممكن أن تقتله ، ومع ذلك لم يزد ذلك الا رغبة في الجهاد ومثابرة عليه . وكان ان عبر القاضي ابن شداد عما لمسه في صلاح الدين من حب للجهاد واهتمام بأمره تعبيرا موجزا عميقا حين قال : « لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا في آله ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه .

لقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه
وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها
الرياح ميمنة وميسرة .

تدينه وصبره :

والواقع ان صلاح الدين كان مدفوعا الى الجهاد بعاطفة
دينية قوية واضحة ، وهذه العاطفة هي التي جعلته يواصل الجهاد
في صبر واصرار .

وقد شهد المعاصرون لصلاح الدين بأنه حسن العقيدة
سليمها ، وأنه استفاد من مشايخ أهل العلم وكبار الفقهاء
المعاصرين في تفهم ما استعصى عليه من أحكامها . وكان الشيخ
قطب الدين النيسابورى قد جمع له كتابا في أحكام الدين ،
فحرص صلاح الدين على تلك المعلومات وأخذ يعلمها الصغار
من أبنائه ويحفظها لهم .

وظهر تدين صلاح الدين في محافظته على الفروض الدينية .
فمن ناحية الصلاة كان شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى حكى
عنه أنه ظل عدة سنوات ما صلى فيها الا جماعة . وكان اذا مرض
يستدعى الامام وحده ويتحمل القيام من فراشه والصلاة مع
الامام جماعة . ويذكر القاضي ابن شذاد أنه رأى صلاح الدين
مرات وهو يصلى أثناء مرضه الأخير الذى أودى به الى الموت .

كذلك كانت له صلوات يصلّيها اذا استيقظ أثناء الليل ؛ بحيث لم يترك الصلاة الا في الأيام الثلاث الأخيرة التي فقد فيها وعيه .
وأما الزكاة ، فان صلاح الدين مات « ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئا من أنواع الأملاك » مما تجب عليه الزكاة . ومع أن صلاح الدين لم يترك في حياته ما يستوجب دفع الزكاة ، فانه توسع في صدقة النفل ، حتى استنفدت الصدقات التي اعتاد أن يوزعها جميع ما لديه من أموال ، فلم يترك في خزائنه — كما سبق أن أشرنا — سوى سبعة وأربعين درهما ، وجراما واحدا من الذهب .
وأما صوم رمضان ، فكان صلاح الدين حريصا عليه حرصه على الصلاة ؛ ولكنه تخلى عن صيامه بضعة سنوات بسبب أمراض ونوازل حلت به . وقد دأب القاضي الفاضل — وزير صلاح الدين — على ثبت تلك الفوائت التي فأت صلاح الدين من صيام رمضان ؛ حتى شرع صلاح الدين في السنة التي توفي فيها في قضاء تلك الفوائت وهو بالقدس . وواظب صلاح الدين على الصوم مدة متصلة ، وكان القاضي الفاضل متغيبا ، فأخذ القاضي ابن شداد يثبت الأيام التي يصومها صلاح الدين أيام مرضه . ولم يوافق طبيب صلاح الدين على صومه أثناء مرضه الأخير ، بل لقد لامه فعلا على ذلك ، ولكن صلاح الدين أصر على الصيام حتى قضى ما كان عليه قبل أن يشتد عليه المرض ويموت .

وأما الحج فكان صلاح الدين تواقاً للنهوض بتلك الفريضة ، ولكن مشاغل الجهاد التي استنفدت وقته ونشاطه حالت بينه وبين تحقيق أمنية عزيزة عليه . ولا يستطيع التاريخ أن يطلب من صلاح الدين أن يترك الجهاد ويفارق جيوشه لتقع البلاد والعباد فريسة للمعتدين الغاصبين في حين يقضى بضعة أشهر في الحج . ولذلك لم يستطع صلاح الدين أن يفكر تفكيراً جدياً في الحج إلا بعد عقد صلح الرملة مع الصليبيين . وكان أن تأهب صلاح الدين للحج في العام السابق لوفاته ؛ وعملت فعلاً الترتيبات الخاصة برحلته الى الحجاز بحيث لم يبق إلا المسير . ولكن المشكلة الأساسية التي حالت دون تنفيذ المشروع كان نقص المال ، اذ لم يجد صلاح الدين في خزائنه ما يمكنه من أداء الفريضة ، وبذلك تقرر تأجيل الحج للعام التالي بسبب « خلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخره الى العام المقبل ، فقضى الله ما قضى !! » على قول القاضي ابن شداد .

ثم ان صلاح الدين كان يحب سماع القرآن ويصغى له في انتباه « فاذا سمع القرآن يخشع قلبه ، وتدمع عينه في معظم أوقاته » . وبلغ من حب صلاح الدين لسماع القرآن أنه كان يأمر من يحرسه في الليل بقراءة الجزئين والثلاثة والأربعة وهو جالس يسمع . ويروى أنه مر على صغير يقرأ القرآن بين يدي أبيه ، فاستحسن قراءته ، وأعطاه بعضاً من طعامه الخاص ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة .

وما يقال عن القرآن يقال عن الحديث ، اذ كان صلاح الدين حريصا على سماعه وقراءته بنفسه . ويروى ابن شداد أن صلاح الدين كان يستحضره في خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرأها هو ، « فاذا مر بحديث فيه عبرة دق قلبه ودمعت عينه » .

وكان طبيعيا أن يتحلى صلاح الدين بالصبر والاحتساب ، وهو الرجل الدين المؤمن بالله وقضائه . وهناك اشارات عديدة في المراجع المعاصرة الى صبر صلاح الدين ، وهو الصبر الذي ظهر أشد ما يكون وضوحا في مواصلته الجهاد وهو بعيد عن أولاده الصغار ، فكان يقضى الأشهر والسنوات في ساحة القتال « وهو صابر على مفارقتهم ، راض ببعدهم عنه ، وكان صابرا على مر العيش وخشوته ، مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتسابا لله تعالى .. » وقد حدث أكثر من مرة أن قاد صلاح الدين جيوشه وهو مريض ، وأخذ ينظم جيوشه ويقاقل وهو يعاني آلام المرض ، وابن شداد يتعجب من ذلك فيرد عليه صلاح الدين قائلا « اذا ركبت يزول عني ألمها ! » .

كذلك روى ابن شداد أن صلاح الدين كان له ابن اسمه اسماعيل ، فجاءه خبر وفاة ذلك الابن ، وعندئذ عرف صلاح الدين الخبر ولكنه لم يعرف أحدا ، ولم يظهر عليه شيء من الألم سوى دمعة فرت من عينه « فانظر الى هذا الصبر والاحتساب ، والى أى غاية بلغ هذا الرجل ، اللهم لك ألهمته

الصبر والاحتساب ؛ ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم
الراحمين !! » (١) .

* * *

كرمه وحلمه وعفوه :

شهد المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين بالكرم الواسع ،
وأنه كان يعطى في وقت الضيق مثلما يعطى في وقت السعة ، وهو
دائما يعطى أكثر مما يؤمل الطالب . وقد عرف الناس فيه ذلك
فكانوا يستزيدونه في كل وقت حتى يخجل المحيطون به من كثرة
ما يطلبه الناس ، وهو مع ذلك لا يمتنع ولا يمن على من يعطيه .
وربما أدى اسراف صلاح الدين في العطاء والاحسان الى نقص
الأموال في خزائنه ، مما جعل نواب خزائنه يخفون عنه شيئا
من المال حذرا أن يفاجئهم أمر فلا يجدون المال اللازم ، ولعلمهم
أن سيدهم صلاح الدين متى علم بأمر مال في خزائنه أمر باخراجه
وتوزيعه . وروى ابن شداد أنه رأى صلاح الدين وقد اجتمع
لديه في بيت المقدس جمع من الوفود . ولم يكن في خزانة
صلاح الدين عندئذ من المال ما يكفي لتوزيعه على تلك الوفود
فباع أشياء من بيت المال وفرق ثمنها جميعا عليهم بحيث لم يبق
منه درهم واحد !!

وقد اتضح كرم أخلاق صلاح الدين أتم ما يكون في حلمه
وعفوه ؛ فكثيرا ما كان يتقبل الاساءة في صبر وحلم ويعفو عن

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٠

المسيء دون أن يسيء الظن به . من ذلك ما يرويه ابن شداد من أن الناس كانوا يتزاحمون على صلاح الدين لعرض شكاويهم ، وربما داسوا أطراف ثيابه والمرتبة التي يجلس عليها بأقدامهم ، وهو لا يتأثر لذلك ، وينظر في شكاويهم ويمضي في قضاء حاجاتهم في أناة وحلم . وكان يحدث أحيانا أن بعض المستغيثين والمتظلمين يغلطون له القول ، فيقبل قولهم « بالبشر والقبول ! » . وفي ذات يوم مر عليه القاضي ابن شداد وهو ممتطي بغلته ، وكان اليوم مطيرا كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان يرتديه صلاح الدين من ملابس ، ومع ذلك فقد رفض أن يسمح لابن شداد بالانزواء خجلا ، وابتسم وقربه منه حتى يزيل ما في نفسه من خجل وألم .

وثمة قصة يرويها ابن شداد — وهو شاهد عيان فيها — ليستشهد بها على حلم صلاح الدين وعفوه ، فيذكر أنه حدث أثناء الصراع بين صلاح الدين وريتشارد حول يافا في أواخر سنة ١١٩١ ، أن عصي بعد عساكر صلاح الدين تنفيذ الأوامر الصادرة منه اليهم ، وأجابوه « بكلام فيه خشونة » ، فتركهم صلاح الدين وانصرف « كالمغضب » ، حتى خيل لمن رآه أنه ربما قتل جماعة من العساكر في ذلك اليوم لما أتوه من أعمال وأقوال . ولم يزل صلاح الدين سائرا حتى وصل الى يازور وحوله الأمراء يرددون خيفة وكل منهم يعتقد أنه مسخوط عليه . حتى ابن شداد نفسه — مع عظم مكانته عند صلاح الدين

يقول « لم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة مني حتى استسعاني » . فلما دخل ابن شداد على صلاح الدين طلب منه أن يجمع الأمراء ليشاركوه في أكل كمية من الفاكهة كانت قد وصلت من دمشق ، فحضر الأمراء « وهم خائفون ، فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور ، وانصرفوا على عزم الرحيل (للقتال) كأن لم يجر شيء أصلا » .

* * *

عدله ورحمته :

وصف القاضي ابن شداد صلاح الدين بأنه كان « عادلا رءوفا رحيما ، ناصرا للضعيف على القوى » . ذلك أن صلاح الدين كان ينظر في شكاوى رعيته بنفسه ، وخصص لذلك يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، سواء كان مقيما أو مسافرا ، فيجلس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاء والعلماء ويسمح لجميع المتحاكمين بالدخول عليه « من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير » . وبالإضافة الى ذلك فقد كان صلاح الدين مستعدا في كل آن لسماع الشكاوى من رعيته « فما استغاث به أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته » .

وقد حدث أن ادعى تاجر يدعى عمر الخلاطى على صلاح الدين بأنه أخذ منه أحد ممالিকে ويدعى سنقر ، وبناء على ذلك استولى السلطان على ما كان لهذا المملوك من ثروة

طائلة بدون وجه حق . وعندما تقدم التاجر المدعى بظلامته الى القاضى ابن شداد ، أظهر صلاح الدين حلما كبيرا ورضى أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى ، وأحضر كل من الطرفين من لديه من شهود وما لديه من أدلة يثبت بها رأيه ، حتى اتضح فى النهاية كذب الرجل وادعائه بالباطل على صلاح الدين ، وعندئذ رفض صلاح الدين أن يترك المدعى يخرج من عنده خائبا فأمر له بخلعة ومبلغ كبير من المال !! ..

أما عن مروءة صلاح الدين ، فقد أجمع عليها المعاصرون . ولم تعم هذه المروءة العلماء والضعفاء والأصدقاء فحسب ، بل عمت أيضا أعداء صلاح الدين من الصليبيين ، فكان « يكرم الوافد عليه وإن كان كافرا » . وقد رأينا فى صفحات هذا الكتاب كيف أن صلاح الدين تسامح مع الصليبيين تسامحا عرضه لنقد بعض المؤرخين المعاصرين الذين رأوا فى تسامحه نوعا من التفريط وعدم الحزم . ويروى القاضى ابن شداد أنه كان راكبا ذات يوم صحبة صلاح الدين على مقربة من خطوط الصليبيين فإذا بأحد الجنود المسلمين يحضر امرأة صليبية تبكى فى حرقة وتدق على صدرها دقا متواصلا . فلما سأل صلاح الدين عن قصتها عرف أن ابنتها الصغيرة فقدت منها ، وعندئذ « رق لها ودمعت عينه ، وحركته المروءة ، وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها » . وهكذا لم تكد تمضي ساعة حتى أحضروا الطفلة الصغيرة ، فجرت الأم

نحو طفلتها لرؤيتها وأخذت « تعفر وجهها في التراب ، والناس
يكون على ما نالها ، وهي ترفع طرفها الى السماء ولا تعلم
ما تقول ، فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى
معسكرهم . »



حبه للشعر والأدب :

واذا كانت المراجع قد أفاضت في الكلام عن شجاعة صلاح
وصبره على الجهاد وأخلاقه الكريمة ، فليس معنى ذلك أن
تتصوره في صورة المحارب الذي لم يعرف بديلا عن الحرب
والجهاد أو ، صورة الزاهد الذي عاش في جو بعيد عن الدنيا ،
وانما يبدو من الاشارات القليلة في المراجع أن صلاح الدين كان
رجلا متكامل الشخصية وأنه لم ينس نصيبه من الدنيا بالقدر
الضئيل الذي سمحت له به ظروف الجهاد . من ذلك ما يذكره
ابن شداد عن صلاح الدين أنه كان « حسن العشرة ، لطيف
الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم ،
عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم عالما بعجائب الدنيا
ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضرة منه ما لا يسمع من
غيره . »

أما ابن خلكان ، فقد ذكر عن صلاح الدين أنه كان يستحسن
الأشعار الجيدة ويردها في مجالسه ، وأنه كثيرا ما كان يردد قول
الشاعر : —

وزارنى طيف من أهوى على حذر
من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حسولى به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب بى شغفا
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى
نيل المنى فاستحالت غبطينى أسفا

* * *

وبعد ، فان الكلام عن صلاح الدين يوسف يطول ويطول ،
فهو فى البطولة بطل شجاع ، وفى الخلق شهيم فاضل ؛ وهذا
أسمى ما كان يمكن أن يتحلى به فارس مثالى من فرسان
العصور الوسطى . لذلك لا عجب اذا احتل صلاح الدين تلك
المكانة الضخمة فى تاريخ الشرق والغرب ؛ وسيظل اسم
صلاح الدين حيا ماثلا فى القلوب والأذهان طالما رددت معانى
البطولة والفداء من ناحية وطهارة الخلق ونقاوة النفس من ناحية
أخرى .

ومرة أخرى نردد مع صديقه وجليسه ابن شداد دعاءه عندما
يقول عن صلاح الدين « اللهم انك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة
دينك ، وجاهد رجاء رحمتك ، فارحمه .. » .

